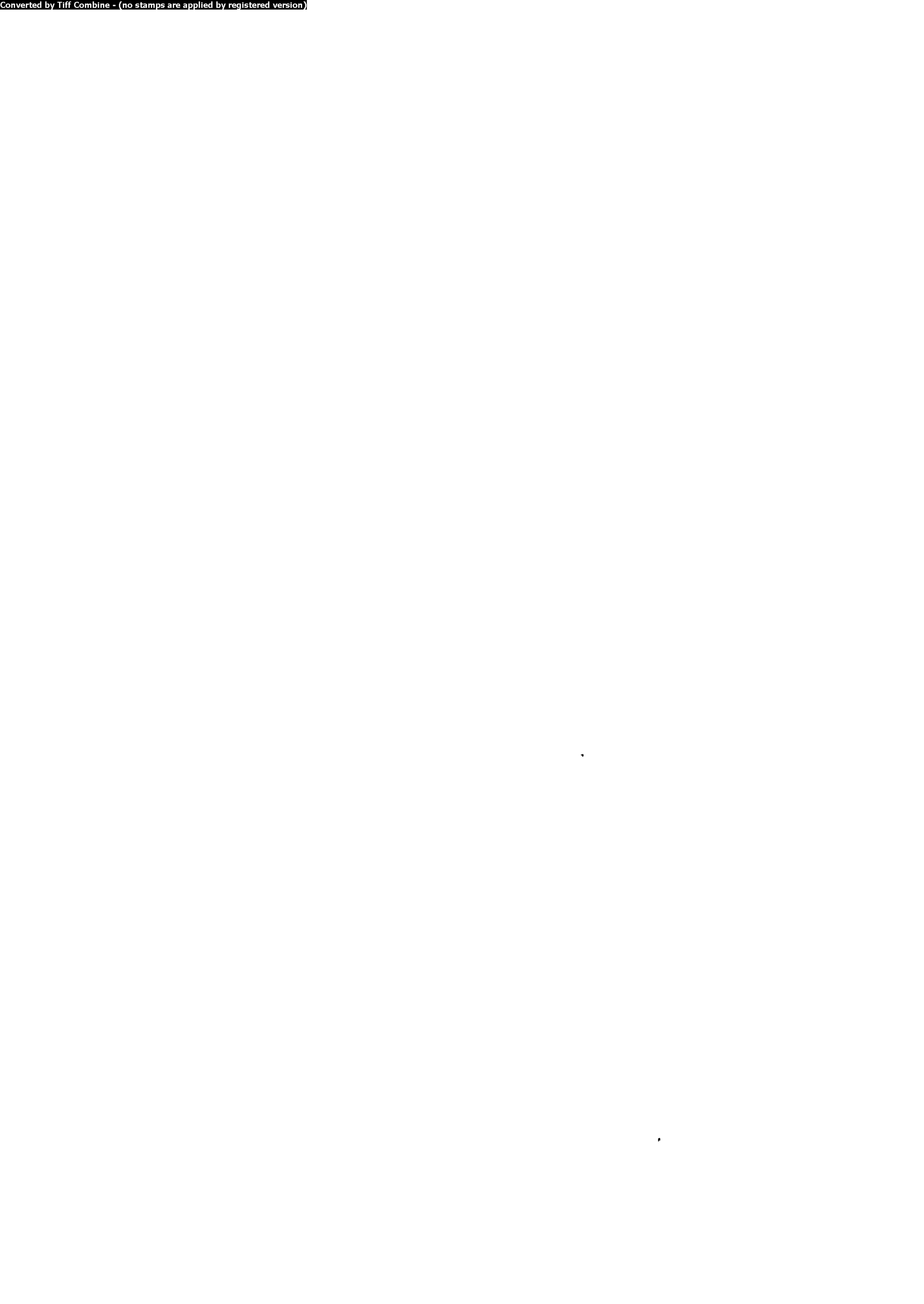
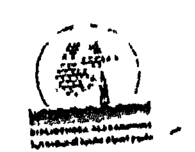
الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية
زمن الأيوبيين

تأليف
دكتوره زبيدة محمد عطا







الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية
زمن الأيوبيين

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

صدق الله العظيم



DAR AL AMEEN

طبع . نشر . توزيع

القاهرة : ١ ش محمد محمود باب اللوق (برج الأطباء)

تليفون : ٣٥٥٨٤٦١

الجيزة : ١ ش سوهاج ــ من ش الزقازيق ــ خلف قاعة سيد درويش ــ الهرم

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٤ م

رقم الإيداع ١٩٩٤/٤٣٠٣

I.S.B.N.

977—5424—62—3

صفحة من تاريخ

العلاقات بين الشرق والغرب

الشرق الإسلامي والدولة البيزنطية
زمن الأيوبيين

تأليف

ا.د زبيدة محمد عطا

رئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة المنيا

الطبعة الثانية

١٩٩٤





مقدمة

العلاقات بين بيزنطة والشرق الإسلامى علاقات بعيدة المدى ، فهى ترجع بأصولها إلى يهود الإسلام واستيلاء المسلمين على أغنى الأقاليم الشرقية للدولة البيزنطية، فأصبحت الدولة الإسلامية ندًّا ومنافِسًا للدولة البيزنطية .

واتخذت العلاقات الإسلامية البيزنطية مراحل تاريخية :

تبدأ المرحلة الأولى بظهور الإسلام إلي بداية الحروب الصليبية أواخر القرن الحادى عشر الميلادى وتميزت هذه الفترة بالصراع الدائم بين كلا الجانبين ، بل سعت الجيوش الإسلامية إلى الاستيلاء على القسطنطينية ، واستمرت الدولتان تتبوءان مكانة عظيمة فى تاريخ العصور الوسطى إلى أن ظهرت عناصر فى تاريخ تلك المنطقة غيرت من طبيعة تلك العلاقات .

من هذه العناصر : السلاجقة الذين اخترقوا حدود بيزنطة ، وانتزعوا من البيزنطيين آسيا الصغرى منها أيضا : الحركة الصليبية التى أقامت فى العالم الإسلامى فى بلاد الشام إمارات استمرت زمنا طويلا ، ولقد لعب هذان العنصران دورا هاما فى العلاقات الإسلامية البيزنطية نظرا لما لبيزنطة من سياسة مزدوجة ، مع العالم الإسلامى فى الشرق والعالم المسيحى فى الغرب . ومن العسير دراسة تلك الفترة إلا بالتعرف إلى تأثير السلاجقة والصليبيين فى منطقة الشرق الأوسط فى كل ما يجرى وقت ذاك من صراع أو اتفاق إسلامى بيزنطى سياسى أو حربى .

أما المرحلة الثانية ، فإنها تتمثل فى حرص بيزنطة على المحافظة على ما تبقَّى لها من نفوذ فى الشرق الأوسط بعد قيام الإمارات اللاتينية ، ومن هنا كان لهذا البحث أهميته فهو يلقى الضوء على فترة من تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامى والبيزنطيين لم يتعرض لها الباحثون كثيرا ، بل إن المراجع العربية لم تتعرض لهذه العلاقات فى بعض مراحلها ، إلا نادرا وفى إشارات عابرة ، بل اعتبر بعض المؤرخين أن العلاقات بين الشرق الإسلامى وبيزنطة تنتهى بظهور السلاجقة وقيام الحركة الصليبية ، رغم أن هذه الفترة عاصرت سقوط الخلافة الفاطمية وقيام الأيوبيين بدور المدافع عن الإسلام ، كما

شاهدت ضعف الخلافة العباسية ثم سقوطها على يد المغول وانهيار بيزنطة وانقسامها إلى ممالك ،ولكن ما حدث فعلا هو انتهاء لحقبة تاريخية امتازت بخصائص معينة ، وبداية لفترة جديدة فى العلاقات ، وإذ تعتبر فترة حكم صلاح الدين من أهم فترات العلاقات البيزنطية العربية ، عرضت فى فصلين من الرسالة ، لتلك الفترة ، وأفدت من الوثائق والرسائل التى لم تنشر من قبل ، يضاف إلى ذلك ما كان للعلاقات السلمية من أهمية عند المسلمين والبيزنطيين ، وتأثرها بوضع الإمارات اللاتينية فضلا عن التسابق بين المدن الإيطالية التجارية على توطيد مركزها الاقتصادى .

وفى الفصل الثالث ، ونظرا لأهمية فترة حكم صلاح الدين اتخذت العلاقات الإسلامية البيزنطية مرحلتين امتدت المرحلة الأولى من ١١٦٧ إلى ١١٨١ ، وفى هذه الفترة بلغ التحالف البيزنطى الصليبى ذروته فى مناهضة مصر وصلاح الدين . فقد رأى الجانبان الصليبى والبيزنطى أن يبدأ بالقضاء على القوة الحقيقية المتمثلة فى مصر ، فوجّها إليها خلال تلك الفترة حملات صليبية بيزنطية عديدة كالتى توجهت سنة ١١٦٩ فحاصرت دمياط ، وإذ حاق بالحملات الفشل حمّل كلا الطرفين الآخر جريرة ما حدث ، لهذا دب الشقاق بينهما الذى انتهى بمذبحة القسطنطينية للاتين واتجاه بيزنطة إلى الأيوبيين التماسا لمحالفتهم .

والفصل الرابع يُعالج ما حدث من تغيير سياسة بيزنطة من النقيض للنقيض بعد فشلها فى تحقيق هدفها من التحالف ، فسعت إلى التحالف مع صلاح الدين ضد الصليبيين فى فترة حكم آل انجيلوس ، تبادل فيها الفريقان سفارات الصداقة والود ونعما كلا الجانبين بالتسامح الدينى ، وعقد الاتفاقات ضد الحملات الصليبية التى قامت بيزنطة بعرقلة سيرها ، وإن كانت هذه السياسة لم تجن بيزنطة من ورائها إلا ازدياد الكراهية لليونان سواء من جانب اللاتين فى الشام أو دول أوربا أو البابوية .

والفصل الخامس وهو يمتد من ١١٩٣ - ١٢٥٠ وينقسم لفترتين من ١١٩٣ - ١٢٠٤ هذه الفترة استمرار للعلاقات الودية بين بيزنطة والجانب الإسلامى فضلا عن ظهور عامل هام لعب دورا كبيرا فى مصير كلا الدولتين الأيوبية والبيزنطية ، وهذا العامل يمثله ظهور البندقية وأهميتها من الناحية الاقتصادية فى حوض البحر المتوسط يضاف إلى ذلك كراهية الغرب لبيزنطة التى أدت إلى تحول الحملة الصليبية الرابعة إلى بيزنطة بدلا من مصر ، وبهذا دخلت العلاقات الإسلامية البيزنطية فى طور جديد ، أما

الفترة التالية ١٢٠٤ - ١٢٥٠ فتلى سقوط بيزنطة على يد اللاتين وانقسامها لممالك عدة شغلت بالصراع فيما بينها واقتصرت علاقاتها بالشرق الإسلامى على السلاجقة جيرانها القدماء فتحالف السلاجقة مع بعضها ، ودخل فى صراع مع البعض الآخر كما هو الحال مع مملكة طرابيزون التى دانت لها بالولاء ، إلى أن ظهرت قوة المغول وقضت على دولة السلاجقة . وتنتهى دراستى للموضوع بسقوط الدولة الأيوبية وتوحيد بيزنطة وقيام آل باليولوحوس .

أما الفصل السادس فعالج تأثير كل من الجانبين على الآخر فى النواحى السلمية ثم تناول مظاهر هذا التأثير المتبادل ، وتأثير الحروب الصليبية الحضارى على كلا الجانبين وعلى الحضارة الأوربية ، وبرغم كثرة الحروب التى دارت بين الطرفين فقد كان هناك فترات طويلة سادها السلام نشطت فيها حركة التجارة ، كما ظهرت بعض آثار هذا النشاط فى النواحى الاجتماعية مثل وجود بعض المزارات الإسلامية .

وألحقت بالبحث عددا من الخرائط خريطة للعالم الإسلامى إلى نهاية القرن الثانى عشر وخريطة لمصر زمن صلاح الدين ثم خريطتان للدولة البيزنطية فى عهد آل كومنين وأنجيلوس توضحان التغيرات التى طرأت على الحدود البيزنطية الإسلامية .

والملاحق تشمل أولا ثبتا بأسماء حكام الشرق الإسلامى والقوى المسيطرة عليه آنذاك سواء فاطمية أو عباسية ثم أيوبية وكذلك حكام السلاجقة ثم حكام بيزنطة .

وملاحق أخرى تتناول نصوص هامة كالملحق الخاص برسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسى يعدد فضائله فى قتال الفرنج وبيزنطة .

والملحق الخاص بوصف القاضى الفاضل لبعض رسائل الامبراطور البيزنطى لصلاح الدين بشأن إنفاذ خطيب ومنبر ومؤذنين للجامع المقام بالقسطنطينية .

ثم رسالة الكيكافوس إلى صلاح الدين يذكر فيها جهود بيزنطة لعرقلة سير حملة فردريك الصليبية .

ثم نصوص من كتابات الرحّالة التى توضح أوصاف مدينة بيزنطة أو المزارات الإسلامية الهامة والتسامح الدينى الذى نعِم به المسلمون .

* * *

الفصل الأول

مصادر البحـــث

المصادر العربية المعاصرة .

المصادر العربية اللاحقـة .

المصادر الأوربيـــــة .



المصادر العربية المعاصرة :

ابن شداد : ولد بالموصل سنة ٥٦٨ هـ وتلقى تعليما يؤهله للتدريس والقضاء ، فقام بالتدريس فى المدرسة النظامية ببغداد ثم أنفذه لأمير الموصل فى سفارته لصلاح الدين فى سنة ١١٨١ - ١١٨٢ حينما تطور النزاع بينهما ثم دخل فى خدمة صلاح الدين بناء على رغبته[١] وظل مقرَّبا لأمير حلب الظاهر غازى ثم ابنه العزيز . ولكن حين بلغ العزيز سن الرشد التف حوله جماعة من المفسدين فلزم ابن شداد داره وتخلى عن مجلس العزيز وتوفى سنة ٦٣٢هـ بحلب[٢] ، ولكتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أهمية خاصة ، إذا أفاد من اتصاله بالعلماء والفقهاء ، وملازمته لصلاح الدين على أن جزء فيه هو الذى عاصره ويمتاز كتابه بالإدراك السليم والأمانة ولقد اعتمد فى الفترة السابقة على المؤرخين السابقين له ، بينما حوى الشطر الآخر من الكتاب وصف ما شهده من الوقائع وإثبات الأحداث التى جرت فى عهد صلاح الدين ولذا أشار إلى ما كان من علاقات دبلوماسية بين صلاح الدين وأباطرة بيزنطة[٣] .

ابن الأثير : من أشهر مؤرخى تلك الفترة وهو واحد من ثلاثة إخوة مشهورين والمقصود هنا هو عز الدين بن الأثير الذى ولد فى جزيرة ابن عمر ورحل إلى الموصل ثم إلى الشام والقدس، وذهب إلى بغداد مرات عديدة رسولا من صاحب الموصل ، وبعد انهيار الدولة الأتابكية عاد إلى الموصل ولزم بيته منقطعا إلى العلم والدراسة وتوافرت له مادة تاريخية[٤] ، على أن أخاه ضياء الدين اتصل بصلاح الدين ثم بأبنائه من بعده .

وكان ابن الأثير يميل إلى الزنكيين بالموصل فألف كتابا فى الدولة الأتابكية ، وهذا يفسر تحيزه وتحامله على صلاح الدين فى تاريخه لبعض الأحداث .

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٩٩ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٧٠ .
(٣) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٦٨ .
(٤) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٣٧ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج / ص ٤٣٨ .

ولقد بدأ تاريخه من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان وعشرين وستمائة أى إلى قبل وفاة الكامل بست سنوات .

وكان ابن الأثير دقيقا فيما ينقل فاعتمد على الموازنة بين الأقاليم وما يقع فيها من أحداث .

وقد أفادته دراسته بأنساب العرب ، وأيامهم ، وقد أفاد من العماد وابن القلانسى، وابن الأثير شديد الاهتمام والتثبت فيما يكتب ويعمد أحيانا إلى نقد المصادر التى يستقى منها الأخبار ، وأحيانا يعمد إلى تلخيص الحوادث الماضية عند تدوين حادثة جديدة . وعاصر الكاتب اكتساح جنكيز خان والتتر لبلاد الإسلام واطلع ابن الأثير على مكاتبات صلاح الدين مع ملوك البلاد المجاورة .

وهذا الكتاب من الكتب الأساسية فى كل دراسة عن الأيوبيين والبيزنطيين وعلاقاتهم الحربية والسلمية والمعاهدات ودور الصليبيين فى الصراع(١) .

وليس هذا الكتاب الوحيد الذى يوضح أوضاع الأيوبيين وبيزنطة ، بل له كتاب آخر يلقى الضوء على النواحى الاجتماعية والاقتصادية وهو كتاب « تحفة العجائب وطرفة الغرائب » . استقى مادته من عدد من مؤلفات الرحّالة والجغرافيين مثل المناهج والمباهج للرواقى ، والعجائب للقزوينى والمالك والممالك الشرقية للجيهانى ، والعجائب للسهروردى . مازال هذا الكتاب مخطوطا . وتحدث فيه عن أسواق بيزنطة ومناراتها وعن بعض الآثار الإسلامية أو المزارات وعرض صورة عن تقسيماتها الإدارية وقد قسم العالم على عادة الجغرافيين إلى أقسام سبعة(٢).

أبو شامة : مقدسى الأصل ، نشأ فى دمشق وتعلم فيها وفى الإسكندرية ودرس الفقه وبرع فى العربية ، وكتب فى كثير من العلوم وتوفى فى ٦٦٥هـ. ألف كتاب الروضتين وكتاب الذيل على الروضتين ، وكتاب الروضتين يشمل تفاصيل كثيرة عن الحروب الصليبية ، ويشمل سيرة نور الدين وصلاح الدين ، وكان اهتمامه بصلاح الدين يفوق نور الدين(٣) . اعتمد على كتاب أبى القاسم الدمشقى وابن الأثير

---

(١) سعداوى : نظير حسان : خمسة من معاصرى صلاح الدين ص ١٠ .

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ٢٠٤ / ٢٠٨ .

(٢) ابن الأثير تحفة العجائب وطرفة الغرائب – مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافيا.

(٣) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج٢ ص ٢٥ .

والقاضى ابن شداد والعماد الكاتب ، وحذف الأسجاع وكل تعقيد فامتازت كتابته بالسلاسة ، وأورد كل الرسائل التى كتبها القاضى الفاضل لصلاح الدين مما ألقى الضوء على مراسلات صلاح الدين مع بيزنطة كرسالته إلى صاحب القسطنطينية وحديثه عن البيازنة وأهل جنوة . واستبعد الأخبار التى لا أهمية لها ، والرسائل التى لا تضيف جديدًا إلى جانب مقارنة تلك الأخبار بما سمعه من أفراد ثقاة عاصروا تلك الفترة[1] .

ابن العديم : كمال الدين ابن العديم ولد بحلب سنة ٥٧٦هـ .

وهو من أسرة كبيرة ، سمع عن أبيه ، وعن جماعة بدمشق ، وحلب ، والقدس ، والحجاز والعراق ، وكان ابن العديم مؤرخا وفقيها ، ألف عدة كتب منها : بغية الطلب فى تاريخ حلب الذى اختصره فى كتاب زبدة الحلب فى تاريخ حلب والتزم الكتاب الترتيب الزمنى حسب السنين . واعتمد ابن العديم على مصادر التاريخ والكتب المؤلفة قبله ، واختار منها نصوصا نقلها إلى تاريخه[2] . وجعلها على حروف المعجم فى تراجم الرجال كما فعل ابن عساكر .

وذكر فيها الكتب التى نقل عنها وأسماء مؤلفيها . ولما أراد أن يلخص كتابه الكبير عاد إلى بغية الطلب فنقل بعض النصوص وحذف منها أسماء الرواة والمؤلفين واكتفى برواية حادثة واحدة تحمل ما فى المصادر المختلفة من عبارات وإشارات وروايات فى أسلوب موجز ومقتضب . وأرخ ابن العديم فى كتابه زبدة الحلب فى تاريخ حلب لفترة مهمة ، وعاصر الحكم الأيوبى ، وعاصر سقوط خلافة بغداد يعتبر ابن العديم أفضل من كتبوا فى تاريخ الشام ، لا تاريخ حلب فقط ، ويبدأ كتابه العصور الأولى للشام وينتهى عند منتصف القرن السابع للهجرة قبل وفاته بعشرين سنة ، وقد سجل تاريخ الشام العام لعصره وعلاقة بلده به ، وهو أقرب المؤرخين إلى مؤرخى العالم العربى من حيث اعتماده على المسكوكات والسجلات والآثار الباقية والرسائل وقد ركز على حلب وأنطاكية .

والجزء الثانى بالذات من الكتاب الذى حققه ونشره سامى الدهان ، ويشمل الفترة من ٤٥٧هـ إلى ٥٦٩هـ التى شهدت الحروب بين الدويلات الإسلامية وانهيار

---

(١) أبو شامة : مقدمة كتاب الروضتين ج١ ص ٤ .

(٢) ابن العديم زبدة الحلب فى تاريخ حلب تحقيق سامى الدهان ج ١ ص ١٢ .

الفاطميين ، وسيطرة صلاح الدين على مصر وحروب الفرنج وصراع بيزنطة وتحالفها مع الصليبيين ضد المسلمين ، وتغلب الأساليب السياسية على القتال . وقد قام المحقق سامى الدهان بتبويب الكتاب على هيئة أقسام ، وجعل الأقسام على مقاطع وعناوين صغيرة وكبيرة وهو أهم مرجع لسورية الشمالية بجبالها وقراها ومدنها .

ابن واصل : جمال الدين ابن واصل ولد سنة ٦٠٤ هـ-١٢٠٨م بحماه وكان عالما بالفقه والفلسفة والرياضيات والتاريخ ، ورحل إلى القاهرة سنة ٦٤١هـ . ١٢٤٦[١] . وأرسله الظاهر بيبرس سفيرا إلى منفرد فردريك صاحب صقلية . ولما عاد عيَّنه الظاهر بيبرس قاضى القضاة فى حماه ، وتوفى سنة ٦٩٧هـ-١٢٩٨م وكتابه مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب من أهم الكتب التى تحدثت عن الدولة الأيوبية وأحداثها. إذ أرخ للدولة الأيوبية وصدر دولة المماليك .

ونظرا ؛ لأنه لم يعاصر الجزء الأول من الدولة الأيوبية اعتمد على من سبقه من المؤرخين أمثال ابن شداد والعماد الأصفهانى وعز الدين ابن الأثير وضياء الدين ابن الأثير وأبى شامة . وكان أكثر اعتماده فى هذه الفترة على ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ وكتاب الدولة الأتابكية ، ورجع ابن واصل إلى رسائل ضياء الدين ابن الأثير[٢] . وكان يعلق على الحوادث لمجرد الموعظة وهو لا ينقل من المصادر نقلا حرفيا ، بل يتحرى الحقائق التاريخية يوجز أو يصوِّب بعض الروايات الشفهية التى سمعها من معاصريه ويتقصى عن مصدرها وينقد الآراء ، ويأتى بالرأى الذى يعتقد أنه الصواب وهو يورد وثائق رسمية عديدة ليؤكد حقائقه التاريخية ، ولأهمية ذلك اعتمد عليه كثير من المؤرخين فى الفترة التالية أمثال أبى الفدا والمقريزى وابن تغرى بردى[٣] .

والجزء الثانى من الكتاب أعظم أهمية فى الحوادث التى يرويها عن مشاهده حينا وعن مشا[illegible]ه أحيانا .

ولقد ذكر رسائل صلاح الدين إلى الخليفة العباسى ومراسلات صلاح الدين مع الروم ، وموقف العادل والبنادقة وحملة حنابرين وعلاقتهم بالسلاجقة .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب تحقيق جمال الدين الشيال المقدمة ص ٧ .
(٢) هى مجموعة من الرسائل موجهه إلى صلاح الدين ومجموعة من الأعيان وكبار الشخصيات - ابن الأثير : رسائل ابن الأثير تحقيق أنيس المقدسى ص ٧ .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٩ .

ابن العبرى : هو غريغـورس أبو الفرج بن هارون ولد ١٢٢٦ م فى مـدينة قيليقية قـاعدة أرمينيـة الصغرى . ودرس اليـونانيـة والعـربية والفلسفـة ، وذهب إلى أنطاكيـة سنة١٢٤٣ م وأصبح أسقف ملطيـة واتصل بهولاكو وتوفى ١٢٩٦م . ولقـد ألف تاريخ مختصر الدول أولا بـالسريانية ، ثم ترجمه إلى العـربية فى أواخر أيامـه ، ولكنه اختصر فى الفتوح ، وتوسع فيما يختص بدولة الإسلام(١) .

والكتـاب يبـدأ من أول الخليقـة ومقسم عشر دول ، والجزء العـاشر تحدث عن الدولة الأيوبية وفتوحات المغول واليونان وعلاقتهم بالسلاجقة(٢) .

أما الرحـلات التى قام بها جغرافيون معاصرون لتلك الفترة فقـد أفادت فى عرض صورة واضحـة عن العلاقات التجـارية والتسامـح الدينى والآثار . ولقـد أبدى جميع الرحـالة إعجابهم بثراء كل من مصر والقسطنطينيـة ووصفوا أوجه الحياة والآثـار وصفا دقيقا ومنهم :

الإدريسى : أبـو عبد الله محمـد بن محمد بـن عبد الله الإدريسى ولـد بسبتة عـام ٤٩٣هـ ١١٠٠م وطاف البلاد وزار مصر والقسطنطينية ، واستقـر زمنا طويلا فى بلاط الملك النورماندى روجر الثانى فى بالرمـو ، ولذلك لقب بالصقلى وقد أتم فى بالرمو قبل وفاة الملك وضع كتاب فى صفة الكرة الأرضية المشهور باسم الكتاب الروجارى أو نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق(٣) ونشر فيه إحدى وسبعين خريطة ، وقد أورد وصفا تفصيليا لبيزنطة وآثارها والمزارات الإسلامية .

ابـن جبير : أندلسى الأصل ، اهتـم بالأدب والشعر قـام بثلاث رحـلات بدأت سنة٥٧٨هـ زار مصر والشـام والحجاز والعراق وصقلية . رحلـة ابن جبير من المصادر الهامة التى تعطينا صورة واضحة عن الحالة التجـارية وطرق معاملة التجار والإجراءات الجمركية فى عهد صلاح الدين . ورغم أنـه لم ير القسطنطينية فإنه سمع بأمر هام أورده لم يرد عند غيره من المؤرخين ، وهو ذكر القصة التفصيلية عن الصراع فى بيزنطة وصداقة أندروبيكوس للعرب ومهاجمته القسطنطينية ، والحروب مع السلاجقة(٤) .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية – الجزء الأول مادة ابن العديم .
(٢) ابن العبرى تاريخ مختصر الدول (المقدمة) ص ٥ .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ مادة الإدريسى .
(٤) ابن جبير : الستبصار فى عجائب الأمصار ص ٣٢١ .

الهروى : وهو أبو بكر الهروى ، ولد فى الموصل وطاف البلاد ، ولقد درس السيياء وكان مقربـا لدى الملك الظاهر ابن صلاح الـدين ، وأقام عنده ، وكان كثير الرعـاية له وبنى له مدرسة بظاهـر حلب ، ولقد تحدث عن مصر وأسواقها ومناراتها ، وتحدث عن القسطنطينية ، وعن التسامح الدينى الـذى نعم به المسلمون وتجارهم ، ويعتبر من أهم المراجع عن الصـلات بين بيزنطة والأيـوبيين فى تلك الفترة(١) ، وله كتـاب آخر اسمـه العجائب ويـذكره كثيرا فى كتابه « الإشـارات إلى معرفة الـزيارات » ويذكر أنـه سيورد بالتفصيل مـا أروده باختصار فى الإشارات ، ولكـن هذا الكتاب لا يوجـد فى أى مكتبة بل إن كثيرًا من الكتب والمراجع القـديمة لم تذكـــر عنـــه شيئًـا مثل كتاب الوفيـــات لابن خلكان.

ياقـوت الحـموى : تـوفى فى الموصل سنة ٦٢٦هـ وكتـابه معجم البلـدان معجم جغرافى بـأسماء البلاد جمع بين التاريـخ والجغرافية فعنـد ذكر أى أقليـم يذكر جـزء من تاريخه ، ومن اشتهر فيه ، ونسب إليه من الأدباء والشعراء وهو مرتب ترتيبا هجائيا(٢).

ابن سعيد المغربى : المؤرخ المشهور ولد فى غرنـاطة سنة ٦٠٠هـ رحل إلى مصر والعراق والشام واهتم بـالأدب والتاريخ وشهرته كمؤرخ أكثر منه جغـرافى ، ففى كتابه بسط الأرض فى الطول والعرض تحدث عن مظـاهر الحياة الاقتصادية والآثـار البيزنطية وكذلك عن أواخر الدولة الأيوبية(٣) .

المصادر اللاحقة لفترة البحث :

للمصادر اللاحقـة لهذه الفترة أهمية كبيرة إذ نجد فى بعضها وثائق هامـة لا توجد فى الكتب المعاصرة رغم اعتماد أكثرها على الكتب المعـاصرة لفترة الأيوبيين ، فالمقريزى مثلا فى كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك ، أرخ لدولتى الأيوبيين والمماليك وأورد فى الجزء الأول ، رســالــة أرسلهـــا الامبراطـــور البيـــزنطـى إلى مصر لم تـــرد عنـــد أحـــد من

(١) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٧٤٧٤ جغرافيا .

(٢) Encyelopedia of Islam . Vol . Part 2 P. 115 .

(٣) ابن سعيد المغربى : كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض تحقيق خوان قرنيط جنيس : ص ٧ .

المؤرخين[1] . وكان هذا العصر عصر نهضة علمية وتنافس بين المؤرخين ، فهذا العصر شاهد تفتت المدن الإسلامية وكثرة أصحاب السيادة فيها[2] ، مما أدى إلى كثرة ظهور الموسوعات والتراجم ، ومن مؤرخي تلك الفترة ابن خلدون والمقريزى وأبو الفدا وابن تغرى بردى وابن خلكان وابن شاكر الكتبى .

ابن خلكان : هو قاضى القضاه شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ، من بيت كبير فى العراق وينتسب إلى البرامكة ولد فى إبريل ، وتولى قضاء الشام ودرس فى عدة مدارس ورحل إلى الإسكندرية ومصر ثم عاد إلى الشام وظل بدمشق لوفاته . واشتهر بموسوعته الكبرى وهى « وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان » وقد فرغ من تأليفه وأورد بعض معلوماته عن طريق النقل ، والسماع والمشاهدات .

والكتاب ذخيرة علم وأدب وتاريخ واهتم بالضبط والتحقيق والتدقيق ، وقد رتب الكتاب على حروف المعجم ، ويزيد عدد التراجم عن ثمانمائة ، وإن كان يذكر الأسماء التى لم يشتهروا بها لصلاح الدين الأيوبى يذكره تحت حرف الياء[3] . ولم يذكر من الصحابة ولا التابعين إلا جماعة قليلة . وكذلك الخلفاء لم يذكر أحدا منهم اكتفاء بالمصنفات الكبيرة وترجم ما خلا ذلك من العلماء والملوك والأمراء .

ابن خلدون : هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون أصله من أسرة بالأندلس ، ولد فى تونس ٧٣٢هـ ١٣٣٠ وتفقه بالعلوم المعروفة وعصر وتنقل بين بلاد الأندلس والمغرب ، وعاش فى بلاط سلاطينها المسلمين ، وتقلب فى خدمة دواوينهم. وسفر لأحد أولئك السلاطين ، وهو محمد الخامس سلطان غرناطة. ولقد شاهد بنفسه أحوال كثير من الدول عن كثب، ولمس بيدهوامل التدهور الناشبة أظفارها

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) كانت مصر والشام فى حوذة السلاطين المماليك وهم أتراك شراكسة ، وكانت آسيا الصغرى فى حوزة السلاجقة ثم أخذها العثمانيون وكانت العراق وفارس فى سلطة الدولة الألخانية وهى مغولية وانحصرت سيادة العرب فى اليمن والمغرب ، وانتقلت مراكز العلم إلى مدائن مصر والشام . جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ص ١١٠ .

(٣) : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥٩٤ .

بين المسلمين مما جعل لكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر» قيمة تاريخية[١] فريدة قدم لمصر ١٣٨٢م وتولى منصب قاضى القضاة المالكية ، واتصل بكثير من المؤرخين فى مصر والشام وظل بمصر حتى وفاته ٨٠٨هـ - ١٤٠٦م ويعتبر كتابه من أهم وأشمل الكتب التاريخية وخاصة لمنهجه الفذ .

المقريزى : أبو العباس تقى الدين بن علاء الدين ولد بالقاهرة ٧٦٦هـ ، ١٣٦٤م وأصل أسرته من بعلبك[٢] ، وكان جده من كبار المحدثين فى بعلبك ، درس المقريزى الفقه والتحق بديوان الإنشاء بالقلعة ثم أصبح قاضيا وإماما لجامع الحاكم ومدرسا ، ولقد أراد السلطان فرج بن برقوق أن يوليه نائبا للحكم بدمشق ولكنه رفض واشتغل بالتدريس فى المدرسة الأشرفية ولكن ما لبث أن عاد للقاهرة وانقطع للعلم إلى وفاته ٨٤٥هـ - ١٤٤١م[٣] .

وألف العديد من الكتب منها المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ويعرف بخطط المقريزى ذكر فيه مجمل أقاليم مصر ، وكتابه ، المقفى الكبير ، درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المعنية ، واتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء وتاريخ الدولة الفاطمية ، الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الإسلامية ، ومن مقتل عثمان إلى المستعصم ، وغيرها ثم كتابه الهام السلوك فى معرفة دول الملوك وهو تاريخ مصر من ٥٧٧هـ - والكتاب مؤلف على السنين يذكر حوادث السنة ثم يترجم من مات فيها من الأعيان ترجمة مختصرة ، ويطيل فى الأحداث . ولقد استعنت بالمقريزى فى الفترة التى تلت حكم صلاح الدين .

أبو المحاسن : أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى يحتل مركز الصدارة بين المؤرخين بعد وفاة المقريزى والعينى أواسط القرن الخامس عشر وتوفى فى القاهرة ٨٧٤هـ -١٤٦٩ أبوه مملوك يونانى للسلطان الظاهر برقوق توفى والده وهو طفل تولى رعاية زوج أخته كان أبو المحاسن مقربا من السلطان برسباى ثم عند السلطان خشقدم وعاش لأوائل سلطنة قايتباى[٤]. ألف اثنى عشر كتابًا لم يبق منها إلا سبعة، أشهرها كتابه فى تاريخ مصر من الفتح الإسلامى والى ٨٥٧هـ -١٤٦٧م اسمه (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) فى سبع مجلدات ، وألفه من أجل السلطان

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) Encyclopaedia of Islam Vol 3 Part 1 p. 175 .

(٣) زيادة : المؤرخون فى مصر ص ٨ .

(٤) زيادة : المؤرخون فى مصر ص ٢٨ .

المرجو محمد بن جقمق الذى توفى ١٤٤٣م قبل أن يتحقق رجاؤه ، والكتاب مرتب حسب السنين . وفى آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه(١) .

وتمتاز كتابته بالتدقيق والتحرى وكان أمينا فيما يذكره وهو من الكتب الهامة التى استعنت بها ، ومن كتابه الآخر المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، وهو حافل بالتراجم، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، والبحر الزاخر فى علم الأوائل .

أبو الفداء : السلطان الملك المؤيد صاحب حماه إسماعيل بن على بن محمود بن المنصور كان أميرا لدمشق وخدم الملك الناصر وهو فى الكرك وبالغ فى ذلك فوعده لحماه ، وبالفعل جعله سلطانا لها ، وكان أبو الفداء متمكنا من الفقه والطب والفلسفة وتاريخه (المختصر فى أخبار البشر)(٢) قسمان الأول فى الجاهلية والثانى فى الإسلام إلى ٧٢٩هـ . وتحدث عن تواريخ الأنبياء والفرس والعرب فى الجاهلية والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والدولة الأموية فى الأندلس والفاطمين والأيوبيين .

ولقد اعتمد على كتب عديدة أهمها ابن الأثير . ورتب كتابه على نهجه وفق السنين ، وتضمن أخبارًا أدبية وعلمية واجتماعية ، وله كتاب فى الجغرافيا وهو تقويم البلدان . وقد قام ابن الوردى بكتابة تاريخ هو تذييل لكتاب المختصر لأبى الفداء انتهى به إلى سنة ٧٤٩هـ واسمه تتمة المختصر فى أخبار البشر(٣) .

المصادر الأوروبية :

وليم الصورى : ١١٣٠م - ١١٨٤م :

يحتل كتاب وليم الصورى مكانة فريدة بين الكتب التى أرخت لهذه الفترة حتى اتخذه الكتّاب الآخرون أساسا لما أورده من الأحداث المتأخرة.

فالمعروف أن وليم الصورى شغل منصب رئيس أساقفة صور من سنة ١١٧٥ إلى سنة ١١٨٤ . وظل مستشارا لمملكة بيت المقدس حتى وفاته ١١٨٤هـ ، كان وليم من سكان مملكة بيت المقدس(٤) ، حيث ولد حوالى ١١٣٠م والراجح أن أبويه نزحا من

(١) دائرة المعراف الإسلامية ج١ مادة أبو المحاسن .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة أبو الفدا .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن الوردى .

(٤) Grousset : Histoire des Croissades II P. 1 .

الغرب . وكان يجيد العربية والفرنسية واليونانية والعبرية والفارسية إلى جانب إجادته اللغة اللاتينية ، وتتلمذ على يد بطرس البرشلونى كبير القسس بكنيسة القيامة ورسم قسًا ولما اشتهر به آمورى من الميل إلى الدراسة التاريخيه ، أدرك أن فتح مصر والاستيلاء عليها من يد المسلمين إنما يلى فى الأهمية ما حدث من قبل من فتح بيت المقدس فقرر آمورى أن يلتمس مؤرخا ليسجل ما يحرزه من الانتصارات فعين وليم رئيسا للشمامسة بكنيسة صور تمهيدا لاتخاذه مؤرخا[1] .

وبلغ من ثقة الملك به أن أرسله ملك بيت المقدس ليحصل على توقيع الامبراطور البيزنطى على المعاهدة ، ولكنه عاد بعد ذهاب الحملة ، واستمر وليم على صداقته بالملك حتى إن الملك طلب منه الإشراف على تربية أكبر أبنائه وهو بلدوين ، ولقد اقترح عليه وليم كتابة تاريخ المملكة ، ولقد بدأ فى كتابته ابتدأ من سنة ١٠٩٤ وهو التاريخ الذى شاع أن بطرس الناسك أدى فيه الحج ، ولكن ما شهده الملك آمورى فى مصر من حضارة حثه على أن يطلب منه كتابة تاريخ لأمراء الشرق أمده الملك آمورى بطائفة من التواريخ العربية حصل عليها من مكتبة أسامة بن منقذ التى صادرها وليم بعد أن تحطمت سفينته قرب عكا ، واستعان بكتاب سعيد بن بطريق واتخذ الكتاب اسم « زيل تاريخ الطبرى » .

ولكن لم يلبث أن توفى آمورى ، وتولى العرش تلميذه المريض فعزف وليم عن كتابة التاريخ فترة ، وعين وليم مستشارا للملكة ، ثم عين رئيسا لأساقفة صور سنة ١١٧٥ وزار القسطنطينية ثانية ١١٧٨[2] ، وفشل ١١٨٠م فى الحصول على منصب بطريرك بيت المقدس ، فتفرغ لإعادة قراءة تاريخه ، ولكن ما لبث أن توفى ١١٨٥م ، ولذلك كان لمؤلفاته أهمية عظيمة بحكم كونه معاصرا ومشتركا فى الأحداث التى كان مؤرخا لها ، ولقد ضاع كتابه تاريخ أمراء والشرق ، ولا توجد منه إلا فقرات فى كتابات وليم الطرابلسى[3] ، والكتاب الوحيد الذى لا زال معروفا هو المشهور باسم «AHistory of Deeds Done beyond the Sea» وقام على ترجمته Babcock , Krey ونشرته جامعة كولمبيا سنة ١٩٤٣م فى جزءين ، والكتاب يبدأ من ضياع بيت المقدس من يد المسيحيين وأراد أن ينتهى به فى ١١٨٢ ولم يبلغ به الأنهاية سنة ١١٧٩ أو أوائل ١١٨٠

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٠٧ .

(٢) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٢٥ .

(٢) Runicman : History of the Crusaders II P 425 .

وقسم الكتاب إلى فصول[١] ، واعتمد فى الجزء الأول من كتابه وخاصة فيما يتعلق بالحرب الصليبية الأولى على كتاب أعمال الفرنجة ، ومؤلفات ريموند اجيل ووالتر ، وفولشر قسيس شارتر ، وألبرت [٢] .

وكان ما يصل إليه من نتائج ، إنما يستخلصها بعد مقارنة مصادر عديدة ، فإذا حدث بينها تعارض فإما أن يأخذ بحكمه ورأيه ، وإما أن يورد الروايات المختلفة . ويحدث أحيانا أن يرفض من الروايات ما تنطوى على مبالغة ظاهرة ، واعتمد وليم أحيانا على الروايات الشفوية ، وبين ما ورد من روايات عند مؤرخى الحرب الصليبية الأولى ،غير أنه لم يشر إلى اسم واحد منهم ، إنما اعتبرهم جميعا مصدرًا لرواية لابد من تقديرها وفحصها ؛ لأنه يفوقهم فى الإلمام بجغرافية وآثار المنطقة ، وكان يهتم بتتبع موضوع معين منذ بداية إلى نهاية دون أن يحفل بالزمن الطويل الذى يستغرقه الحادث ، وامتدت مصادر بحثه إلى كل الجهات فحرص على أن يختار مصادر بحثه من كل الجهات ، وحرص على أن يختار لكل حقيقة مستقلة ما يتعلق بها من مصادر أصلية ، مثال ذلك أنه لجأ إلى هيجو أمير قيسارية ليمده بالتفاصيل الخاصة بسفارته للخلفاء الفاطميين بمصر ومفاوضاته مع شيركوه عم صلاح الدين . والراجح أنه أمده ببعض المعاهدات التى جرى عقدها مع صلاح الدين . ولما فشلت حملة أملريك على مصر ، طلب من كل البارونات ومن الملك أملريك نفسه أن يشرحوا له أسباب الفشل[٣] ، وهذه الأمثلة تدل على ما تهيأ لوليم الصورى من المصادر التى استقى منها معلوماته سواء كانت من ملاحظاته وتجاربه الشخصية ، أو الروايات المستمدة من شهود العيان. فإذا حصل على روايتين ، أوردهما دون تحيز ، وجرى على هذا فى كل كتابه[٤] .

ولقد أفاد وليم من المصادر العربية ، ولكنه لم يذكر إلا كتابًا واحدًا هو سعيد بن بطريق ، ولقد استمد بعض معلوماته عن التاريخ الإسلامى من الروايات الشفوية ومن نقوش مدونة على العمائر ، وحين يؤرخ للفترة التى عاصرها فهو يسهب فى التفصيل .

---

(١) أضاف إليه فيها بعد أحداث السنوات إلى ١٨٤٠ م .
العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٢٨ .

(٢) William of Tyre : History of Deeds done beyond the Sea . XII, P 21 .

(٣) William of Tyre , op . cit . Vol XX P 20 .

(٤) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص : ١٣٠ .

ففى أخباره عن آمورى ، أسهب فى وصف أحوال مصر إذ أورد تفاصيل كثيرة عن موضع بابليون وتاريخها ، وعن أصل الخلفاء الفاطميين ، وعن التجارة التى تجتاز برزخ السويس ، وهو يتلمس الدعاوى لما يرويه من حقائق ، وتطلع إلى الربط المنطقى والتماسك التاريخى . وأفضل أجزاء الكتاب هى التى كتبها بعد ١١٨٠ فتمتاز بالنضج والحكم السديد الناجم عن رسوخه فى العلم ، واشتهر وليم الصورى بالنزاهة والإنصاف حتى إن فى تحليله لأسباب تمرد اليونانيين فى القسطنطينية سنة ١١٨٢ ، وانتصار صلاح الدين لم يتطلب من العلماء المحدثين إلا إضافات وتصويبات ضئيلة ، ولم يشتهر وليم الصورى بالتعصب ضد العنصر أو الدين أو نظام الطبقات . فلم يكن اللاتين وحدهم ، هم الذين يستطيعون أن يؤدوا أعمالا مجيدة ، بل يشاركهم فى ذلك اليونانيون والأرمن والسوريون والعرب والترك ، بل إنه أقر للمسلمين أيضا بالمستويات الرفيعة من الأخلاق والمبادىء ولذلك اهتم بالحياة الاجتماعية (١) . ولقد أفاد وليم من معايير ومقاييس الدراسة التاريخية الحديثة ولكن وليم افتقر أحيانا إلى اتساع الإدراك فإنه اكتفى من بعض الأمور بما يتعلق بالوطن الذى يعيش فيه إلى جانب عدم استطاعته التخلص من صفة الكنيسة كذلك عمد فى بعض الأحيان إلى تغيير تاريخ بعض الحوادث(٢) وما تعرض له وليم من المشكلات نشأ حينما أورد فى تاريخه أحداثا متفرقة لا رابطة بينها ، وقد اعتبر وليم الصورى المصدر الوحيد عن السنوات الواقعة بين سنتى ١١٤٤ ، ١١٨٤ واعتبر المصدر الأصلى لكل ما وقع فى زمنه من أحداث. كما أن روبرت كلارى الذى ظهر فى سنة ١٩٣٨ كتابه الشامل عن الحروب الصليبية ، لم يقبل صراحةً فحسب ما وضعه وليم الصورى من خطة لكتابه ، بل قبل أيضا معظم عباراته ، كل ذلك يعتبر دليلا على أن وليم أقام مقياسا لكتابه تاريخ الحروب الصليبية وبذلك كان لكتابه أهمية كبيرة لبحثى إذ عاصر جزءا كبيرا من عهد صلاح الدين وكان مندوبا لملك بيت المقدس فى بيزنطة لعقد الاتفاقات الحربية ضد مصر .

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٣٧ .

(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ترجمة حسن حبشى ص ٢٣ .

(٣) Willam of Tyer: op . cit . Vol XII P 20 , 21 .

وروبرت كلارى :

أحد الفرسان الذين اشتركوا فى الحملة التى سقطت فيها بيزنطة فى أيدى اللاتين يعتبر مؤلفه أحد ثلاث أسفار تناولت الغزو العربى للامبراطورية البيزنطية وهى مذكرات فلهاردوان ، تاريخ القسطنطينية لجونتر ، مذكرات روبرت كلارى[1] .

وروبرت كلارى كان من الطبقة الشعبية ، وذلك يبرر الندرة فى المعلومات الخاصة به ، وكان محاربا تحت لواء بطرس داميان ، وشارك فى القتال الذى جرى عند أسوار القسطنطينية ١٢٠٣م وكان أبوه فصلا إقطاعيا لبطرس الدميانى ، ولم تكن فصيلته بالتى ترقى به إلى المكانة الكبرى .

والكتاب مكتوب أصلا بفرنسية العصور الوسطى ، ولا توجد نسخة أصليه من هذه المذكرات التى أملاها روبرت كلارى وفى ١٣٠٠ عهد دير كوربى لأحد النساخ بنسخ بعض المخطوطات القديمة المحفوظة به ، فجمع الناسخ خمسة كتب فى مجلد . كان المخطوط منها فى ١٨٧٣م قام كارل هويف بنشر المذكرات ، ثم قام كونت ريان بنشرها سنة ١٨٦٨م ، وفى ١٩٢٤م قام فيليب لاور بنشرها ثم ترجمها بالإنجليزية إدجار هولمز ١٩٣٦م وترجمه إلى العربية حسن حبشى ١٩٦٤ ، وهى النسخة التى استعنت بها . ويمتاز أسلوبه بكثرة التكرار لعبارات معينة بسبب قلة محصوله فى اللغة وأهمية مذكراته أنه عاصر وكان شاهد عيان لحوادث الحملة منذ البداية حتى تخريب مدينة أدريانوبوليس ١٢٠٥م على يد جماعات الكومان ، وهى الواقعة التى سقط فيها الامبراطور بلدوين أسيرا[2] . وهذه الفترة تشغل أغلب صفحات الكتاب فيما عدا صفحات قلائل تكلم فيها عن المدة ١٢٠٥ ، ١٢١٦ ، وأغلب الظن أنه لم يكن فى القسطنطينية فى الفترة الأخيرة ، وأن ما دوّنه بناء على ما سمعه ممن عادوا من الشرق . ولقد استعنت بالكتاب فى الفقرات الخاصة باستيلاء الفرنجة على القسطنطينية والتدمير الذى حل بالمدينة على يد اللاتين .

---

(١) روبر كلارى : فتح القسطنطينية ترجمة حسن حبشى ص ٢٣ .
(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص ٢٧ .

جوانفيل : ١٢٢٤ - ١٣١٧

من المؤرخين ذوى المكانة اللاحقين لوليم الصورى جان دى جوانفيل وكان والده سيد جوانفيل صنجيل شمبانيا وأسهم فى الحملات الصليبية الموجهة إلى الشرق. ثم وصار جان صنجيلا بعد وفاة والده . وفى تلك الأثناء تزوج لويس التاسع من مرجريت أميرة بورفانس ، ووقع فريسة مرض خطير ١٢٤٤ . وفى لحظة من اللحظات الحرجة اتخذ لويس الصليب[١] ، واحتذاه إخوته ، ورجال بلاطه وكبار السادة ، ومن الطبيعى أن يسهم جوانفيل فى الحروب الصليبية فاتخذ الصليب واتجه لمرسيليا ، وفى أثناء الحمله التى استمرت ١٢٤٨ حتى ١٢٥٤ ، دخل جوانفيل فى خدمة الملك لويس التاسع ، ولما عاد الملك لويس من الحملة ، جعل لجوانفيل الذى صار من أتباعه بعض الالتزامات .

وحين عاد جوانفيل إلى فرنسا وكان قد بلغ وقت ذاك الثلاثين من عمره وكان فارسا لامعا وبعد وفاة لويس اعتزل الحياة ثم اتخذه فيليب الجميل معرفا له وفى سنة ١٢٧٠ تم تطويب الملك لويس التاسع وجعله قديسا وفى سنة ١٣١٠[٢] ، وحينما فرغ جوانفيل من كتابة تاريخه تقدم به إلى لويس ملك نافار وشا مبانيا ، ومات جوانفيل ١٣١٩م[٣] . قام جوانفيل بتأليف كتاب « الأقوال المقدسة والأفعال المجيدة المنسوبة للقديس لويس » بناء على رجاء ملكة نافار وشرح جوانفيل فى تأليف مصنفه عن تجاربه الشخصية فيما وراء البحار ، ولعله كان يرمى إلى أن يجعل كتابه على نحو تاريخ فيلها دورين أو روبرت كلارى[٤] . ثم حوله لمجرى الترجمه الذاتية وفرغ من كتابته ١٣٠٩ وحمله على تأليف الكتاب إعجابه وصداقته للويس التاسع .

والكتاب يتكون من حوالى ٢٤٨ فصلاً وقسم جوانفيل الكتاب قسمين ، قسماً خاصًا بالتعاليم الصالحة للقديس لويس شخصيته وسلوكه وعدله ، والقسم الثانى خاص بأعماله الحربية فى مصر والشام ولقد ردد جوانفيل فى القسم الثانى من الكتاب ،

---

(١) Joinville : History of Saint Louis . Trans . Evans P. XIV .

(٢) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٥٥ .

(٣) Joinville : op . cit . Trans. Evans pxx

(٤) Joinville : op . cit . Trans Evans pxvi .

بعض الروايات التى نصادفها فى الجزء الأول . ويبدو ذلك بإكثاره من التكرار حتى يتأكد من أنه لم يفتقد شيئا فى القسم التثقيفى .

وامتاز جوانفيل بموهبته فى الوصف ، وخاصة فى الجزء المتعلق بالحروب الصليبية، الذى نستخلص منه أن الكتاب ليس إلا مجموعة من الأجزاء ، جرى تأليفها فى أوقات مختلفة ، وهو لا يهتم بالتفاصيل كثيرا(1) ، على أن جوانفيل التزم دائما فى تآريخه لحياة القديس لويس بأن يجعل حكمه خالصا نقيا ، فلا يتأثر بها يكنه لسيده من حب وتبجيل ولم يكن جوانفيل مؤرخا(2) ، ولم يحاول أن يكون مؤرخا إلا فى الفصول ١٧ , ١٨ , ١٩ , ٢٠ وهى فصول جافة سقيمة .

ولقد تأثرت كتابته بفكرته عن الإقطاع فالمثل الأعلى للجيش هو الذى يستطيع فيه كل فارس أن يدلى بما لديه من رأى ، ولقد أتم جوانفيل كتابه بعد أن بلغ من العمر ٨٥ سنة(3) ، ولم يصلنا من كتاب جوانفيل ،إلا مخطوطات متأخرة . تعرض فيها النص للتلف الشديد ، غير أنه بفضل الدراسة المحققة وبمقارنة الوثائق الأصلية الصادرة عن مخطوطات جوانفيل ، يسر إعادة الأصل إلى صحته وتقويمه ، وجرت ترجمة جوانفيل إلى الإنجليزية ثلاث مرات ، الأولى فى مستهل القرن السابق ترجمها حناهافود ثم قام بترجمة كل من جيمس هتو ، موائيل ودجرد وعمدا المترجمان إلى اختصار الكتاب أما الترجمة الرابعة فهى التى قامت عليها عنه ايفانْز ونشرتها ١٩٣٨ ، ولقد أستقلت من جوانفيل فيما يتعلق السفارات التى جرت بين حكام اللاتين فى القسطنطينية ولويس التاسع لاستغلال الحملة السابعة لصالحهم .

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١٦٦ .

Joinville : of cit Trans Evans pxx . (٢)

Joinville of cit . Trans Evans p xxII . (٣)



الفصل الثانى

العلاقات بين بيزنطة والشرق الإسلامى

حتى ظهور صلاح الدين

بيزنطة والشرق الإسلامى إلى ظهور السلاجقة - موقعة ما نزكرت وأثرها - استنجاد الكسيوس بالبابوية - ضعف السلاجقة وانقسام العالم الإسلامى - موقف بيزنطة من الحركة الصليبية - مشكلة أنطاكية - سياسة اللاتين تجاه بيزنطة - الدولة العباسية والبيزنطيون - السلاجقة والبيزنطيون فى آسيا الصغرى - العلاقة بين البيزنطيين والزنكيين - موقف البيزنطيين من السلاجقة والحملة الصليبية الثانية - النزاع حول أنطاكية - موقف المسلمين.



بيزنطة والشرق الإسلامى إلى ظهور السلاجقة :

أنشأ الامبراطور قسطنطين الكبير فى النصف الأول من القرن الرابع الميلادى مدينة القسطنطينية ، على موضع بيزنطة القديم على البوسفور ، واتخذها عاصمة له[1] لما لها من مزايا ، منها ، أنها تقع بين الأملاك الرومانية فى آسيا وأوربا ، ولمركزها الاقتصادى بين البحر الأسود والبحر المتوسط ، ومناعة موقعها ، فلما سقطت روما فى أيدى المتبربرين سنة ٤٧٦م ، وقام على أنقاض الشطر الغربى للامبراطورية ، ممالك جرمانية ، وأضحى امبراطور الشطر الشرقى امبراطورا للدولة الرومانية ، وظل من الناحية القانونية امبراطورا للرومان حتى سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣م رغم أن القسم الشرقى عرف باسم الدولة البيزنطية[2] .

وما حدث فى القرن السابع الميلادى من ظهورى الإسلام وقيام الدولة العربية الإسلامية ، أدى إلى انثيال الجيوش الإسلامية فى الأقاليم المتاخمة لبلاد العرب[3]. فسقطت فى أيديهم الدولة الفارسية ، وانتزع المسلمون من بيزنطة أقاليمها المطلة على البحر المتوسط من الشرق والجنوب فخضعت لهم بلاد الشام ، والجزيرة ، وأرمينية ، ومصر ، وبرقة ، وشمال أفريقية ، وبلاد المغرب ، فضلا عن استيلائهم على جزائر قبرص وردوس ، وكوس ، وبقيام الدولة الأموية ، أكمل معاوية السيطرة الإسلامية على هذه السلسلة من الجزائر بالاستيلاء على خيوس وفى سنة ٦٧٠م استولى أحد قادته على شبه جزيرة Cyzicus التى لا تبعد إلا قليلا عن القسطنطينية فأصبحت بذلك قاعدة بالغة الأهمية فى مهاجمة القسطنطينية[4] ، وفى تلك الأثناء ، وقبل أن تصوب الضربة القاضية إلى قلب الامبراطورية ، استولى جانب من الأسطول الإسلامى على أزمير سنة ٦٧٢ ، بينما احتل الجانب الآخر ليكيا وقيليقية[5] ، وتعرضت كريت للهجوم فى نفس السنة التى فيها فرض الحصار على القسطنطينية ، والذى استمر سبع سنوات (٦٧٣-٦٧٩م) فتعرضت القسطنطينية كل صيف لحصار من قبل الأسطول الإسلامى ، ولم ينقذها إلا استخدام النيران الإغريقية فتعرضت سفن المسلمين

(١) رنسيمان (س) : الحضارة البيزنطية (ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) ص ٥ .
(٢) العرينى (السيد الباز) : الدولة البيزنطية ص ١٧ .
(٣) بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية (ترجمة حسين مؤنس ، محمود يوسف زايد) ص ٣٥٥ .
(٤) العرينى : الدولة البيزنطية ص ١٣٢ .
(٥) Ostrogorsky : G. : Hist of the Byzantine state(Trans by Joan Hussey) . P. 111.

للحرائق ووقع اضطراب فيها ثم تعرضت لعواصف شـديدة أثناء سيرها نحو الجنوب ، ولم يصل من هـذا الأسطـول الضخم إلى قـواعـده بـالشـام إلا سفن قليلـة ، فجـرت مفاوضـات بين الامبراطور البيـزنطى ومعاويـة انتهت بأن دفع معـاوية جـزية سنـوية للدولة البيزنطية[١] .

ولقد حـالت بيزنطة دون حصـول الأساطيل الأمويـة على ما يلزمهـا من أخشاب وحديد[٢] ، تـرتب على صمـود القسطنطينيـة إزاء الهجـوم الإسـلامى أن تـوقف زحف المسلمين إلى أوربـا من جهـة الشرق . وعلى الـرغم مـن حـرص المسلمين زمن الـدولـة الأموية على استكمال فتوحاتهم ، بما وجهوه من حملات للاستيلاء على القسطنطينية بعد ذلك ، كـان آخرها زمن سليمان بـن عبد الملك ٧١٧/ ٧١٨م ، واشتركت فيهـا القوات البرية والبحـرية ، واستمر حصار القسطنطينيـة زمنا طويلا ، غير أنـه لم يتحقق غرض الخليفة الأموى[٣] .

أفادت بيزنطة من الفتن الداخلية التى وقعت فى أواخر عهد الدولة الأموية وأدت إلى سقوطهـا سنة ٧٥٠م[٤] ، وتـرتب على هـذا الانقلاب أن انتقلـت حاضرة الـدولـة الإسـلاميـة من دمشق إلى بغـداد ، وبـذلك خفت حـدة حملات المسلمين وضغطهم ، وظلت بيزنطة لمدة نصف قرن آخر تقريبا بعـد عام ٧٥٢م أكبر قوة بحرية فعالة فى مياه البحرين المتوسط والأسود فاحتفظت بسيادتها البحرية التى كسبتها عام ٧٤٧م[٥] ، ولم يعـد هناك منـافسون لـلأسطول الامبراطـورى بالمعنى الصحيح فى القسطنطينيـة ، ولا لأساطيل النفوذ البحرية فى بحر إيجة ، وسيطـرت بيزنطة إلى حد كبير على جزائر صقلية وكـريت وسردينية وجـزر البليار ، وتحكمت فى المضـايق ذات القيمة البحـرية الهامـة ، الواقعة على طول طرق التجارة بين الشرق والغرب[٦] .

---

(١) العرينى : الدولة البيزنطية ص ١٣٣ .

(٢) أرشيبالـد (لويس) : القـوى البحريـة والتجاريـة فى حوض البحـر المتوسط (تـرجمة أحمد محمد عيسى) ص ١١١ .

(٣) Runciman (S.) : A Hist. of the Crusader. I. P. 25 .

(٤) العرينى : الدولة البيزنطية ص ١٨٥ .

(٥) Runciman : of. cit. I. p. 26 .

(٦) أرشيبالد : القوى البحرية ص ١٥٨ .

ولكن الموقف بدأ يتغير ابتداء من عام ٨٠٠م ، إذ أخـذت بيزنطة تهمل شأن قوتها البحريـة ، ويبدو أن هذا الإهمال يـرجع إلى أوائل عهد إيرين ، وبـداية عهد الـرشيد ، الذى قام بعدة حملات فى آسيا الصغـرى ، وكان يهدف من ورائها إلى فتح القسطنطينية على أن غـارات المسلمين البحـرية تـوقفت مثلما تـوقفت الغـارات البريـة على الحدود الشرقية بين المسلمين والبيـزنطيين إبان انشغـال هارون الـرشيد فى أواخـر أيامـه بالفتن والقلاقل ، وطوال فترة الخلاف بين ولديه الأمين والمأمون[١] .

على أن العلاقـات العدائية لم تتوقف نهائيـا ، وفى سنة ٨٢٧م استولى أهل قـرطبة الذين طردهم الخليفةالحكم الأموى على كريت ، ثم فتح المسلمون صقلية[٢] .

ومنـذ قيـام الأسرة المقـدونية بـالحكم سنـة ٨٦٧م تحول ميـزان القـوة إلى جـانب البيزنطيين ، الذين أخذوا يتوسعون على حساب الدولة الإسلامية ، وشجعهم على ذلك، إلى جانب قوة أباطرتهم ، ما انتاب الخلافة العباسية وقتذاك من الضعف[٣] .

وجرت بين مـصـر وبيزنطـة فى فـترة حكم الطولونيين اتصالات ، فقـام أحمد ابن طولون بالـدفاع عن الثغور الشامية ، فآثر باسيل الأول مهـادنة ابن طولون ، وأرسل إليه سنة ٢٦٥هـ / ٨٨٧م عبد الله بن كاوس الذى كان قـد وقع فى الأسر ومعه بضعة أسرى من المسلمين وعدة مصاحف هدية منه[٤] .

وتـرتـب على الحروب التى نشبت بين المسلمين والبيـزنطيين ، أن امتـد سلطـان بيزنطة إلى منبج ، وأنطاكية ، وعقدت معاهدة بين الحمدانيين والبيزنطيين فى حلب ، فى صفر سنـة ٣٥٩ هـ / ينـاير ٩٧٠م[٥] ، وكان من شروطهـا دفع جزيـة سنويـة للروم ، ومناصرتهم فى قتالهم ضـد الفئات التى ليست إسلامية ، ولا يؤخـذ من نصرانى جزية ،

---

(١) العدوى (إبراهيم أحمد) : الامبراطورية البيزنطية ص ٨٧ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمراء والملوك ج ١٠ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٣) ازداد نفوذ الترك فى دار الخلافـة العباسيـة ببغداد ، واستقل أحمد بـن طولـون بمصر سنة ٨٦٨م ، ونشبت الحرب الداخلية فى شمال أفريقية ، فاشتد الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس. العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٣٢ .

(٤) ابن الاثير (عز الدين) الكامل فى التاريخ ج ٧ ص ١١٠

(٥) ابن العـديم (كمال الـدين أبى القـاسم عمـر) : زبـدة الحلب من تـاريخ حلب (نشر سـامى الدهان) جـ ١ ص ١٦٣ إلى ١٦٨ ، الأنطاكى (يحيى بن سعيد) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ١ ص ١٣٦ .

إلا إذا كـان لـه بحلب مسكن وضيعـة ، وأن يكون حكـم حلب لقرعـويـه ومن بعـده لبكجور ، وبعدهما ينصب ملك الروم أميراً[١] ، وقد اتخذت هذه الحروب صفة صليبية ، قبل أن تنشب الحروب الصليبية بـزمن طويل ، ومن الـدليل على ذلك ما ورد في رسـالة يوحنا زمسكيس إلى ملك أرمينيا سنة ٩٧٤ م من أنـه أراد أن ينتزع الأماكن المقدسة من المسلمين[٢] ، وامتد نفوذ البيزنطيين زمن يوحنا زمسكيس إلى حمص وبعلبك فأذعنت له دمشق واستـولى على بيروت وصيدا[٣] . على أن العـلاقات بين المسلمين والبيـزنطيين لم تكن قاصرة على الحرب بل تجاوزتها إلى نواحٍ سياسية ودبلوماسية واقتصادية واجتماعية ، واتسمت العـلاقـات بين بيـزنطـة والمسلمين في الشرق بـالاحترام والإعجـاب إذ كـان للمسلمين في الشرق مكانة خاصة عند البيزنطيين ، لما اشتهروا به من المدنية ، ولما أقاموه من حكومة حازمة . وكان المسلمون عند بيزنطة في مرتبة تعلو مرتبة الملوك المسيحيين في الغرب[٤] ، وكانت هنـاك مراسم خاصة لاستقبـال السفارات العربية التي كـانت تفد إلى القسطنطينية ، ولقـــد حفظت لنــا الكتب التي صنفـــت تحت إشراف قسطنطين بـور فيروب ورتيجنتيرس في القـرن العاشر المـــيلادي مـــوضوع مراســم البـلاط البيزنــطي Deceremonis ووصف الاستقبـال الودي البـالغ الـذي كـان البيزنطيـون يستقبلون به سفراء بغداد والقاهرة ، وكان السفراء العرب يجلسون على مائدة الامبراطور على مقاعـد أعلى من تلك المخصصة لسفراء الفرنجة[٥] ، بل إن بطريـرك القسطنطينية نقولاس مستيكوس Nicholas Mysticus أشار في رسالته إلى أمير أقريطش (كريت) العـربي « إن دولتي العرب والـروم ظـاهـرتان على العـالم كلـه ، وهما تمتازان ومتألقتـان كالشمس والقمـر في القبة الزرقاء ولهذا وحـده لا مندوحة لنا عن أن نعيش معـا كإخوة بالرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين[٦] يضاف إلى ذلك أن الأسرى من كلا الجانبين كانو يلقون أفضل رعايـة ، ويشير المقدسي إلى أن مسلمة بن عبد الملك لما غزا أرض الدوا . البيزنطية اشترط في المفـاوضات على الامبراطور ، أن يبني بالقرب من قصره دارًا ينزل فيها كبار أسرى المسلمين حتى يكونوا تحت رعايته وإشرافه[٧] .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ١ ص ١٦٣ - ١٦٨ ، الأنطاكي : التاريخ المجموع ص ١٣٦ .
(٢) حبشي (حسن) : الحرب الصليبية الأولى ص٧
(٣) العريني : الدولة البيزنطية ص ٤٧٢ .
(٤) بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٤ : ٣٦٥ .
(٥) بينز : الامبراطورية البيبزنطية ص ٣٦٤ .
(٦) Vasiliv (A .A) : Hist . de L'Empire Byzantine tom I . P . 405 .
(٧) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

ومن الناحيـة الاقتصادية قـدم كثير من التجار البيزنطيين إلى المدن العـربية ، كما وفد التجار العرب على بيزنطة لإنجاز أعمالهم ، وبلغت التجارة البيزنطية العربية ذروتها إبان القرنين التاسع والعاشر[1] ، إذ أقبل العـرب على شراء ديباج بيزنطـة الموشى ، كما سيطـر العرب على تجارة المحيط الهنـدى بأجمعهـا ، وازدادت أهمية طـرابيزون فى القـرن العاشر وأصبحت من أهم مراكز الاتصال التجارى العالمى ، وقال عنها المسعودى «لها أسواق يأتى إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهـم »[2] .

وفى العصر العباسى الأول ضمت أكبر جالية إسلامية نزلت بالبلاد البيزنطية[3] ، وبعد استرداد أنطاكية سنة ١٠٨٥ وجه قدر معين من التجارة الشرقية عن طريق حلب إلى أنطاكية وإلى ملوكهـا على البحر ، وكان التجار من كلا الجانبين يتمتعون بـالرعاية ، وكـانت لهم أحيـاؤهم وفنـادقهم ، اشتمـل كتـاب والى المدينـة القـوانين التى تخضع لها التجارة السورية والتجـار السوريون فى بيزنطة فكان عليهم إيـداع بضائعهـم فى أحد الخانـات ، وأن يجتمعـوا جميعـا فى قطاع واحـد بـالخان للبيع والشراء ، وألا ينصرفـوا فى أنحاء المدينـة ليبيعوا سلعهم ، وكـان عليهم أيضا ألا يقيمـوا أكثر من ثـلاث أشهر فى المدينة.[4] أما العلاقات الثقافيـة فظهرت فى اهتمام العرب بالثقافة اليونانيـة منذ الدولة الأموية ، فظلت اللغة اليونانية مستخدمة فى الدواوين ، كما وجد موظفون مسيحيون فى بلاط معاوية إذ نعم غير المسلمين بالتسامح الـدينى ، ومما يدل على استمرار الأساليب اليونـانية بناء الجامع الأموى وفق الأسـاليب البيزنطية ، كما جـرت دفة الحكم فى دمشق ومصر فى الخمسين سنـة الأولى من العصر الإسلامى وفق الأسـاليب البيـزنطية ، ولقـد بدأت حركة الترجمة اليونانينة إلى العربية فى العصر الأموى وازدهرت فى العصر العباسى فقد اتصل العرب بمراكز الثقافة اليونانية فى حران والسكندرى وجند سابور[5]، فترجم خالد بن يزيد بن معـاوية بعض كتب أصطفن القفطى السكندرى ، وكـانت الترجمة فى الـدولـة الأمـويـة مقصـورة على العلـوم العمليـة كـالكيميـاء والطب ، والنجـوم ، ولم

---

(١) أرشيبالد : القوى البحرية ص ١٢١ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣ .

(٣) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٩٩ .

(٤) العرينى : كتاب عن الحسبة فى بيزنطة للقرن العاشر الميلادى ص ١٠١ .

(٥) ابن النديم : الفهرست ص ٣٢٠ .

يتعد ذلك إلى العلوم العقلية كالمنطق والفلسفة والهندسة ، وما إلى ذلك ، فهذه لم تكن إلا فى الدولة العباسية ، إذ كان اتصال المسلمين بالفلسفة اليونانية أول الأمر عن طريق الفرس ، فقد ترجم ابن المقفع كتبا من منطق اليونان ، ويبدو أنه نقلها عن الفارسية[1] كما تولى بعض النصارى من النساطرة واليعاقبة الترجمة من السريانية إلى العربية ، وترجمت فى العصر العباسى تآليف أرسطو وبعض مؤلفات أفلاطون وكتب جالينوس وأهم ما وصل إليه العقل اليونانى فى العلم والفلسفة[2] ، وكان للثقافة اليونانية أثر كبير فى المسلمين ، وخاصة أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية فتسربت الثقافة اليونانية إليها ، وصبغتها بصبغة خاصة ، وكان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين ، وهناك نوع آخر من الثقافة اليونانية الرومانية وهى الثقافة الاجتماعية التى نشأت عن امتزاج ، الجنس العربى بالجنس اليونانى فشاهد العرب عادات البيزنطيين ، ونظم حكمهم وفنونهم من غناء وتصوير وما إلى ذلك ، فنقل العرب عن اختلاطهم بالبيزنطيين ما لم يتيسر لهم نقله عن طريق البحث العلمى ، وكانت بلاد الشام أهم منبع لهذه الثقافة الاجتماعية[3] ، كما كان للحروب المستمرة بين المسلمين والروم ووقوع الأسرى من كلا الجانبين فى يد الآخر أثر كبير فى هذه الثقافة ، ومن هؤلاء الأسرى هارون بن يحيى الذى أسر زمن باسيل الأول وقام بوصف القسطنطينية وعظمتها وطبوغرافيتها ، وكان من المسلمين من يتكلمون اليونانية ومن الرومانيين من يتكلمون العربية مما ساعد على تبادل الآراء والأفكار فى اللغة والأدب ، ويروى أن الامبراطور الرومانى أرسل إلى الرشيد يطلب أبا العتاهية ولكنه رفض الذهاب إلا أن تأثير الأدب كان ضعيفا إذا قيس بتأثير العلم والفلسفة ، ولقد نقل ابن النديم أسماء كتب الروم ، وترجمت حكم لفيثاغورث وتسربت ألفاظ يونانية إلى العربية كأسماء الثياب وغيرها[4] ، ويبدو أثر الحروب العربية البيزنطية فى الأدب فى خلق نماذج لأبطال يتصفون بالبسالة والإقدام والكرم ، وأصبح بعض هؤلاء

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٦٢ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٦٣ .
(٣) المغربى ابن صاعد : طبقات الأمم ص ٢٧ .
(٤) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ج ٣ ص ١٧٩ .

شخصيات أسطورية لها قوة خارقة ، ومن ذلك محارب عربى اسمه عبد الله البطال ، ربما يكون استشهد فى معركة اقرينون فى آسيا الصغرى سنة ٧٤٠م ، كما مجد شعراء الحمد انيين أعمال المسلمين فى الحروب مع بيزنطة كشعر أبى فراس الحمدانى ، وكذلك كان الأمر فى الجانب البيزنطى مثل ملحمة البطولة البيزنطية المشهورة التى نشأت حول شخصية ديجنيس اكرتياس وتدور حول شخص قتل فى الحرب ضد العرب فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م ويقال : إن هناك ارتباطا بين ألف ليلة وليلة ، وبين شعر البطولة اليونانى وملحمة السيد البطال التركية التى لم تدخل فى دائرة الشعر التركى إلا بعد نقلها إلى اللغةالتركية وأصلها عربى (١).

موقعة ما نزكرت وأثرها :

يعتبر ظهور السلاجقة فاتحة عصر جديد لا فى التاريخ الإسلامى فحسب ، بل فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بوجه عام ، والسلاجقة فرع من الأتراك الغز نزحوا مع زعيمهم « سلجوق » إلى بلاد ما وراء النهر حيث استقروا قرب بحرى ، وهناك اعتنق سلجوق الإسلام ، وتبعه قومه ، وسرعان مانمت قوة السلاجقة إذ بدأوا منذ سنة ١٠٢٨م يغيرون على حدود إيران الشمالية والشرقية واستولوا على خراسان ، ثم غزوا إيران ، وتطرقوا إلى إقليم الجزيره وإذ ضعفت الخلافة العباسية ، لم يسع الخليفة العباسى « القائم بأمر الله » إلا أن يعترف بزعيم السلاجقة « طغرل » الذى دخل بغداد سنة ١٠٥٥م ، فى موكب رسمى ، ومنذ ذلك الوقت حل السلاجقة محل البويهيين فى السيطرة على الخلافة .

وعندما توفى طغرل ١٠٦٣م خلفه ابن أخيه « ألب أرسلان » الذى حكم فترة قصيرة مليئة بالأحداث ، إذ إن السلاجقة كانوا سنيين متحمسين ، فتعصبوا لنصرة الخليفة العباسى السنى ، ولذا أرسلوا حملة إلى الشام لمحاربة الفاطميين ، استطاعت استرداد حلب ومكة ، والمدينة ، كما أخضعت الثورات التى قامت فى فارس(٢) .

وترجع شهرة ألب أرسلان إلى موقفه من الدولة البيزنطية ، إذ إنه لم يلبث أن أغار على أطراف الدولة البيزنطية فى كبادوقيا واستولى على قيصرية ، فهب الامبراطور رومانوس الرابع ديوجنيس (١٠٦٧-١٠٧١م) للدفاع عن بلاده ، ولم تلبث أن دارت

---

(١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٨٣ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ٢٥ .

Runiciman : op cit vol I . P. 64 .

بين الفريقين معركة حاسمة عند مانزكرت[١] ، حيث أحرز ألب أرسلان انتصارا حاسما ووقع الامبراطور البيزنطى فى الأسر ، ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية كبيرة ، والتعهد بألا يقاتل المسلمين ، وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين ، فضلا عن عقد هدنة لمدة خمسين سنة [٢]غير أنه لما عاد الامبراطور إلى القسطنطينية تقرر خلعه عن العرش ، وخلفه فى الحكم الامبراطور ميخائيل السابع[٣] ، (١٠٧١-١٠٧٩م) ، وتعتبرمانزكرت من أفجع الهزائم فى تاريخ بيزنطة ، فقد بدت بيزنطة كأنها خسرت فى ميدان القتال كل دليل على أنها حامية المسيحية[٤] ، ويشير وليم الصورى إلى أن هذه الهزيمة خدمت الحركة الصليبية ، وأثبتت أن بيزنطة لا تستطيع حماية الشرق ، ومن نتائجها أيضا القضاء على التحالف البيزنطى الفاطمى ، على أنه برغم انتصار السلاجقة فى مانزكرت، لم يستغل ألب أرسلان هذه الفرصة للتوسع فقد ظلت بيزنطة تحتفظ بأقاليم الأطراف[٥] .

وتلى معركة ما نزكرت زوال بقايا الإدارة البيزنطية فى أرمينيا وقبا دوقيا بعد أن هجرها أهلها ، ويضاف إلى ذلك أن السلاجقة كانوا يتدخلون لنصرة الأباطرة البيزنطيين ، والطامعين فى العرش البيزنطى وأخذوا يوطدون سلطانهم بآسيا الصغرى واستطاع سليمان بن قتلمش أن يحقق للسلاجقة السيادة بهذه الجهات .

وما حدث من التنازع على عرش بيزنطة ، والتجاء الطامعين إلى السلاجقة لمساندتهم ، وإلى مساعدة العناصر النورمانية المأجورة فضلا عن دخول الترك جنودا مرتزقة فى القوات البيزنطية ، كل ذلك هيأ للسلاجقة الطريق لتوطيد سلطانهم بآسيا الصغرى . وباستيلاء السلاجقة على حلب ودمشق وبيت المقدس منذ سنة ١٠٧٠ ، ثم انتزاع أنطاكية من أيدى البيزنطيين سنة ١٠٨٥[٦] ، وما أصاب بيزنطة من الانهيار ، كل ذلك حمل البيزنطيين على الشعور والإحساس بأن السلاجقة أشد خطرا على دولتهم من العرب أثناء هجومهم على بيزنطة فى صدر الإسلام ورأوا أنه ليس بوسعهم وقف تقدمهم ، فلم يسعهم إلا التماس العون والمساعدة من غرب أوربا ، ولم يجد الامبراطور

---

(١) ما نزكرت أو ملاذكرت مدينة أرمينية تقع إلى الشمال من بحيرة خان

Vasiliev : op . cit . I. P. 469 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ٢٧٥ .

(٣) عاشور (سعيد عبد الفتاح) : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٢٤ .

(٤) Runciman : of . cit . I.P. 64 .

(٥) Vasiliev : of . cit Tom . I. p. 356.

(٦) Runciman : of . cit Vo. I. P. 65 .

الكسيوس كومنين وسيلة يستعين بها لدفع هذا الخطر سوى الاستنجاد بالبابوية عدة مرات ، حتى انتهى بـه الأمر إلى إرسال بعثـة إلى البابا أربان الثـانى سنة ١٠٩٥ لشرح خطر السلاجقة على المسيحيين بوجه عام (١) .

وبينما ارتفع شأن السلاجقة ، وامتد سلطانهم من بحر إيجة شرقا إلى حدود الصين غربـا ، ومن بـلاد القوقاز شمالا إلى المحيـط الهندى جنـوبا ، وأخـذ سلطان الفاطميين يتقلص ، فـاستقل عنهم السـاحل الشرقى للبحـر المتوسط بسبب الأزمـات الاقتصادية التى حلت بـالـدولة ، وضعف الخلفـاء فضـلا عن المنـازعـات بين العناصر المختلفـة بـالجيش الفـاطمى ، ومع ذلـك استطـاع الفـاطميـون أن يستردوا بيت المقـدس سنـة ١٠٨٩ (٢) . وما تعـرضت له كل من الدولة البيـزنطية والخلافة الفاطميـة من خطر من قِبَل السلاجقة ، أدى إلى قيام تحالف بينهما لمواجهة تهديد السلاجقة (٣) .

على أن أحـوال العالم الإسـلامى فى الشرق الأوسط ، ازدادت تـدهـورا فبعد وفـاة ملك شـاه سنة ١٠٩٢ ، قـامت إمارات سلجـوقية مستقلـة بآسيـا الصغرى والعـراق وخراسان وكـرمان . أما بلاد الشام فـانقسمت إلى إمارات متفرقة يدين بعضهـا بالولاء للسـلاجقة بينما كـان البعض الآخر ، وخـاصة المدن السـاحلية وبيت المقـدس يخضع للفاطميين ، واستقل أمراء آخرون الذين تولوها سواء من قبل السلاجقة أو الفاطميين ، بينما نشب النزاع بين ولدى تيتش ، رضوان ودقاق ، على مملكته التى أقامها بالشام ، وإذ حل الضعف بـالقوى الإسـلاميـة التى تسيطر على منطقـة الشرق الأوسط ، حيث تقع الأماكن المقدسة التى تطلع المسيحيون بغـرب أوروبا إلى الاستيلاء عليها نهضت بيزنطة من كبوتها فى عهد الامبراطور الكسيوس كومينين (١٠٨١-١١١٨) (٤) ، فما اتصف به الكسيوس من الدهـاء ونفاذ البصيرة ، حمله على أن يستخدم من الأسـاليب ما يكفل له القضاء على الفتن الـداخلية ، وتوطيد مـركزه ، وإصلاح الأحوال الاقتصـادية ، وإعادة بناء الأسطـول ، وتشكيل جيش جـديد من المرتـزقة (٥) ، والإيقـاع بين الأمراء والقـادة السلاجقة الذين هددوا ما تبقى له من أملاك فى آسيا الصغرى (٦) .

(١) عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤٤٦ .

(٢) Gibb _ (H. A. R.) : The claphite and the Arab State P. 95 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠١ .

ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ١ ص ١٦ .

(٤) Runciman : of . cit Vol I.P.75 .

(٥) Runciman : of . cit . Vol . I. P. 76 .

(٦) ابن الأثير / الباهر فى الدولة الأتابكية (نشر عبد القادر طليمات) ص ٧ .

موقف بيزنطة من الحركة الصليبية :

كان الامبراطور الكسيوس يأمل من وراء طلب مساعدة الغرب له أن يتوافر له من الجنود المرتزقة ، ما يعينه على طرد الترك من آسيا الصغرى ، وما طلبه من الغرب من امداد لم يقصد به الا اعتبارهم جنودا مأجورين يخضعون لسلطانه ، وينفذون أوامره ، فيردون إليه ما يستولون عليه من البلاد من أيدى المسلمين ويعترفون له بالسيادة والسلطان(١) . وبفضل ما اشتهر به الكسيوس من المهارة السياسية ، وبما أغدقه من الهدايا والتشاريف على قادة الصليبيين فضلا عن الإفادة من التنافس والتشاحن الذى وقع بين الجيوش الصليبية المختلفة . استطاع أن يحمل القادة الصليبيين على بذل يمين الولاءله(٢) . وكأنما تعين على الصليبيين أن يعيدوا إلى بيزنطة ما كان لها من ممتلكات بالشام وقبادوقيا والرها(٣) ، وبهذا استخدم الكسيوس الغرب المسيحى لتحقيق مطامع بيزنطة السياسية ، وبذلت بيزنطة للصليبيين كل ما لديها من مساعدات مادية وخبرة بطبيعة بلاد آسيا الصغرى ، ومهارة سياسية فى العلاقات مع الترك ، والإفادة من السكان اليونانيين ، ووقع النزاع بين القوى الإسلامية المختلفة بآسيا الصغرى(٤) ، كل ذلك حقق للصليبيين أمر الاستيلاء على المدن الواقعة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى أطراف الشام ، حتى بلغوا أنطاكية ، وتهيأ للامبراطور أن يسترد بفضل الصليبيين الجانب الغربى من آسيا الصغرى(٥) .

مشكلة أنطاكية :

توجه الجيش الصليبى الرئيسى لحصار أنطاكية التى تعتبر من أهم مدن الشام ، وكانت الثغر الجنوبى للأملاك البيزنطية وانتزعها سليمان بن قتلمش سنة ١٠٨٥ ، ولم تلبث أن أضحت من أملاك السلاجقة بالشام ، وكان يتولى حكمتها من قِبَلِ السلطان ملك شاه ، ياغى سيان وظل يحكمها حتى سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ١٠٩٨ وأستطاع بوهمند النرمندى أن يظفر باحتلالها ، بعد أن اشتد النزاع عليها بين الأمراء الصليبيين(٦) .

---

(١) Runciman : of . cit . Vol . I.P. 150.

(٢) حبشى : الحروب الصليبية الأولى ص ٢٧ .

(٣) Grousset : Hist . des Croisades Tom . I.P.27.

(٤) Runciman : of . cit . Vol . I.p. 194 .

(٥) Ostrogorsky : of . cit . p. 322.

(٦) Runciman : of . cit . Vol . I.P. 224.

والواقع أن امتلاك الصليبيين لأنطاكية ، أدى إلى التخاصم والتنازع بينهم وبين الدولة البيزنطية منذ بداية الحروب الصليبية ، وتحكم إلى حد كبير فى سياسة بيزنطة الصليبية[١] . فعلى الرغم من أن الأمراء الصليبيين بذلوا يمين الولاء للامبراطور الكسيوس ، فأصبحوا بذلك أتباعا له ، فيما يستولون عليه من أملاك ومدن وقلاع ، تعتبر من أملاك الامبراطور يمنحها لمن يشاء من الأمراء الإقطاعيين [٢] . على أن الأمراء رأوا غير ذلك ، فاعتبروا أن ما يفتحونه من بلاد داخل حدود الشام ليس للامبراطور سلطان عليه ، ويعتبر من حقوق الأمراء ولذا حرص بوهمند بعد الاستيلاء على أنطاكية على أن يتخلص من كل أثر ونفوذ بيزنطي ، فأوهم الأمراء الصليبيين أن الامبراطور الكسيوس يكيد لهم ويتحالف مع السلاجقة ، ولم يسع ممثل الكسيوس وهو نيكتاس إلا أن يفر إلى قبرص ، وزعم الصليبيون أن الامبراطور أخل بشروط يمين الولاء، إذ تخلى عنهم أمام أنطاكية فى أحرج الأوقات ، ولم يقدم لهم ما يحتاجونه من المؤن والعتاد . وصار لبوهمند من النفوذ والسلطان ما جعله آخر الأمر ينفرد بإمارة أنطاكية[٣].

والواقع أن الصليبيين أفادوا من مساعدة البيزنطيين فيما احتلوه من الأراضى الإسلامية ، كما أفادوا من تفكك القوى الإسلامية فيما اتخذوه من سياسة مع الأمراء المسلمين ، فإن ما حدث من انقسام الشام بين السلاجقة والفاطميين والأتابكة والأمراء المستقلين ، أضعف شأن المسلمين فى الشرق الأوسط ومن الدليل على ذلك ما حدث من محاولة الفاطميين الاتفاق مع الصليبيين ، بناء على نصيحة الامبراطور الكسيوس ، إذ إنه بذل النصيحة للصليبيين بالتماس صداقة الفاطميين[٤] ، فأرسل الوزير الأفضل بن بدر الجمالى إلى أنطاكية سفارة فى يناير سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م . ومكث بها شهرين وكانت هذه السفارة تحمل مشروع اتفاق بين الفاطميين والصليبيين ، تحصل فيه مصر على بيت المقدس ، وينفرد الصليبيون بأنطاكية ، على أن يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين ويسمح لهم بممارسة شعائرهم على ألا تزيد إقامتهم أكثر من شهر واحد وألا يدخلوها بسيوفهم ، ولقد رحب بهذه السفارة الصليبيون وأرسلوا معها وفدا إلى القاهرة ويبدو أن الصليبيين لم يهتموا فى ذلك الوقت بفكرة التحالف ،

---

(١) Grousset : of . cit . Tom . I. 143 .

(٢) Chalandon (F.) Hist . de la Premiere Groisade . P. 227 .

(٣) Runciman : of . cit . I.P. 204 .

(٤) Setton : A Hist . of the Crusades . Vol . II . P. 316 .

(٥) Runciman : of . cit . Vol . I. P. 205 .

وأنهم أبعد ما يكونون عن معاونة الفاطميين على استعادة ممتلكاتهم فى الشام ، إذ جعلوا كل اهتمامهم موجها إلى المسير إلى بيت المقدس بعد استيلائهم على أنطاكية[١] .

ولذلك لم تحقق السفارة هدفها ، وظن الفاطميون فى مصر أن انتصار الصليبيين فى أنطاكية يحول دون زحف السلاجقة جنوبا ، ويمنع الخطر عن مصر ، كما اعتقدوا أن الصليبيين سوف يتوقفون فى زحفهم عند بيت المقدس[٢] ، وبذا يؤلفون إمارة حاجزة بين السلاجقة والفاطميين .

وإذ أدرك الصليبيون ما وقع من الشقاق بين القوى الإسلامية ، اتصلوا بدقاق أمير دمشق[٣] ، حينما علموا باستعداد كربوقا أتابك الموصل لمساندة ياغى سيان أمير أنطاكية، وأشاروا إلى أنهم لن يتعرضوا لممتلكاته بأذى ، وأنهم لا يقصدون سوى البلاد التى كانت بأيدى الروم ، والبيزنطيين[٤] على أن دقاقا لم يلتفت إليهم ، واستنجد بالسلطان السلجوقى فى بغدادوكريوقا ورضوان صاحب حلب ، وأميرى حماه وسنجار ، فلم يسع الصليبيون إلا الالتجاء إلى البيزنطيين ، ومع ذلك فإن بوهمند استطاع آخر الأمر أن يظفر بأنطاكية بفضل بسالة رجاله وخيانة أحد القادة الأرمن ، كان يخدم ياغى سيان[٥] ، وذلك دون أن ينتظر قدوم القوا ت البيزنطية ، بينما أعلن الامبراطور أن مصلحة الامبراطورية تستوجب العودة وتجنب التعرض لهجمات السلاجقة وكل ما كان يهتم به هو مصلحة الامبراطورية ورفاهيتها ، ولما وصلت الأنباء إلى المعسكر الصليبى بأن الامبراطور عاد إلى عاصمة ملكه ، ورفض النهوض لمساعدتهم اعتبروا ذلك تخاذلا من الامبراطور فاطمأن بوهمند بذلك إلى أن تحققت أحلامه بالانفراد بأنطاكية[٦] .

سياسة اللاتين تجاه بيزنطة :

على الرغم من أن الامبراطور لم يواصل السير لنجدة الصليبيين فى أنطاكية فإنه أظهر استعداده لمساندتهم عند زحفهم على بيت المقدس فطلب منهم انتظارهُ لشهر يوليو ، ولعلَّ السر فى التأجيل يرجع إلى أن الامبراطور حرص على ألا يغفل أمر الاتفاقية

---

(١) Grousset : of . cit . Tome . I. P . 83 .

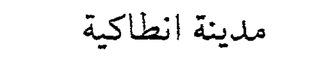
(٢) Grousset : of . cit . tome . I . P . 83 .

(٣) Setton : of . cit . Vol . I.P. 316 .

(٤) حبشى : الحروب الصليبية الأولى ص ٥٤ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٣٣ . ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٢ .

(٦) Runciman : of . cit . I. P . 240 .



مدينة انطاكية

السرية التى عقدها مع الفاطميين ، إذ ارتاب البيزنطيون فى توسع الصليبيين ومتاخمتهم لحدودهم وأدركوا أنه لابد من إبعادهم عنها(١) .

والمعروف أن اليونانيين كانوا يؤلفون جالية كبيرة فى أنطاكية وكان البابا أوربان قد أوصى الأسقف أدهمير بتوطيد العلاقة مع بيزنطة وعدم التعرض لليونان الأرثوذكس أملا فى التقارب بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فأعاد أدهمير بطريرك أنطاكية إلى كرسيه ، غير أن بوهمند قرر عزله بعد أن استقر فى أنطاكية وكشف ما بين البيزنطيين والفاطميين من علاقات .

لم يسع الصليبيون إلا أن يقرروا المسير إلى بيت المقدس بعد أن أرسلوا رسالة إلى البابا يدعونه لقيادة الحملة ، ولكن البابا اعتذر ، وفى أثناء مسير الصليبيين إلى بيت المقدس وصلت رسالة من الامبراطور البيزنطى فى سنة ١٠٩٩م ، تذكرهم باتفاقهم السابق ، وبها بذله جميع البارونات من يمين الولاء ، التى تلزمهم بأن يردوا إليه ماوقع بأيديهم من المدن والقلاع وفقا لاتفاقية سنة ١٠٩٧م ولقد كتب الفاطميون إلى الكسيوس حين تقدم الصليبيون فى أراضيهم لإيضاح مدى صلته بتلك الحركة(٢) ، واشتراكه فيها ، فأنكر صلته بها وكان سبب اتخاذه ذلك الموقف ، تصرفات بوهمند وعدم وجود مصالح له فى بيت المقدس . أما واجبه نحو الأرثوذكس المسيحيين بصفته حاميا لهم ، فقد حمله على الاعتقاد أن بقاءهم تحت الحكم الفاطمى أفضل من حكم الفرنج المخالفين لهم فى المذهب ، والذى بدت دلائله تجاه السكان الوطنيين مما تعرضوا له من اضطهاد وتعذيب . وفى نفس الوقت لم يقطع علاقته بالصليبيين ، ولكن تلك الرسائل وقعت فى أيدى الصليبيين الذين اعتقدوا فى خيانته لهم . ورغم ذلك تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بيت المقدس(٣) .

أقام الصليبيون لهم فى الشرق الأدنى فيما بين سنتى ١٠٩٧ ، ١٠٩٩ ثلاث إمارات : الرها ، وأنطاكية ، وبيت المقدس ، فتغيرت الأوضاع السياسية بهذه المنطقة ، إذ حرص الصليبيون على تثبيت أقدامهم ، ولم يلبث أن ظهرت أطماعهم السياسية والشخصية والاقتصادية . إذ حرص كل أمير على تملك ما وقع فى يده من المدن والقلاع الإسلامية ، وحازت الجمهوريات الإيطالية من الامتيازات ما جعل مساعدتها بالغة

---

(١) Setton : of . cit . I.P. 329 . Grousset : of . cit Tom I.p.. 37 .

(٢) حبشى : الحرب الصليبية الأولى ص ٢١ .

(٢) ابن الأثير الكامل ج ١٠ ص ١٠٥ .

(٣) عاشور / الحركة الصليبية ١ ص ٢٤ .

الأهمية للصليبيين ، كما تغير موقف بيزنطة من الصليبيين ، ويدل على ذلك ما انتهجته من سياسة تجاه حملة سنة ١١٠١م[١] التى بدأ فى تأليفها لمساندة الصليبيين فى الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٠٩٨م ، ولم تتحرك إلا بعد سقوط بيت المقدس إذ تعرضت هذه الحملة لهزيمة ساحقة على أيدى السلاجقة[٢] ، وترتبت على هذه الهزيمة نتائج خطيرة ، إذ استعاد السلطان السلجوقى نفوذه فى آسيا الصغرى ، واتخذ قونية عاصمة له ، وهدد الطريق الرئيسى بين القسطنطينية والشام ، كما مد غازى الدانشمندى نفوذه إلى الفرات، فأصبح يهدد الرها ، وأصبح طريق آسيا الصغرى موصدا مرة أخرى أمام الصليبيين والبيزنطيين ، وألقى الصليبيون مسئولية هذه الهزيمة على عاتق بيزنطة ، فى حين اتهمتهم بيزنطة من جانبها بأنهم لم يتبعوا خطط الامبراطور البيزنطى ، ونتج عن ذلك أن أصبح من المحتم على الصليبيين والبيزنطيين[٣] عند توجيه أى حملة ، أن يسلكوا طريق البحر ، فاستفادت المدن الإيطالية بيزا وجنوة فى الحصول على مزايا تجارية ضخمة[٤] .

الدولة العباسية والبيزنطيون :

بدأت حركة الإفاقة فى الدولة الإسلامية ، وبدأت تظهر بوادر توحيد الجبهة الإسلامية وفكرة الوقوف فى وجه الصليبيين فى شمال العراق أولا ثم بلاد الشام[٥] ، ولكنها لم تتضح تماما . فلم يكن للمحاربين عزيمة صادقة فى الجهاد ، وقد بدأت حركة الإفاقة فى شمال العراق ، وذلك لقربها من الرها والخوف من الصليبيين ، ولقد بدأها جرمكش حاكم الموصل ، ثم مودود أتابك الموصل ، ولقد تسربت فكرة الجهاد إلى نفوس العامة فى البلدان التابعة للخلافة العباسية حيث أنذروا الخليفة العباسى بوجوب مقاومة الغزو الصليبى ، بعد أن تعرضت حلب لحصار الصليبيين ، فخشى المسلمون استيلاء الفرنج على بقية بلاد الشام[٦] ، فسار جماعة من أهل حلب إلى بغداد، مستنصرين على الفرنج، واغتنم الكسيوس كومنين الفرصة ، وأرسل لسلطان

---

(١) العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ج ١ ص ٣٠٠ .

(٢) Runciman : of . cit . Vol . II. p . 21 .

(٣) Ostrogorsky : of . cit . P. 323 .

(٤) Runciman : of . cit . Vol II. p. 29.

(٥) Grousset : of . cit . Tome . I. p. 416 .

(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٢ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٢.

السلاجقة ببغداد يحثه على قتال الفرنج ، ووصلت سفارته وقت وصول أهل حلب ، فاشتد أهل حلب فى حث السلطان على الجهاد ، بأن قالوا للسلطان «أما تتقى الله تعالى أن يكون ملك الروم أكثر حمية منك للإسلام حتى لقد أرسل إليك فى جهادهم »(1) وتضمنت رسالة الامبراطور البيزنطى للسلطان السلجوقى والخليفة العباسى عرض التحالف بين البيزنطيين والمسلمين ، كما تضمنت الإشارة من طرف خفى إلى نوايا الصليبيين وأنه منعهم من العبور إلى بلاد المسلمين ، وكانت هذه السفارة تهدف إلى القيام بجهد مشترك بين بغداد وبيزنطة ، ضد الصليبيين ، إذ كان الامبراطور يعلم ألا أمل فى أن ينفِّذ قادة الفرنج اتفاقاتهم معه وتسليمه أنطاكية(2) ، وليصفو له الجو ويضعف كلا الجانبين (الصليبى والإسلامى) ، نهضت جيوش عربية تولى قيادتها مودود زنكى ، حاصرت تل باشر سنة ١١١٠م ٥٠٤هـ وأشرفت على أخذها(3) .

السلاجقة والبيزنطيون فى آسيا الصغرى :

منعت غارات السلاجقة الامبراطور البيزنطى من التدخل فى شئون سوريا ، وبعد موت الغازى كمشتكين الدانشمندى سنة ١١٠٦م كان لبيزنطة فى الأناضول قوات كبيرة ، إذ أن الكسيوس كان يهدف إلى بسط سلطانه على المناطق الغربية على الشاطىء الجنوبى(4) وحكم قبادوقيا القائد السلجوقى حسن الذى حاول سنة ١١١٠م الاستيلاء على أراضى الدولة البيزنطية ، وتقدم فى اتجاه فيلادلفيا ، وكان يهدف الاستيلاء على أزمير ، ولكن القائد البيزنطى إيستاسيوس فليكوس Eustathius Philocces قائد الجزء الجنوبى الغربى من الأناضول حرص على إحباط محاولة حسن واستنقاذ الشاطىء الإيجينى من هجمات السلاجقة(5) ، وفى نفس الوقت كان أكبر أولاد قلج أرسلان قد تخلص من أسر الفرس واتخذ قونيا عاصمة له بعد محاربة القائد حسن فى

---

(1) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٣ ، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ١٥٧ - ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٠٣ .

(2) Runciman : of . cit . Vol I.P. 121 .

(3) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ١٥٨ .

(4) Runciman : of . cit . Vol . II . P . 138 .

(5) Runciman of . cit . Vol II . P. 138 .

محاولـة لاسترداد أراضى أسلافـه ، فاتجه إلى فيـلادلفيا سنـة ١١١٢م ، حيث التحم مع الجنرال البيزنطـى جابراس Gabras واشتبك معـه مرة ثـانيـة سنة ١١١٣م فأرسل حملـة سريعة إلى بيثينيا وأسـوار قونية فحاصر قائدهم محمـد مدينة Poemarenum حيث قبض على القـائد البيزنطى ، واتجه إلى أبيـدوس ، كما حـاصر ملكشاه بـرجامـه Pergamum واستولى عليهـا . وخرج الامبراطور بنفسه لمواجهـة السلاجقة ، وانتظرهم أثنـاء عودتهم محملين بـالغنـائم وفـاجأهم واشتبك معهم قـرب غلطـه Catyacum فاستعـاد الأسرى والغنائم ، وفى سنـة ١١١٥م ترددت أنبـاء على أن ملكشاه يستعـد للحرب مـرة ثانيـة وقضى الكسيوس السنـة فى احتلال بيثينيا ، وفى السنة الثـالثة كان مـريضا ، ومع ذلك عزم على أن يبدأ بـالهجوم ، واتجه جنوبا إلى قـونية وانتصر البيزنطيون فى فليـومليوم Phi-lomelum[١] ، واضطر ملكشـاه لطلب الصلح واعترف بحدود بيزنطـة التى امتدت من طرابيزون إلى قليقليا والمناطق الواقعة غـرب أنقرة ، ثم قتل ملكشاه على يد أخيه مسعود بعد تحالفه مع الدانشمند ولكن استمر الترك فى غاراتهم فى جوف الأناضول ، ومنع هذا بيزنطة من اتخاذ إجـراءات فعلية فى سوريا ، وكل هذا أفـاد أمير أرمينيا ثورس Thoros ، والنورمان فى أنطـاكية ولقد توازنت قـوة البيزنطيين والسلاجقة فى آسيـا الصغرى لذلك منعت تلك الأحداث الكسيوس من الذهاب إلى روما[٢] .

وفى سنـة ١١١٨م تـوفى كل من الخليفـة المستعين فى بغداد والكسيـوس كـومنين وبلدوين الأول[٣] .

ساريـوحنا كـومنين (١١١٨م - ١١٤٣م) على سياسـة أبيه الكسيـوس ، الذى خلف لـه أسطولا قويـا وثروة ، فضـلا عن جيش تجهـز بالعتاد ، وتلقـى تدريبـا جيدا فحرص على تأمين الحدود ، واستعادة ما فقدته الامبراطـورية من أملاك ، وتأكيد سلطة بيزنطـة على شمال الشام[٤] ، بينما كـان السلاجقـة منقسمين على أنفسهم : فالسلطـان مسعود فى قـونية يسيطـر على الجزء الجنوبى من شبه جـزيرة الأنـاضول من سنجار إلى طـوروس ، ثم الأمير غـازى الـدانشمنـد يحكم من هـاليس إلى ا لفـرات وبين

---

(١) Ostrogorsky : of. cit. P. 324 .

(٢) أسد رستم : الروم ص ١٣٣ .

(٣) Chama, dp, : Alexis comene P 263 .
Runciman : of. cit Vol II. P.134 .

(٤) Grousset : of. cit. I. p. 462 .

أملاكها مدن يحكمها أفراد مستقلون[١] ، وكان طغرل أرسلان أمير ملطية لا ينفك فى الإغارة على سواحل أدنة وسائر قليقية ، فقاد يوحنا جيشه واستعاد أدنة والأناضول[٢] وكان من حسن حظ بيزنطة أن وقعت الفتنة بين السلاجقة ، فنشب خلاف بين السلطان مسعود وأخيه عرب على إمارة طغرل وملطية فاضطر مسعود للهرب للقسطنطينية حيث استقبله الامبراطور استقبالا حسنا ، ولكن مسعودا استطاع استعادة عرشه ولجأ عرب بدوره إلى قليقية ثم القسطنطينية ، وأمضى الامبراطور الأعوام من ١١٣٠ - ١١٣٥ فى مهاجمة دانشمند ، ولكن عكر عليه صفو ذلك هروب أخيه إسحق ١١٣١م حيث قضى تسعة أعوام يدبر المكائد مع الأمراء المسلمين والأرمن ، ومنذ وفاة الأمير غازى دانشمند لم تستطع قوة سلجوقية أن تعترض طريق الامبراطور يوحنا الذى استعاد كل ممتلكاته التى فقدها[٣] .

العلاقة بين البيزنطيين والزنكيين :

ظلت مشكلة أنطاكية موطن الشقاق ، وسبب التوتر بين الصليبيين والبيزنطيين ، فبعد أن تخلص الامبراطور من مشاكله مع السلاجقة ، حاول استعادة أنطاكية بعد مصرع بوهمند الثانى سنة ١١٣٠ ، والمعروف أن ملك بيت المقدس لذلك تدخل فى أمر أنطاكية للمحافظة عليها من أطماع البيزنطيين وزنكى[٤] ، غير أن « اليس » الوصية على العرش لجأت إلى كل من زنكى والامبراطور البيزنطى ثم اختارت لابنتها ريموند بواتيه ليكون زوجا لها فأثار هذا غضب الامبراطور ضد أنطاكية ولجأ لاستخدام القوة ، وإن كانت المراجع الإسلامية[٥] تشير إلى أن السبب فى قدوم الامبراطور البيزنطى يرجع إلى استنجاد الفرنج به ، ولما مضت القسس والرهبان إلى بلاد الروم واستنفروهم المسلمين بسبب عماد الدين ومنازلة بعرين وفاجأت أخبار الحملة كل من الأرمن والصليبيين ، وقبض الامبراطور على ابن لاون وسيره إلى القسطنطينية . ثم اتجه إلى أنطاكية وحاصرها، ولم يكن ريموند فى أنطاكية بل كان يساعد ملك بيت المقدس فى قتال زنكى فى

---

(١) Runciman : of . cit . II. P. 201 .
(٢) Ostrogorsky : of . cit . P. 336 .
(٣) Ostrogorsky : of . cit . P. 33b.
(٤) تزعم عماد الدين زنكى حركة الجهاد فى النصف الأول من القرن الثانى عشر .
(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص ٣٢ .

بعرين ، ولكن استطاع دخول المدينة مع حرسه (١) . وآثر الامبراطور يوحنا ألا يقدم على تحطيم قوة أنطاكية ولا سيما بعد أن ظهرت قوة زنكى (٢) ، ولم تنقل إلى ريموند مساعدة خارجية فأرسل يعرض على الامبراطور المفاوضة ثم توصلا لاتفاق اعترف فيه بسيادة الامبراطورية البيزنطية على أنطاكية ، وعلى أن يحكمها الصليبيون نيابة عن الامبراطور ، واتفقا على القيام بحملة سنة ١١٣٧ ، تحددت أهدافها ، فى تحطيم قوة زنكى فى حلب ، وإمارة بنى منقذ فى شيزر ، وانتزاع حمص (٣) من أتابكية دمشق ثم إقامة إمارة تشمل الأجزاء الداخلية من بلاد الشام بما فيها حلب وشيزر وحماه وحمص ، على أن يعين ريموند بواتيه أميرا على تلك الإمارة الجديدة وفى هذه الحالة يتحتم على ريموند أن يعيد أنطاكية إلى الامبراطور البيزنطى ، على الرغم من أن الامبراطور البيزنطى أرسل إلى زنكى سنة ١١٣٧ مبعوثا من قبله يخطره بأنه لن يقصده ويقاتله (٤) وفى يناير سنة ١١٣٨م بدأ الاستعداد الفعلى للحملة فقبض على التجار والرعايا المسلمين من أهل حلب حتى لا تتسرب أنباء الحملة إلى زنكى ، وهبط الجيش البيزنطى إلى الشام تسانده جيوش أنطاكية والرها (٥) واتجهوا إلى الشمال الشرقى من حلب واستولوا على بزاعة سنة ١١٣٨ (٦) ،وكان زنكى يحاصر حمص ، وأرسل بعض قواته بقيادة سيف الدين سوار لتقوية حلب ، ولم يستطع الصليبيون بسبب مناعة وقوة استحكامات حلب الاستيلاء عليها ، فهبطوا للجنوب واستولوا على الأثارب ومعرة النعمان وكفر طاب ، وواصلوا الزحف إلى أن وصلوا شيزر ، ولكن الحصار على شيزر لم يحقق نجاحا لمناعتها ، ولأن أمير أنطاكية والرها انصرفا إلى أمورهما الداخلية ، ونهض زنكى لمساعدة شيزر ، وأرسل إلى بغداد للدعوة للجهاد الدينى ، فأرسل القاضى كمال الدين الشهرزورى للسلطان مسعود السلجوقى الذى اضطر أمام ثورة أهل بغداد إلى إعداد حملة ، كما نهض عساكر دمشق لمساعدة زنكى ، الذى أرسل إلى الأمير الدانشمند يطلب منه الإغارة على آسيا الصغرى ، ووقف زنكى على النزاع بين الصليبيين

(١) Ostrogorsdy : of . cit P. 336.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٦٢ .

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٨٣ .

(٤) وصل الرسول إلى زنكى ، وهو متوجه إلى القبلة فرده ومعه هدية إلى ملك الروم وفهود وبذاه وصقور على يد الحاجب حسن ، ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٦) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥١٣ .

والبيزنطيين فسعى إلى إثارة الفرقة بينهم ، فكان يرسل إلى ملك الروم ، « إن فرنج الشام خائفون ، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه » ، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك لاروم، ويقول لهم « إن ملك بالشام حصنا واحدا ملك بلادكم جميعا ، فاستشعر كل من صاحبه »[١] فأحجم كل من أميرى الرها وأنطاكية عن مشاركة الامبراطور فى الهجوم على شيزر إذكّره جوسلين أن يرى ريموند قريبا منه ، فى حين خشى ريموند أن يضطر للتنازل عن أنطاكية ، وأدى عدم توافر حسن النية بين الصليبيين والبيزنطيين إلى فشل الحملة[٢] ، وما كاد جانب من المدينة يسقط حتى التمس السكان الهدنة ، فأجابهم الامبراطور ، وتضمن الاتفاق دفع مبلغ كبير من المال جزية سنوية رمزا للتبعية للامبراطور ، فضلا عن الهدايا والخيول . وانسحبت الجيوش البيزنطية إلى أنطاكية وطلب الامبراطور من ريموند تسليم أنطاكية ولكن جوسلين كونت الرها آثار النفوس على الامبراطور والأرثوذكس وخوفهم من نوايا الامبراطور ، واندلعت ثورة عارمة فى أنطاكية واعتدوا على الجيش البيزنطى[٣] ، وأغار سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى على قليقية وأدنة والمصيصة بإيعاز من زنكى ، فاضطر الامبراطور للعودة للقسطنطينية .

استعاد زنكى فى مايو سنة ١١٣٨م حصن بزاعة والأثارب ، وضاعت مكاسب بيزنطة[٤].

عاد الامبراطور يوحنا سنة ١١٤٢ لاستعادة أنطاكية ، ولكن ريموند اعتذر بأنها ملك لزوجته كونستاس ، وليس بوسعه التنازل عنها ، وقرر الامبراطور استعادة المدينة بالقوة[٥] . ولكن قدوم الشتاء منعه من الهجوم ، واتجه إلى قليقية واستعاد بعض القلاع من الدانشند ، ولقد أراد الحج والقدوم إلى بيت المقدس على رأس جيشه ، ولكن فولك رفض لتخوفُّه منه ومن دخول جيش بيزنطى ، فقال: إنه يرحِّب بحاشية صغيرة ، وأنكر

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٣٢ .
(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ١٦ .
(٣) Grousset : of . cit . Tome . I.P. 121, 123.
Stevenson : The crusaders in the East P . 124 .
(٤) عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٥٩٠ .
(٥) Ostrogorsky : of . cit . P. 336.

أى حق شرعى للامبراطور البيزنطى فى بيت المقدس ، مما أثار الامبراطور وقرر القتال ، ولكن عاجلته المنية[(١)] .

تولى عرش بيزنطة مانويل (١١٤٢ - ١١٨٠) الذى اشتهر بميله إلى الغرب والتقاليد الغربية ، ولكنه لم يتخلَّ عن مصالح بيزنطة فى الشرق ، فقامت الدبلوماسية البيزنطية فى عهده على أساس المحافظة على توازن القوى فى الشرق بالإيقاع بين القوى الإسلامية المختلفة والإيقاع بينها وبين الفرنج ، لتعود الفائدة فى النهاية على بيزنطة وتتجلى سياسته فى علاقته بأمراء الحملة الصليبية الثانية والسلاجقة ونور الدين الذى تولى قيادة الجبهة الإسلامية بعد أبيه عماد الدين زنكى .

موقف البيزنطيين من السلاجقة والحملة الصليبية الثانية :

كان لسقوط الرها سنة ١١٤٤م على يد عماد الدين زنكى أثره الكبير بالنسبة لصليبى الشام فأرسلوا يستنجدون بالغرب الأوربى[(٢)] ، بل إن الأساقفة الأرمن أخبروا البابا بما حدث فى الشرق وطلبوا مساعدته ضد بيزنطة . ودعا البابا إلى حرب صليبية جديدة ، ويكون هدفها استعادة الرها ، ولقى هذا النداء استجابة من أكبر ملكين فى الغرب وهما كنراد الثانى امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وبدأ الاستعداد للحملة التى كان لابد لها أن تجتاز أراضى الدولة البيزنطية[(٣)] .

اختلف موقف بيزنطة من هذه الحملة عن موقفها عن الحملات الأولى ، فالمعروف أن الكسيوس هو الذى استنجد بالفرنج لقتال الترك لاستعادة آسيا الصغرى، أما فى عهد مانويل فإن الامبراطورية البيزنطية استعادت آسيا الصغرى وأصبحت الإمارات اللاتينية حاجزة بينها وبين المسلمين ، واعترف ريموند[(٤)] أمير أنطاكية بالتبعية، فلم يكن لهذه الحملة أهمية بالنسبة لبيزنطة ، بل إنها سوف تجلب لها متاعب نجمت عن تصرفات الصليبيين ، ولاسيما أن ريموند أمير أنطاكية كان من الداعين للحملة[(٥)]،

---

(١) Ostrogrosky : of . cit . P. 337 .

(٢) Runciman : of . cit . Vol II. P. 247 .

(٣) Runciman : of . cit . II. P. 247 , Grousset of . cit . II. P. 230 - 232 .

(٤) Berry : The Zecond . Crusades P. 470 .

(٥) كان ريموند قد توجه إلى القسطنطينية وأقسم للامبراطور يمين الولاء سنة ١١٤٤ واتفق معه على مهاجمة حلب سنة ١١٤٥ .

إذ يمت بصلة القرابة لملك فرنسا أحـد قادة الحملة ، وزاد الأمر سوءا علاقة الامبراطور بالسلاجقة ، واتفاقه معهـم ، مما أثار النفوس بين بيزنطة والصليبيين .

حدث بعـد وفاة السلطـان غازى الـدانشمند أن وقع النـزاع بين أبنائه الثـلاثة ، واستغل سلطـان قونيـة مسعود الفرصـة لبسط نفوذه على الأنـاضول والتـوسع فى أرض الدانشمند ، فلـم يسعهـم إلا التحـالف مع بيزنطة سنة ١١٤٣م ، وعنـدئذ تقدم مسعود سنة ١١٤٥م فاستولى على أملاك الدانشمنديين فى أيزوريا ، وتوسع فى وادى نهر ايزوريا، بينما حاصر الامبراطـور البيزنطى قونية ، وفى أثنـاء الحصار بلغته أنباء الحملـة الصليبية الثانية ، وتعرض أملاكه لهجوم روجر ملك صقلية فتحتم عليه رفع الحصار ، وإذ ارتاب مانويل فى نوايا الصليبيين عقد اتفاقية مع السلاجقة ، حين أرسل إليه السلطان مسعود سفارة(١) .

ولقد ارتاع(٢) الامبراطـور البيزنطى مـانـويل لما ذاع من أنباء اشتراك الامبراطـور كنراد فى الحرب الصليبيـة ، وأراد أن يخرج من نطاق المحـالفة التى انعقـدت بينهما ضد روجر ملك صقلية ، نظرا لأنه ليس بوسعه فـرض سلطانه على ما يستولى عليه كنراد من الأراضى التى بحوزة المسلمين ، وأثناء اجتياز كنراد أراضـى الامبراطورية أرسل مانويل مندوبين فى سفارة إليه ، يسعيان للوقـوف على نوايا الامبراطور الألمانى ، وأشارا بأنه لن يسمح لـلألمان بـاجتيـاز الأراضى البيـزنطية مـالم يتعهـدوا بعـدم إلحاق الأذى والضرر بمصالح الامبراطور البيـزنطى ، فتعهد كنراد بذلك ، ووعد الامبراطـور البيزنطى بتوفير المؤن(٣) ، ولكن نـوايا البيـزنطيين لم تكن خـالصـة ، فلم يقدمـوا مـا فيـه الكفايـة من المساعدة والمرشدين ولم يشتركوا فى مهاجمة السـلاجقة ، وبذلك حالوا دون القضاء على تلك العقبة التى ظلت تعترض الطريق البرى للجيوش الصليبية الوافدة من الغرب(٤).

عبر كنـراد الثالـث البسفور إلى آسيـا الصغـرى ، ولم يتخذ الطـريق الـذى نصح البيزنطيون به وهو طـريق الساحل الغربى إلى أيطاليا ، والذى يخضع لسلطـان بيزنطة ،

---

(١) Runciman : of . cit . vol II. P. 264 .

(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٣٣ .

(٣) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٢٢ .

(٤) Grousset : of . cit . II. P. 222.

Berry, of . cit P. 488 .

واختار كنراد أن يشق طريقه فى جوف البلاد مخترقا أراضى السلاجقة ، ودب النزاع بين الألمان ودليلهم البيزنطى ، فتركهم الدليل وتخلى عنهم مما عرّض الصليبيين لأسوأ النتائج ، ودارت بالقرب من دوريليوم معركة بين الترك والصليبيين سنة ١١٤٧م وهلك فيها معظم الجيش الصليبى[١] ، ووصلت تلك الأنباء إلى الملك لويس السابع الذى كان قد قدم ووصل أمام أسوار القسطنطينية فى سنة ١١٤٧ وصدم بأنباء الصلح المنفرد الذى عقده الامبراطور مع سلاجقة قونية وطلب منه مانويل كالعادة ألا يستولى لويس على بلد أو حصن بمملكة مانويل ، وأن يرد له ما ينتزعه من البلاد من أيدى المسلمين ، وأمر بوقف إمدادهم بالمؤن إلا إذا أقسموا له يمين التبعية[٢] .

وسلك الامبراطور الطريق الجنوبى المحاذى لساحل بحر إيجه بعيدا عن السلاجقة، واتجه لويس ومعه كنراد إلى أزمير ثم إلى أفسوس ، أرسل مانويل يطلب إليه تجنب قتال الترك الذى احتشدوا للوقوف على الفرنسيين ، التزم الامبراطور بمعاهدته مع المسلمين ، ولم يستجب لويس لنصيحته فتعرّض مع جيوشه لهزيمة ساحقة من قبل الترك السلاجقة سنة ١١٤٨م واتجه إلى أنطاكية ، وقرر لويس السابع اتخاذ طريق البحر إلى السويدية وأنطاكية[٣] ، ولقد ظهرت صعوبة أخرى ، إذ أظهر البيزنطيون عداءهم مرة أخرى ، فامتنعوا عن تقديم السفن اللازمة للصليبيين ، بل إنهم سعوا لإثارة المتاعب والعقبات فى وجه الصليبيين ، مما أثار الغرب الأوربى ضد الأباطرة البيزنطيين، بل إن الامبراطور عمد إلى معاقبة أهل أضاليا بعد أن أمدوا الصليبيين بالمؤن[٤] ولما كانت السفن التى اجتمعت لنقل الصليبيين [illegible] كافية ، ركب لويس السابع وحاشيته فى سنة ١١٤٨ ما أعده من السفن ، أما بقية الحملة فقد ظل رجالها فى أنطاكية يقاسون الأمرّين من سؤ معاملة البيزنطيين وهجمات السلاجقة ، حتى تم نقلهم على دفعات إلى الشام[٥] .

---

(١)عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢٥ .
(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٥٦ .
(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٢٧ .
(٤) Camb . Med. Hist. IV. P. 307.
(٥) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٦٠ .

ولم تحقق الحملة الثانية ما هو مرجو منها ، فبدلا من تحطيم قوة نور الدين بعد استيلائه على الرها ، وتأمين الطريق من أنطاكية إلى طرابلس وإلى بيت المقدس إذ تتوجه الحملة بناء على رغبة ملك بيت المقدس إلى دمشق وإلى معين الدين أنر ، وذلك لحماية مملكة بيت المقدس من الغارات التى يشنها المسلمون ، وتحقيقا لأطماعهم التوسعية(١) ، ولم يشترك فى الحملة أمراء أنطاكية وطرابلس على أن الحملة برغم ضخامتها لم تنجح فى الاستيلاء على دمشق لما وقع من النزاع بين قادتها ، ولمهارة وزير دمشق معين الدين أنر فى الإيقاع بين رجالها ، فضلا عن تحالفه مع نور الدين(٢) .

عاد لويس إلى الغرب حاقدا أشد الحقد على بيزنطة حتى إنه تحالف مع النورمان فى يوليه سنة ١١٤٩م أثناء عودته ، بعد أن هاجم البيزنطيون سفنه واستولوا على بعضها ومضت أشهر قبل أن يوافق الامبراطور على إعادة الرجال والبضائع لفرنسا .

ما أحل بالحملة الصليبية الثانية من كوارث(٣) أثناء اجتياز آسيا الصغرى ، أساء إلى العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين وأخذ كل فريق يكيل التهم للآخر ، فاتهم البيزنطيون بأنهم لم يقدموا إلا مقادير قليلة من المؤن مقابل مبالغ ضخمة ، ولم يوفروا السفن اللازمة لنقل الجنود ، ولم يقدموا الأدلاء اللازمين فضلا عن تحالفهم مع الترك ضد الصليبيين ، بل إن لويس السابع والقديس بونارد قررا الدعوة لحملة صليبية لمناوأة بيزنطة ، وما جرى من توجيهه التهم للصليبيين انصب على ما لجأ إليه الجند من نهب البلاد وتخريبها واعتداء الجرمان على الأملاك البيزنطية بأوربا والبلقان(٤) .

أفاد الجانب الإسلامى من فشل الحملة الصليبية الثانية إذ تحطمت أسطورة الصليبيين ، ولم يعد من العسير على القوى الإسلامية أن تنهض لقتال الفرنج ، ولا سيما بعد أن وضع عماد الدين زنكى سياسة ترمى إلى توحيد الجبهة الإسلامية ، وأثارة حركة الجهاد الدينى ، يضاف إلى ذلك اشتداد خطر المسلمين على سائر الإمارات الصليبية

---

(١) Grousset : of . cit . II . P. 243.

(٢) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٦٧ .

(٣) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٥٧٢ .

(٤) Runciman : of . cit . II. P. 286 . 287 .

فى الشام بعد اتحاد الموصل وحلب ، وما جرى من المنازعات فى داخل الإمارات الصليبية وخارجها ، كل ذلك جعل الصليبيين يتطلعون إلى بيزنطة لحمايتهم[١] .

انتهج نور الدين الوسائل السلمية لبسط سيادته على الأمراء المسلمين المجاورين، فى آسيا الصغرى والشام ، من ذلك ما حدث من المصاهرة بين نور الدين وأمراء السلاجقة فى آسيا الصغرى ، وترتب على ذلك اقتسام نور الدين والسلاجقة ما تبقّى من أملاك الرها ، وما كان من المعاهدة بينه وبين أنر وزير دمشق ، والإفادة من المنازعات الناشبة بين الصليبيين .

النزاع حول أنطاكية :

اثار خلاف بين البيزنطيين والصليبيين حول أنطاكية ذلك أن كونستانس أرملة ريموند طلبت من الامبراطور البيزنطى أن يلتمس لها زوجا ، غير أنها لم تأنس لأحد ممن رشحهم الامبراطور[٢] وتزوجت آخر الأمر من ريجنالد ذى شايتون ، الذى اشتهر بالمغامرة ، وإنكار حقوق البيزنطيين ، والحرص على تحقيق مطامعه الشخصية ، وحاول بلدوين الثالث ملك بيت المقدس التقرب من البيزنطيين للحفاظ على أملاكه ، وتزوج تيودورا ابنة أخ الامبراطور[٣] ، وقاد الامبراطور جيشه تجاه قليقية ، ليسترد حقوقه فى أنطاكية ولتأديب ثورس لتحالفه مع أرناط (ريجنالد) لمواجهة سلاجقة الروم والدولة البيزنطية ، فى الوقت اتخذ الامبراطور من سلاجقة الروم حاجزا يحول دون تزايد نفوذ الأمير الأردنى .

ولما علم أرناط (ريجنالد) بالأمر ، طلب مساعدة بلدوين للتوسط عندالامبراطور ولكن بلدوين رفض هذه الوساطة ، ولم يجد أرناط بدًّا من التوجه إلى الامبراطور . وتذكر المراجع أن أرناط دخل على الامبراطور عارى الرأس حافى القدمين فعفى عنه الامبراطور وعقد معه اتفاقا بشرط اعترافه بسيادة الامبراطور البيزنطى على

---

(١) Grousset : op . cit . II . P. 288 .

(٢) Vasiliev : op . cit . P. 81.

(٣) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٣ .

أنطاكية وعـودة البطريك الكاثوليكـى وإمـــداد جيشـه بفرقـة . ثم توجـه بلدويـن إلى الامبراطـور وقضى فى ضيافتـه عشـرة أيـام استطـاع أن يقنـع الامبراطـور بالعفـو عن ثورس[1] ، وعقب هــذا الاتفـاق زار الامبراطـور أنطــاكيـة فى احتفــال مهيب واتفق بلدويـن وريجنـالد والامبراطـــور على توجيـــه حملة لحلب ، بعـــد أن ازداد نفـــوذ نور الـدين عقب استيـلائه على دمشق وشـــيزر وتوحيـد الجبهـة الإسـلاميـة (١١٥٤ - ١١٥٧) .

موقف المسلمين :

نهض نور الـدين لمواجهة العــدو المشـترك من الصليبيين والبيـزنطيين ، ويشـير أبـو شامـة إلى مـا جـرى من المصالحـة بـين ملك الفرنـج وملك الـروم فيقـول : « وتقـــررت بينهما المهادنـة والله يرد بأس كل منهما إلى نحـره ويذيقـه عاقبـة غـدره ، ومكره »[2].

ولم يلبث أن اعتزم مانـويل الزحف على أنطاكية وقصد المعاقل الإسـلامية ، فبادر نور الدين بالتـوجه إلى البلاد الشامية لإثارة الطمأنينة فى نفـوس أهلها . فسارت قوات بيزنطة فى اتجاه حمص وحماه وشيزر ولكن بدلا من أن تسير الحملة فى طريقها الطبيعى إذ بالامبراطور مـانويل يرسل السفارات إلى نور الدين بـدلا من القوات ، وهذا التغيير فى موقف بيـزنطة يرجع لعـوامل عديـدة ، منها ، أن الامبراطور البيـزنطى فى حـاجة مـاسة لمساعدة نور الديـن ضد سلاجقة آسيا[3] ، وكان من سيـاسة مانويل الاحتفـاظ بميزان القـوى فى الشرق حتى يضمن خضـوع الصليبيين له ، طـالما شعـروا بتهديـد المسلمين بزعامة نور الدين ، فإذا تحطمت قوة نور الدين لم يعد الصليبيون يتطلعون إلى مساعدته، ويضاف إلى ذلك ما وقع من مؤامرات فى القسطنطينية وعلى أطراف الامبراطورية بأوربا أما نور الـدين فإنه لم يقبل المفاوضة مع البيـزنطيين إلا لإحساسه بوقـوعه بين عدوين : الصليبيين والبيزنطيين .

---

(١) Runciman : of. cit. vol. I.I. P. 352.

(٢) أبو شامة : الروضتين : ج ١ ص ١٢٣ ، ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٦ .

(٣) Stevenson : of. cit. P. 181.

وترددت الرسل بين الجانبين واتفقا على عقد معاهدة لتبادل الأسرى سنة ١١٥٩ ، ووصلت سفارة بيزنطيـة تحمل هدية إلى دمشق ، وشهد الـرسل البيزنطيون فى دمشق فى ٥مـارس ما جـرى من تـدابير الصلح ، إذ أمر نـور الـدين إطلاق سراح عـدد كبير من الأسرى وكان العدد يتراوح بين ستة آلاف وعشرة آلاف من أشهرهـم برترام حفيد كونت تولوز ومقدم الداوية برتراند بلانكفورت[١] وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدّمى الإفـرنج المقيمين فى حبس نور الدين فأنقـذهم بأسرهم وقابل ملك الـروم هذا الفضل بما يضاهيه[٢] .

عـاد الامبراطـور مـانـويل كـومنين إلى القسطنطينيـة مباشرة ليقـوم سنـة ١١٦٠-١١٦١م بحملـة لقتال سـلاجقة الـروم فى آسيـا الصغرى ، وهى الحملـة التى نزلت فيها الهزيمة بقلج أرسـلان الثانى سلطان السلاجقة[٣] ، مما يوحى بـأن الاتفاقية السابقة بين نور الدين وبين الامبراطـور البيزنطى تضمنت نصا سريا ، يقضى بتحالف الطرفين ضد السلاجقة فى آسيا الصغـرى ، هذا ، وإن كانت المراجع العربية والصليبية لم تشر إطـلاقا إلى مثل هـذا النص . ولم يلبث قلج أرسـلان أن زار بنفسه القسطنطينيـة سنـة ١١٦٢ ، حيث قدم ولاءه لـلامبراطور البيـزنطى وأعلن تبعيته لـه ، وذلك قبل أن ينقضى قرنٌ على موقعـة مانزكرت فـاعتقد رجال البلاط البيـزنطى أن قونية أصبحت فى عهده محمية تابعة لبيزنطة[٤] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٧ - ٣٥٨ - أبو شامة الروضتين ج ١ ص ١٢٣ .

(٢) العرينى : االشرق الأوسط ج ١ ص ٦١٨ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٢٣ ، ابن القلانسى : الذيل ص ٣٥٧.

(٤) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٧٦-٦٧٧ .

(٥) Chalandom : Les comnenes . P. 480.



الفصل الثالث

صلاح الدين والبيزنطيون

١١٧٤ - ١١٨٠م

الدولة البيزنطية والصراع الإسلامى الصليبى حول مصر - تجدد التحالف الصليبى البيزنطى - نور الدين والسلاجقة والبيزنطيون- سقوط الخلافة الفاطمية - الأوضاع فى العالم العربى بعد وفاة نور الدين وبلدوين - بيزنطة والسلاجقة - بيزنطة وصلاح الدين.



الدولة البيزنطية والصراع الإسلامى الصليبى حول مصر :

دخلت العلاقات بين كل من الجانب الإسلامى والبيزنطى فى طور جديد ، إذ أن مركز الثقل انتقل من أنطاكية إلى مصر ، وأصبحت مصر مركزا هاما تتجه إليه أنظار كل من الصليبيين ، والبيزنطيين ، إذ أن ما وقع من أحداث فى السنوات الأولى من عصر أملريك الذى خلف بلدوين الثالث فى حكم بيت المقدس دل على ضعف مصر بعد أن أمست الخلافة الفاطمية تحت سيطرة الوزراء الذين تجاذبتهم الأطماع وسادت بينهم الخلافات ، وجعلتهم يستنجدون [illegible] الخارجية[1] . فضلا عن أنها كشفت أيضا عن أسباب ضعف القوى ال[illegible] مدى الفائدة التى تعود عليهم من محالفة الامبراط[illegible] خطته على إعادة الوفاق مع روما ومد سلطا[illegible] والجنوب ، ويعتبر مانويل أكثر الأباطرة البيز[illegible] ، وفى نفس الوقت سعى أملريك إلى تحسين علا[illegible] علاقة بوهمند أمير أنطاكية بالامبراطور .

وترتب على هذا التقارب بين [illegible] والامبراطور البيزنطى ، أن تقرر تعيين بطريرك يونانى فى أنطاكية ظل يمارس واجباته [illegible] سنة ١١٧٠ . وأفاد بوهمند من بيزنطة ، فى القضاء على كل مقاومة يتعرض لها من رعاياه[1] ، ولتوطيد أواصر الصداقة أرسل وليم الصورى إلى القسطنطينية لاختيار عروس بيزنطية لأملريك سنة ١١٦٥ عقب انفصاله عن زوجته أجنس ، وفعلا وصلت إلى صور الأميرة ابنة أخ الامبراطور مانويل ، بعد انتهاء الحملة الصليبية على مصر وكان برفقتها ألكسندر كونت ، وميخائيل أوترانتو ، مبعوثين من قبل الامبراطور مانويل كومنين من القسطنطينية[2] فجرى استقبالها بحفاوة زائدة واشترك فيها كل من كان حاضرا عند الملك . وشرح المبعوثان أسباب قدومها ، وقدّما للملك رسالة من الامبراطور بهذا الشأن[3].

---

(١) Willian of Tyre : of. cit . Vol . I.I. P. 503-504.

(٢) Grousset : of . cit. II . P. 508.

(٣) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 348

ومما جاء بهذه الرسالة « إنه نظرًا لما أدركه الامبراطور من أهمية مملكة مصر ، التى ظلت حتى وقتذاك منيعة الجانب ، بالغة الثراء ، غير أنها لم تلبث أن وقعت فى أيدى فئة ضعيفة مستكينة ، أحس الأقوام المجاورون ما كان من ضعف وعجز حكامها وأمرائها ولما كان من المستحيل أن تظل هذه البلاد (مصر) على هذه الحالة الراهنة ، فلابد أن يقع فى أيدى الأمم المجاورة حكومتها وممتلكاتها ، فإن الامبراطور يعتقد أن بوسعه أن يخضع فى سهولة ويسر هذه البلاد لسلطانه بفضل ما يبذله الملك له من مساعدة »(1) .

ويقول البعض : ولهذا القول وزنه ، إذ أن ملك بيت المقدس هو أول من بادر بعرض هذا الأمر على الامبراطور ، بأن أوفد إليه الرسل والرسائل التى يحثه فيها على أن يبذل له المساعدة بالجند والأسطول والأموال اللازمة ، على أن يحصل الامبراطور مقابل ذلك على شطر من تلك المملكة (مصر) وما قد يقع من غنائم(2) ، وكان يهدف إلى أن تستولى القوات المتحالفة على الدلتا وأن تتظاهر القوات البيزنطية البحرية أمام أنطاكية والإسكندرية حتى يلتزم نور الدين خطة الحياد ولا يتدخل فى شئون مصر(3) .

هذه كانت طبيعة المسألة التى جاء من أجلها الرسولان إلى الملك ، ولما لم يتم الاتفاق نهائيا على شروط المعاهدة بين الجانبين ، أرسل الملك وليم الصورى مع وفد القسطنطينية العائد إليها ، ويشير وليم الصورى إلى أن الرسل ، وهو معهم ، قد التقوا بالامبراطور : « واستقبلنا الامبراطور بكل حفاوة ، فعاملنا بما اشتهر به من اللطف والكرم ، وعرضنا عليه الباعث على رحلتنا وسفارتنا ، وشرحنا له بالتفصيل محتويات المعاهدة ، واستمع بارتياح إلى شرحنا وتقديرنا وأقر كل شىء »(4). وبعد أن أقسم الطرفان على ما جاء بالمعاهدة ، صدّق الامبراطور بما له من سلطة على التفاصيل وفقا للترتيب الذى وضعه المندوبون ، وأقر المعاهدة « التى بمقتضاها يقتسم الامبراطور

---

(1) Runciman : of . cit .Vol. II. I.P. 508.

(2) Grousset: of . cit . Vol . I.I. P. 509.

(3) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 348.

(4) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 349.

والملك فتوحاتها فى مصر »[1]- وحصل بذلك الامبراطور على رسائل تزيد فى قوة نص المعاهـدة فى شكلها الأخير ، ثـم انصرفنا بعد أن أنعـم علينا بالهدايـا طبقا لما تقـرر من العادات والتقـاليد « وبـذا انتهت مهمتهم ، وشرعوا فى العـودة إلى بيت المقدس فى أول أكتوبر ١١٦٧[2] .

بمقتضى هـذا الاتفـاق كان على الجيشين البيـزنطى والصليبى أن يخرجـا بقيـادة أملريك لفتح مصر فى السنة التالية ، واتفقا على أن تكون القيادة لملك بيت المقدس وأن يطيعه القائد البيزنطى فى كـل ما يأمره به[3] ، ولكن حدث قبل أن يـرجع وليم الصورى حاملا شروط الاتفاق أن ارتحل أملريك إلى مصر لفتحها ، بحجة أن فرسانه أجبروه على المضى لفتحها ، ويشير ابن الأثير لذلك الخلاف بقوله: « ولقد شاور ملك الفرنج ذوى الرأى منهم فكـان منهم من أشار بقصـدها وملكها وقـال لهم : إنا لا نقصـدها ، فإنها طعمـة لنا وأمـوالها تساق إلينـا ، فنستقـوى بها على نور الـدين ، وإن نحن قصـدناهـا لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة بـلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا ، ويقاتلوننا ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، فلم يصغوا إلى قوله ، وقالوا : إن مصر لا مانع لها ولا حـافظ ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ، ويجهز العسـاكر ، يسير بهم إلينا نكون نحن قد ملكناها ، وفرغنا من أمـرها وحينئذ يتمنى نور الدين مِنَّا السلام فلا يقدر عليها »[4] ، وكانت الداويـة تمثل جانب المعارضة فى تلـك الحملة ، إذ رفضوا أن يشتركوا فى حرب مع مصر ، التى ارتبطـوا معها بالصداقـة ، وبرروا ذلك بأنها قد أوفت بشروط المعـاهـدة التى كـانت تنص على دفـع مـائة ألف دينـار وإبقـاء بعض قـواتِهم بالقاهرة[5] ، وكان الدافع الحقيقى لمعارضتهم ، ارتباطهم بعلاقات تجارية مع المسلمين والتجـار الإيطاليين ، بينما أصر الاسبتـارية ومقـدمهم جليبرت ومعظم البارونـات على

(١) Willian of Tyre : of . cit . Vol . I.I. P. 349.

(٢) Runciman : of . cit . Vol . I.I. P. 379 .

(٣) Grousset : of . cit . Tom. I.I. P. 511.

(٤) ابن الأثير : الباهر ص ١٣٧ ، الكامل ج ١١ ص ٢٢١ .
Gibbon (E.): Decline and fall of the roman Empire Vol. VI. P. 386 .
نشير إلى حملة ١١٦٧ التى استنجد فيهـا الخليفة العاضد بنور الدين واستنجـد شاور بالصليبيين ونتصر شيركـوه فى معركـة البابين وحـوصر صـلاح الدين فى الإسكـندريـة وفى يونيـه ١١٦٧ تم الاتفاق على الجلاء وترك مصر لشاور على أن يبقى للفرنج شحنة بمصر ويدفع مائة ألف دينار.

(٥) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٤٣ .

الحرب ، للاستيلاء على مصر ، والاستفادة من خيراتها ، فتجهز أملريك للسفر وتذرع بامتناع شاور عن دفع الجزية ، فاستولى الصليبيون على بلبيس ونهبوها ، ووصل أسطول بحرى وهاجم تنيس واستمرت المذابح خمسة أيام ثم اتجهوا إلى القاهرة ، وظهروا أمام الفسطاط ، وأدرك شاور أنه لا يستطيع الدفاع عن القاهرة والفسطاط ، فأمر أهلها بالجلاء عنها ، وأشعل بها الحرائق التى استمرت ما يقرب من أربعة وخمسين يوما ، وهدد بأنه سوف يضرم النار فى القاهرة نفسها ، وسعى إلى التفاوض مع الفرنج إذ أنه لم يرغب فى تدخل نور الدين ، فعرض على الصليبيين مليون دينار مصرية فقبلوا ذلك العرض(١)، وكان الباعث لهم على القبول خوفهم من نور الدين .

لم يسع الكامل ابن شاور إلا الاستنجاد بنور الدين والاستعانة به ، فعرض عليه ثلث خراج البلاد وأن تكون إقطاعات العسكر خارجة عن الخراج(٢) ، فلم يكن ابن شاور راضيا عن تصرف أبيه ، كما أرسل الخليفة العاضد عقب الحريق إلى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج ، فقرر نور الدين إرسال أسد الدين شيركوه إلى مصر وحثه نور الدين على ذلك لتخوّفه أن يمكلها الفرنج ويصبحوا مصدر تهديد له فى بلاد الشام ، فقال صلاح الدين : لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها ، فقد قاسيت بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه »(٣) وحذر شاور أملريك من جيوش نور الدين ، فغادر أملريك القاهرة إلى بلبيس حيث طارده جيش شيركوه ووصل إلى القاهرة ولم يجد أملريك بدا من الانسحاب(٤) واستقبل شيركوه استقبالا حافلا ، ولكن شاور الذى توجس خيفةً أخذ يماطل فيما وعد به العاضد من أموال وإقطاعات وسعى إلى التآمر عليه ، ولكن صلاح الدين تخلص من شاور وأيده الخليفة العاضد فى ذلك ، وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة فى يناير سنة ١١٦٩ ، وأصبح صلاح الدين يباشر أمور الدولة ، وعندما توفى شيركوه فى مارس سنة ١١٦٩ تولى الوزارة بعده

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٥٤ .

(٢) William of Tyre : of . cit . Vol . I.I.P . 357, 358 .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٥٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٢٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٣-٢٢٤ .

صلاح الدين بناء على رغبة الخليفة العاضد الذى أخذ بنصيحة مستشاريه الذين رأوا أنه ليس فى الجماعة أضعف ولا أصغر سنا من يوسف[1] .

تجدد التحالف الصليبى البيزنطى :

شعر الصليبيون بالخطر الذى يتهددهم من سيطرة نور الدين على مصر وأدرك ذلك أملريك بعد انسحابه من مصر ، واستقرار صلاح الدين بها ، وترتب على ذلك حرمان الفرنج من موارد الثروة الضخمة التى كانوا يحصلون عليها من التجارة مع مصر، إلى جانب أنه قد أصبح بوسع نور الدين بفصل أسطوله الضخم الذى يرابط فى مصر ، وأن يضيق الخناق على مملكة بيت المقدس ، ويفرض الحصار على المدن الساحلية برا وبحرا ، بجيوشه فى الشمال والجنوب ، فضلا عن اعتراض طريق الحجاج القادمين إلى الأراضى المقدسة ، أو منعهم من المرور نهائيا . وأثار هذا الأمر اهتمام وليم الصورى فقد كان على الفرنج أن يواجهوا أحوالا شديدة الاضطراب ، وبالغة القلق ، فما توافر بمصر من الموارد ، والثروة الضخمة كان كفيلا بسدّ حاجاتهم ، وكانت حدودهم من تلك الناحية من المملكة مأمونةالجانب ، فلم يكن بالجنوب من الأعداء من يخيفهم ، وهيأ البحر من الأمن والسلام والهدوء ، ما يمنع من يحاول القدوم إليهم ، وكان بوسع أقوامنا أن ينفذوا إلى الأراضى المصرية دون خوف أو وجل ، فهيأت لهم الأحوال لممارسة التجارة والصناعة بها . وجلب المصريون إلى المملكة من المتاجر الأجنبية ، والسلع الغريبة ما لم يكن معروفا لهم حتى وقتذاك ، وكلما قدموا إليها وكان ذلك ربحا عظيما ، يضاف إلى ذلك أن ما أنفقه المصريون من الأموال الوافرة بينهم كل سنة ، زاد فى حال البلاد وخزائنها فضلا عن ازدياد ثروة الأفراد[2] .

غير أن كل شيء لم يلبث أن تغير إلى أسوأ ، فكيف جرى هذا التغيير ، يشير وليم الصورى إلى ذلك فيقول : « فأينما وجهت نظرى ، لم أجد إلا دواعى الخوف والقلق ، فلم يعد البحر من الهدوء والاطمئنان ، ما يكفل السلامة والأمن ، لمن يقصدنا ، وكل ما يحيط بنا من البلاد ، صار خاضعا لعدونا ، وأخذت الممالك المجاورة تتجهز لتدميرنا والقضاء علينا ، ولم يجلب هذه الكوارث لنا إلا رجل نهم شره ، فما اشتهر به من النّهم ،

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) William of Tyre : op cit vol II . p . 357, 358 .

الذى يعتبر أصل الشرور ، أفسد ما نعمنا به من الهدوء والصفاء[1] ، وأخذ كل فريق من الفرنـج يُلْقِى المسئوليـة على الآخر »[2] ،وسعى الصليبيـون إلى العمل على إثـارة حملـة صليبية جديدة وكان أملريك قد أرسل سفارة برئاسة رئيس أساقفة قيسارية فى مستهل سنة ١١٦٩ برسالـة للامبراطور فردريك بربروسه ، ولويس السـابع ملك فرنسا وهنرى الثـانى ملك أنجلترا ، ووليم الثانى ملك صقليـة[3] ، وغيرهـم ، ولكنهـا عـادت بعـد يومين من سفرها بسبب العواصف ، فأرسل سفارة ثـانية يرأسها فردريك رئيس أساقفة صـور وصلت روما سنـة ١١٦٩م فأرسل معهم البـابا رسـالة لإقنـاعه ، ولم تحقق هـذه السفارة الغرض المنشود[4] .

قرر الصليبيون الاتجاه إلى القسطنطينيـة وكانت مساعيهم هناك أكثـر نجاحا ، إذ سعى الامبراطور مـانويل إلى تنفيذ المعـاهدة التى سبق أن عقدهـا مع وليم الصورى ، فقـدم أسطولـه ليعاون أملـريك فى فتح مصر[5] ، وكان الأسطـول بقيادة أنـدرونيكس وتألف من ٢٢٠ سفينة[6] ووصف المؤرخون الأوربيون هذه القـوة بأنها كانت « أرمادا » وكفلت للصليبيين التفوق البحـرى ، ولكن البيزنطيين اكتفوا بإعـداد مؤنة ثلاثـة أشهر اعتقادا منهم أن الحملة لن يطول أمدها ، وسار جزء من هذا الأسطول إلى قبرص حيث وقعت فى أسره سفينتـان مصريتان ، بينما سـار الجانب الأكبر إلى عكـا ، ونزل جـزء من الجيش ليصحب الجيش الصليبى فى المسير إلى مصر وتـأخـرت الحملـة مـا يقـرب من شهرين ، لتخوف أملـريك من نوايا البيزنطيين ، ولحرصه على عدم المغـامرة بحملة على مصر ، إلا بعد أن يـؤمن فلسطين من غارات نور الـدين فأبقى قوة من الفرسـان لحماية المملكة أثناء غيـابه لا سيما بعد أن تبينّ له ما يقـوم به نور الدين من الاستعـداد للإغارة

---

(١) William of Tyre : op cit . Vol II . P. 357, 358 .

(٢) العريـى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٧٠٧ .

(٣) أبو شـامة : الروضتين ج ١ ص ١٨١ ، ابن واصل : مفـرج الكروب ج١ ص ١٨١ وتشير المراجع الإسـلامية إلى « أن فـرنج الساحل لما ملك أسـد الـدين مصر قد خـافوا وأيقنـوا بالهلاك فكتبـوا للفرنج الذين بـالأندلس وصقلية يستنجدونهم ويعرفونهم مـا تجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على بيت المقـدس وأرسلوا جماعة مـن القسوس والرهبـان يحرضون النـاس على الحركة فأمـدوهـم بالمال والرجال .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٨١ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص ١٨١ .

(٥) Runciman : of cit . II . P . 384 .

(٦) Setton of . cit . II . P . 556 - 557 .

على الأطراف المتاخمة لدمشق(١) ، وفى منتصف سنــة ١١٦٩ تحرك الجيش الصليبى البيزنطى من عسقلان ، بينما وصلت القوات البيزنطية والصليبية إلى الفرما ١١٦٩ وكان الأسطول البيزنطى قد وصل إلى الفرما قبل قدوم قوات الصليبيين ، واجتاز الجيش الفرع البلوزى على سفن بيزنطية ، حتى وصلوا إلى تنيس ، ومنها ساروا إلى دمياط(٢) ، وكان صلاح الدين يعتقد أنهم سيهاجمون بلبيس فشحنها بالعساكر وعزّز حاميات القاهرة والإسكندرية . على حين أن الصليبيين والبيزنطيين حرصوا على أن يمنعوا الاتحاد بين مصر والشام ، فقدموا بقوات ضخمة ، وأعدوا الاحتلال البلاد خطة مدروسة ، بأن عزموا على أن يجعلوا من دمياط قاعدة بحرية(٣) .

أرسل صلاح الدين إلى دمياط خاله شهاب الدين محمود وابن أخيه تقى الدين عمر فدخلاها قبل حصار الصليبيين(٤) ، وأرسل إلى نور الدين يشكو إليه ما هو فيه من مخاوف وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الفرنج فضلا عن تخوفه من المصريين وخروجهم عن طاعته ، ولاسيما بعد أن دار من مفاوضات سرية بين أملريك ورجال الجيش الفاطمى(٥) . فجهز إليه نور الدين عساكر ، وكلما تجهزت طائفة أرسلها إليه ، طائفة تلو طائفة ، وأغار هو على البلاد الصليبية ولم يتلقّ الأسطول البيزنطى أى معونة من الصليبيين(٦) .

حاصر الصليبيون دمياط فى المنطقة الواقعة بين المدينة والبحر وانتظروا وصول الأسطول البيزنطى الذى تأخر بسبب الريح ثم ظهر بعد ثلاثة أيام ولكن منع رسوه سلسلة من الحديد أغلقت الميناء ، فارتاب الصليبيون فى نوايا البيزنطيين ، واعتقدوا أنهم يحرصون على الانفراد . بمصر ، وتراءى فشل الحملة ، بعد أن نفذت المؤن ، واشتد هطول المطر ، وهبوب العواصف ، وصبر المسلمون على مقاومة الحصار نحو خمسين يوما ، يضاف إلى ذلك ما وقع من الخلاف بين أملريك وقائد القوات البيزنطية ، وأدى

---

(١) Runciman : of . cit . II . .P. 385 .

(٢) William of Tyre : op . cit . Vol II. P. 562-563 .

(٣) Wiet (G.) L'Egypte Arabe . P. 301 .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص١٨٠ ، ابن واصل مفرج الكروب ج ١ ص ١٨١ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٤٣ .

(٦) Lane - Poole (S.) : Saladin . P. 103 .

إلى عـدم تنسيق الأعمال فى البر والنهـر .ولقـد قاسى البيـزنطيـون من قسـوة الجوع ولم يستطع الصليبيـون على الشاطـىء أن يمدوا لهم يَـدا[١] ، ممـــا أدى إلى يأس الصليبيين والبيزنطيين ، ولا سيما بعـد أن فشلوا فى إجراء مفـاوضات مع صلاح الـدين ، وبعد أن تعرضت الممتلكات الصليبية بالشام لهجمات نور الدين ، فلم يسع القوتان المتحالفتان إلا الانسحاب فى ديسمبر سنة ١١٦٩[٢] . بعد أن أحرقـوا أدواتهم الحربية الثقيلة حتى لا تقع فى يد صلاح الدين ، ثم غادروا دمياط إلى عسقلان بينما أبحرت السفن البيزنطية صوب الشمال ، غير أن هبت عاصفة شديدة اعترضت طريقهم فتحطمت سفن كثيرة، ولقى عدد كبير من العساكر والبحارة البيزنطيين مصرعهم[٣] .

وهكذا فشل التحالـف البيزنطى الصليبى وأخذ كل من الفريقين يُـوجه اللوم إلى الآخر ، ويتهمه بالتأخر فى المسير ، والقصـور فى توفير المؤن للحملة ، ويقال: إن جماعة من المصريين حملـوا إلى الامبراطور البيزنطى الهدايـا وشروط الصلح ، حتى ينفـرط عقد التحالف البيزنطى الصليبى[٤] .

نور الدين والسلاجقة والبيزنطيون :

على أن الأوضـاع السياسيـة فى العالم الإسـلامى وفى الإمـارات الصليبية والقـوى المسيحية فى آسيا الصغرى وبيزنطة والغرب ، كان لها بالغ الأهمية فى توجيه الدبلوماسية الإسلاميـة ، والمسيحية ، بعـد ارتداد الصليبيين والبيـزنطيين عن دميـاط سنة ١١٦٩ ، واستيلاء نور الدين على الموصل سنة ١١٧١ .

كـان نور الـدين حريصـا على إذكـاء روح الجهاد عنـد الأمراء المسلمين فى آسيـا الصغرى ، ومن الدليـل على ذلك ما حدث من نهوضه سنـة ١١٧٣ لقتال قلج أرسلان سلطان قونية ، كما يلـزمه بإمداده بما يحتاج إليه من القوات عنـد قتال الفرنج ، نظرا لأن

---

(١) Lane-Poole : op . cit . P. 105 .

(٢) Runciman : op . cit Vol . II . P. 387 .

(٣) William of Tyre op . cit . Vol II P. 320 .

Runciman : op . cit . vol II . P. 340 .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٦٨ .

حبشى : نور الدين والصليبيون ص ١٤٠ .

السلطـان السلجـوقى يملك طـرفـا كبيرا من بـلاد الإسـلام ، وتـرك الـروم وجهـادهـم وهادنهم(١) ، فكتب إليـه « إما أن تنجدنـى بعسكـر لأقاتـل بهـم الفرنـج ، وإمـا أن تجاهـد من يجـاورك من الفرنـج »(٢) . وتمت المصاهـرة بين الـزنكيين وأسـرة قلـج أرسلان ، يضاف إلى ذلك أنـه من دواعـى تحالـف الصليبيين مع بيزنطـة ، مـا وقـع من أحـداث فى قليقيـة وأرمينيا الصغرى ، التى تـولى أمرهـا سنـة ١١٦٨ روبين الثانى ، ونازعـه السلطان عمـه مليح الـذى لقى التشجيـع من نـور الـدين ، بأن اعتـبره من أتبـاعه وبـذل له إقطـاعا ، وأمـده بـالعساكـر ، فطـرد من حصـون قليقيـة وأذنـة وطرسوس ، والمصيصة العساكر البيزنطيـة والفرسـان الداوية(٣) ، ويشـير ابن الأثير إلى أن مليـح كان يتقوى بنـور الـدين على من يجـاوره من الأرمـن والروم(٤) ، وسـاق مليـح لنور الدين من مقدّمـى الـروم ثلاثـين أسـيرا فسيرهـم نـور الدين إلى الخليفـة المستضىء(٥) .

حملت هـذه العوامل أملـريك على أن يتـوجه سنـة ١١٧١ إلى القسطنطينية بعـد عقده مؤتمرا للصليبيين فى الشام ، وكـان الهدف من الزيارة حث الامبراطور على ضرورة إخضاع مصر فتجـدد بذلك التحـالف بين الصليبيين والبيزنطيين(٦) وتضمن الاتفـاق بينهما فيما يبـدو اعتراف أملـريك فى صورة غـامضـة بسيـادة الامبراطور مـانـويل على المسيحيين الـوطنيين فى مملكـة بيت المقـدس ولقـد أكد مـؤرخـا الإغـريق كينـا مـوس ونيكتاس التبعية(٧) ، فى حين أن وليم الصـورى الذى أبـدى اهتمامـا بـزيارة أملـريك والشرف الذى أضفى عليـه لم يذكـر أى نوع من الـولاء ، وما كتبـه لا يدل على أن ملك

---

(١)

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٦٠-١٦١ .

ذهب قلج أرسلان بنفسه إلى القسطنطينيـة وقع معاهدة بمقتضاها وافق على أن يقدم مسـاعدته لبيزنطة وأن يقوم بإعادة بعض المدن البيزنطية التى استولى عليها .

(٣) Lane-Poole : of . cit . P. 120 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٥٧ ، الباهر ص ١٦٠ .

(٥) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٥٩ .

(٦) Setton : of . cit. P. 550 -

(٧) Lamonte : Byrantine Empire and crusading states .

بيت المقدس كـان تابعـا ، بل يذكـر أنه حليف قـوى وأن الامبراطور يسعى للتحـالف معه[١].

وعد مـانويل ببذل مسـاعدة بريـة بحرية كما تم الاتفـاق على اتخاذ إجراء مشترك لقتال مليح ورغم ذلك لم يحقـق هذا التحالف نتـائج مثمرة[٢] ، إذ ثبت أن مانـويل لم يقل كفاءة عن أبيـه وجده ، ولم يختلف عنهما فى الحرص على مصـالح بيزنطـه الخاصة ، وفى التماس الوسائل التى تحقق غرضه ولو لم تلائم مصالح الصليبيين[٣] . وكان من أثر ذلك أن حاول أملريك تأديب مليح ، بأن أرسل العساكر إلى قليقية ، غير أن نور الدين أجبره على العدول عن قتال مليح ، بأن هاجم الكرك[٤] .

أمـا مشروع الحملة المشتركـة على مصر ، فلم يتحقق ، فما وقع من الأحـداث وراء حـدود بيزنطـة وبيت المقدس ، أدى إلى إرجـاء سير الحملـة بعد أن سعى أملـريك إلى التماس مساعدةالغرب فى سنة ١١٧٣[٥] ، وإن كان قد أدى التحالف إلى منع أنطاكية من الوقوع فى أيدى المسلمين لعجز السلاجقة بآسيا الصغرى عن الانحياز لنور الدين، ولم يلبث التحالف أن انفض بوفاة أملريك سنة ١١٧٤[٦] .

سقوط الخلافة الفاطمية :

كان من دوافع اتجاه نـور الدين إلى مصر القضـاء على الخلافة الفاطميـة وإدخـال مصر فى المذهب السنى ، وحثه الخليفـةعلى ذلك ، فأرسل نور الدين إلى صـلاح الدين يأمـره بقطع الخطبة للخليفـة الفاطمى ، وإقـامة الخطبـة للخليفة العبـاسى ، فاعتـذر صلاح الدين خوفا من ثورة أهل مصر وامتناعهم عن ذلك لميلهم للعلويين[٧] ، فأرسل إليه يلزمه بـذلك إلزاما. وكان ا لعاضد قد انتـابه المرض ولم يعلم بأمر قطع الخطبة ، ثم مـا لبث أن توفى سنـة ١١٧١ ، وبعد وفـاته انتهت الـدولة الفـاطمية . وأصبح صـلاح الدين يتولى تدبير الأمور فى مصر نائبا عن نور الدين ، على أن العلاقة بين صلاح الدين

---

(١) Lamente : Byzantion 1932 tom vii p. 262 .
(٢) Lamente : of cit Tome VII p 262.
(٣) Runciman : of . cit II. p. 391 .
(٤) Setton : of . cit . I. p. 560 .
(٥) William of Tyre : II. p . 386.
(٦) Setton : of . cit . I. p. 560.
Runciman : of cit . II . p . 393.
(٧) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٣٣٣ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٢٦٣ .

ونـور الـدين أخـذت تـزداد تأزما ، وبـات كل يشـك فى نـوايـا الآخـر . إذ اختلفت وجهـات نظـر كل منهما تجـاه مـصر . فنور الدين يـرى أن الميـدان للجهـاد فى الشـام، أما مصر فيقصر دورها على الإمـداد بالمال والرجال ، على حين أن صلاح الدين رأى أن مصرـ هى الميـدان الحقيقـى ، وكان رأيـه بنـاء عن محاولات الصليبيين للاستيـلاء على مصر ومن حملـة دميـاط وبها وقف عليـه ، فيما يبـدو من المفاوضـات بين أملـريك والامبراطور البيزنطى[1] فأراد أن يستخلص مصرـ لنفسـه ولأسرتـه حتى يستطيـع أن يضطلع بأعبـاء الجهـاد . وطّـن نور الـدين أمـره على قصـد مـصر ، وعـزل صـلاح الدين، ولكنه تـوفى سنة ١١٧٤م قبـل أن تخـرج فكرته إلى حيز التنفيـذ ، فاستتب الأمر لصلاح الدين فى مصر[2].

بدأت فى تلك الفترة تتغير سياسـة بيزنطة تجاه الصليبيين ومصر ، وتجلى تغير هذه السياسة فى المؤامرة التى تعرض لها صلاح الدين فى بداية حكمه فقد راسل الشيعة سنة ١١٧٤م ، الحشيشية والصليبيين وانضم إليهم ملك صقلية ، واتفقـوا على غزو مصر برا وبحرا ، فيتولى الصليبيـون الهجوم من البر ويقوم ملك صقلية بـالإغارة على الشواطىء المصرية ، فى حين يقوم أنصار الفاطميين بإعلان الثورة فى القاهرة ، ولكن صلاح الدين علم بتفـاصيل المؤامرة قبل تنفيـذها وقضـى على جميع أفرادهـا فى مصر فى أبريل سنـة ١١٧٤م[3] وبعـد حوالى شهـرين تـوفى أملريك ولم يحرك الصليبيـون سـاكنا لما حـدث للمتآمرين فى مصر ، وطرحوا هذا الموضوع جـانبا . أما حاكم صقلية فقد وافق على هذه المؤامرة ، وفعلا وصل الأسطول إلى الإسكندرية[4] ، وكان صلاح الدين على علم بأمره ، إذ أرسل الامبراطـور البيزنطى قبل وصـول الأسطول تحذيرا لصـلاح الدين عـن هجوم سيقوم بـه الأسطول الصقلى[5] ، نظـرا لما وقع من الخلاف بين مـا نـويل وملك صقليـة الـذى رفض كل مساعـدة من قبل الامبراطـور البيزنطى وأراد أن يثبت أنـه يستطيع أن

---

(١) Stevenson : of . cit . PP. 106 - 107.
Setton: of cit . I . P . 565 .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٢ .

(٣) Lane- Poole : of . cit . P. 120.
Stevenson : of . cit . P. 203 .

(٤) Setton : of . cit . II. p. 565.

(٥) Runciman : of . cit . II. P. 403.

يحقق من النجاح ما لم يتأتَّ للبيزنطيين إحرازه[1] ، وردد صلاح الدين ما حدث فى رسالته إلى أمراء الشام يشرح ضخامة الأسطول الصقلى ، « فأمرُ ذلك الأسطول كان قد اشتد وروَّع عبد المؤمن فى البلاد المغربية وهدد به فى الجزائر ، فشوهد فى الثغر من وفور عدته وعظيم الهمة وفرط الاستكثار[2] ، ورغم ضخامة الأسطول فقد قاوم أهل الإسكندرية الحصار ببسالة حتى قدم صلاح الدين بجيوشه لمواجهتهم ، وتوالت الإمدادات عليهم . وكان لقدوم صلاح الدين أثر كبير فى رفع الروح المعنوية للشعب المقاتل وانتهى الأمر بهزيمة الأسطول الصقلى ، وفشل الحملة[3] .

ويتضح من حوادث هذه الحملة أن بيزنطة تخلت عن سياستها التقليدية وهى العداء السافر لمصر الذى استمر طوال فترة حكم مانويل كومنين . والواقع أنه برغم أمل بيزنطة فى امتلاك مصر لم تود أن يكون الفضل فى الاستيلاء عليها لصقلية وحاكمها، يضاف إلى ذلك ما حدث من تفكك التحالف اللاتينى البيزنطى[4] .

كان صلاح الدين على علم بأساليب الدبلوماسية ومناوراتها ، ففى رسالته إلى الخليفة العباسى ينوِّه بموقف بيزنطة وقوتها وموقفها من الحملة الصقلية فاعتبرها أكبر قوة مسيحية ذات سلطة على الممالك اللاتينية فى الشرق « فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم أشداء ، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر والجالوت الأكفر وصاحب المملكة التى أكلت على الدهور وشربت ، وقائم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، جرت لنا معه غزوات بحرية ومناقلات ظاهرة وسرية ، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلاح والانتقال من معاداة إلى مهاداة ومن مفاضحة إلى مناصحة حتى إنه أنذر بصاحب صقلية أساطيله التى تردد ذكرها وعساكره التى لم يخفَ أمرها »[5] .

---

(١) رفض حاكم صقلية التحالف مع بيزنطة والزواج من ماريا ابنة الامبراطور .

Runciman : of. cit. vol. II. P. 403.

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٣٤ ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١٠٧ .

(٣) Grousset : of. cit. tome II. P. 617

(٤) Setton : of. cit. vol. II. P. 122.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢٢ ص ٢٤٣ .

الأوضاع فى العالم العربى بعد وفاة نور الدين وبلدوين :

ترتب على وفاة كل من نور الدين وأملريك أن تعرض الشرق الأوسط لوضع جديد ، فإذا نظرنا إلى الجانب الصليبى : خلف أملريك ابنه بلدوين الرابع سنة ١١٧٤ الذى كان فى الثانية عشرة ، وكان أبرص ضعيف البنية وتولى الوصاية ميلون دى بلانسى ، ولكن لم يلبث أن لقى مصرعه ، وعين ريموند كونت طرابلس وصيا على المملكة لمدة ثلاث سنوات . أصبح وليم الصورى رئيس أساقفة ثم تولى الوساطة بين الصليبيين وبيزنطة على أن المملكة تعرضت للشقاق[١] بسبب وجود حزبين تألف أحدهما من البارونات والآخر من القادمين حديثًا من الغرب[٢] .

أما الجانب الإسلامى فيتمثل فيما حدث بعد وفاة نور الدين من منازعات حول ولاية الحكم إذ أن نور الدين ترك طفلا فى الحادية عشرة هو الملك الصالح إسماعيل فتشاحن أمراء نور الدين فى السيطرة على الأمير الطفل وعلى الوصاية على المملكة[٣] وسعى إلى ذلك ابن المقدم وابن الداية ورأى شمس الدين (ابن المقدم) استشارة صلاح الدين بوصفه سيدا على أغنى إمارات المملكة وهى مصر ، فرفض الآخرون هذا الرأى وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا[٤] ، ومع ذلك فقد اعترف صلاح الدين بسلطنة الملك الطفل وذكر اسمه فى الخطبة وضرب السكة باسمه ، واغتنم سيف الدين غازى أتابك الموصل تلك الفرصة واقتطع أجزاء من مملكة نور الدين ، فملك الديار الجزرية ، ورأى صلاح الدين أنه أحق الأمراء بالوصاية على الملك الطفل وخاصة بعد أن عقد ابن المقدم هدنة مع الفرنج ، وأرسل صلاح الدين إليهم يعلن حقه فى الوصاية على ابن نور الدين ، وكاتبه جماعة من الأمراء للقدوم إلى الشام ، كما أرسل صلاح الدين إليهم خطابا يقول فيه : « لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته إلىّ لسلم إليه مصر التى هى أعظم ممالكه وولاياتها ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى »[٥] وكان الصالح وقتذاك فى دمشق، فأرسل إليه ابن الداية سعد الدين كمشتكين لإحضاره إلى حلب . ولم يلبث كمشتكين

---

(١) Grounet : of . cit . tome II. P. 611, 612 .

(٢)

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٦٤ .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٣٦ .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٢٧ .

أن قبض على ابن الداية وتولى الوصاية على الصالح . فأرسل ابن المقدم إلى صلاح الدين يطلب اليه القدوم إلى دمشق فوافق ذلك الطلب هواه ، وتوجه إلى دمشق فى ٢٧ نوفمبر ١١٧٤ حيث استقبله أهلها ورحبوا به على أن صلاح الدين أبقى الخطبة والسكة للصالح وأعلن أنه ما قدم إلا لتربية الصالح إسماعيل ، ثم استولى على حمص واتجه إلى حلب وحاصرها ، فاستنجد أمراؤها بالإسماعيلية والصليبيين وأمير الموصل واستولى صلاح الدين على حمص وحماه فى ديسمبر ١١٧٤ . ثم استولى على بعلبك (١) ، وشعر صلاح الدين بأن تلك المنازعات تهدد الجبهة الإسلامية وتعرض البلاد لخطر الفرنج ، وأن خلفاء نور الدين لن يستطيعوا المضى فى الجهاد بل إنهم سوف يعرقلون جهوده ، ويمنعونه من التفرغ لحركة الجهاد كما أن بقاءه بمصر لن يهيىء له الفرصة لمناوأة الصليبيين (٢) . فأرسل إلى الخليفة فى بغداد يطلب منه تقليدا جامعا بمصر والشام والمغرب واليمن .

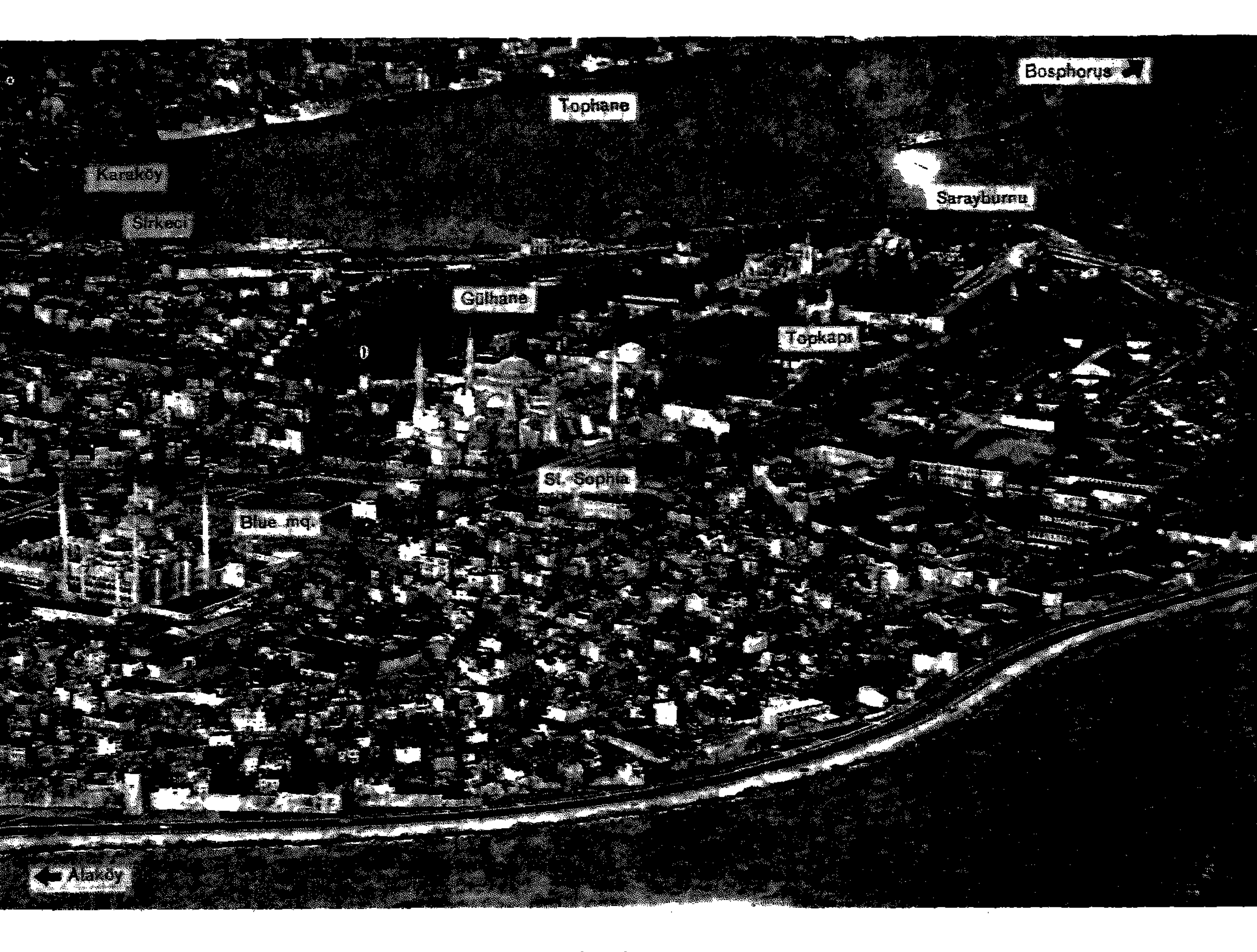
واجتمعت عساكر الموصل وحلب لقتال صلاح الدين . ثم راسلوه فى أمر الصلح على أن يرد جميع ما استولى عليه ويحتفظ بدمشق ويكون نائبا عن الصالح إسماعيل ، فوافق ، ولكنهم غالوا فى مطالبهم فرفضها ، والتقت الجيوش فى قرون حماه سنة ١١٧٥ وانتصر صلاح الدين ثم استولى على حلب وقطع الخطبة والسكة عن الصالح ، واتخذ لقب ملك مصر والشام ، وتم الصلح على أن يحتفظ صلاح الدين بما استولى عليه من البلاد ، واستزاد منهم المعرة وكفر طاب ، على أن يجتمعوا لقتال الصليبيين ، وفى سنة ١١٧٥ قدمت رسل الخليفة بتقليد الولايات التى طلبها صلاح الدين (٣) .

---

(١) Lane-Poole : of . cit . P. 137 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٦٤ أبو شامة ج ١ ص ٢٤٣ .
Setton : of . cit . I. P . 122 .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٤٤ .



القسطنطينية

بيزنطة والسلاجقة :

تعتبر دولة سلاجقة الروم حلقة اتصال بين البيزنطين والأيوبيين ، نظرا لما يربطها بالجانبين من الحدود والمصالح المشتركة ، وإذا كان قلج أرسلان الثانى (١١١٥-١١٩٢م) منعه الخوف من نور الدين من التدخل فى شئون الدانشمنديين ، فإن وفاة نور الدين أتاحت له الفرصة للتدخل وهو آمن فى أمور الدانشمنديين والاعتداء على ممتلكات بيزنطة ، وشجع قلج أرسلان على ذلك عدة أمور منها : انصراف الامبراطور البيزنطى مانويل إلى الاهتمام بالأمور السياسة فى أوربا ، ومنها النزاع مع الامبراطور فردريك بربروسة ، والعلاقات مع المجرود الماشيا ومحاولة الامبراطور البيزنطى التقرب من البابا إسكندر الثالث عن طريق إقامة علاقات طيبة إذ كتب إليه يقول : « إن الوقت قد حان لإرسال حملة صليبية جديدة لتأمين طريق آسيا الصغرى إلى الأراضى المقدسة »[١] . هذا بالرغم من عدم الثقة فى نوايا بيزنطة وسياستها فى الغرب وتبادل اللاتين والبيزنطيين هذه الكراهية[٢].

ازدادت أوضاع مانويل وموقف بيزنطة سوءا نظرا لمعارضة ملك صقلية للسياسة البيزنطية التى ترمى إلى أن تظفر بيزنطة بمكانة فى إيطاليا . والتمس مانويل كل الوسائل لتحقيق هذا الغرض ، فحاول أن يزوج ابنته مارى من وليم الثانى (ملك صقلية) ، غير أن فردريك بربروسه أحبط هذا المشروع ، وما نشب من الصراع بين مانويل والبندقية ، وما ترتب على ذلك من انقطاع العلاقات الدبلوماسية والقبض على البنادقة فى الأملاك البيزنطية ، ومصادرة متاجرهم ، حمل البندقية على أن تتحالف مع وليم الثانى ملك صقلية وأن تثير الصعاب فى وجه مانويل[٣] ، واستطاع مانويل أن يفرض سلطانه على بلاد المجر التى حكمها ملك موال له ودانت لبيزنطة دالماشيا[٤] ، وعمد فردريك بربروسه مرة أخرى ، إلى إثارة المتاعب فى وجهه بأن شجع سلطان قونية قلج أرسلان على الثورة على بيزنطة ، فحرض قلج أرسلان سنة ١١٧٥ على التوسع فى آسيا الصغرى بينما قام مانويل فى عام ١١٧٦ بإعداد حملتين إحداهما قادها بنفسه والأخرى عهد بقيادتها إلى أحد أقربائه وهو Andronicus Vatatscs وكان الهدف من جيش أندرو نيقوس هو إعادة ذنون السلجوقى إلى ممتلكاته . ولما سمع قلج أرسلان

---

(١) Runciman : of . cit . vol . II. P. 474

(٢) انظر ما ذكره المؤرخ اليونانى . Nictetas Choniatcs : ostrogorsky of . cit P. 346 .

(٣) Camb. Med . Hist. vol. IV. p 370, 371 .

(٤) Camb. Med . Hist. IV. P. 346 .

بذلك ، طلب السلام والتفاوض[١] ، ولكن مانويل رفض الاستجابة له ، على أن حملة أندرونيقوس تعرضت لهزيمة ساحقة وقتل قائدها وأرسل رأسه إلى السلطان ، أما الامبراطور فقاد جيوشه عبر ممرات فريجيا الجبلية ، ونصح بعض القادة الخبراء فى الأمور العسكرية مانويل بألا يقود جميع جيشه خلال الممرات[٢] ، ولكن حماس القادة الشبان ، حمله على اتباع رأيهم ،بعد أن أقنعوه بالهجوم أما السلطان قلج أرسلان الثانى فحشد جيشا لا يقل عن جيش مانويل من حيث العدد فضلا عن مهارة الجند وحماسهم، وفى ١٧ سبتمبر سنة ١١٧٦ سار الجيش البيزنطى خلال الممر فأحاط بهم الترك من جميع الجهات عند ميريوكيفالون Myriocepholun وسدوا جميع المنافذ وأبادوا مقدمة الجيش وقتلوا أمير أنطاكية بلدوين ثم حاقت الهزيمة ببقية الجيش وألقى السلاجقة برأس القائد Vatatses أمام بقية الجيش وفر الامبراطور بعد أن خانته شجاعته وحاول من تبقى من الجيش أن يتبعه، ولكن لم يحظ بذلك إلا عدد قليل نظرا لأن الترك سدوا جميع المنافذ ولم يسمحوا لهم بالفرار[٣] ، وحدثت مذبحة هائلة للبيزنطيين ، ثم أنفذ قلج أرسلان رسولا يعرض الصلح على الامبراطور[٤] الذى كان يجمع فلول جيشه فى السهل فى مقابل أن يعيد إليه قلعتى Sublacum. dorybacum ديرلبوم سوبليوم بعد نزع سلاحها فبادر الامبراطور إلى قبول العرض . ولم يدرك قلج أرسلان أهمية انتصاره ، ولعل ذلك راجع إلى أنه ركز كل اهتمامه فى الجهة الشرقية ، إذ أن كل ما كان يريده هو تأمين حدوده فقط . أما مانويل فإن ما حاق به من هزيمة تضارع فى الأهمية ما حل بالبيزنطيين من الهزيمة فى معركة ما نزكرت ، وضاعف فى مرارة هذه الهزيمة فشل سياسة مانويل فى الغرب ، إذ أرسل إليه الامبراطور فردريك بربروسه كتابا يطلب منه أن يدخل فى طاعته[٥] .

وترجع أهمية هذه الحادثة إلى النتائج التى ترتب عليها سواء من الجانب الإسلامى أو البيزنطى وارتباطها بما حدث من تغير الأوضاع بعد وفاة نور الدين ، ووفاة أملريك ، ونهوض صلاح الدين فالجيش الضخم الذى حرص كل من الكسيوس الأول ويوحنا على إعداده وتدريبه تحطم ، وكان لزاما على مانويل أن يقضى سنوات عديدة فى إعداده

(١) Camb. Med . Hist. vol. IV. P. 377 .

(٢) Runciman : of . cit . vol II. p . 412 .

(٣) Diehl (C) : Hist . of the Byzantine Empire P. 119 .

(٤) Runciman : of . cit . vol . II. p. 413 .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص ١٦٧ ، أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ٢٧٥ .

من جديد . ولما كان كل ما أنشأه لا يتجاوز ما هو مطلوب للدفاع عن الحدود فتعذر على الامبراطور المضى إلى سوريا ، وفرض سيطرته على أنطاكية أو الولايات اللاتينية الشرقية[1] ، وأدرك اللاتين آخر الأمر ، بأن لبقاء بيزنطة أهمية فى المحافظة على أملاكهم ضد أخطار المسلمين . فالخوف من الامبراطور هو الذى منع نور الدين من أن يمضى بعيدا فى فتوحه وفى مهاجمة المسيحيين .

فهزيمة ميريوكيفالون سنة ١١٧٦ كانت بالغة الأهمية عند اللاتين بعد أن أدركوا أهمية بيزنطة لهم فى الشرق وشعروا بأن وجود بيزنطة منهم بالنسبة لهم لمواجهة قوى الإسلام النامية إذ كانت بيزنطة حليفا مسيحيا قويا يعتمد عليه ، على حين أن الزنكيين فى الشام ، الذين تنازعوا الوصاية على الصالح إسماعيل لم يشعروا بمدى أهمية تلك المعركة بالنسبة لمستقبل اللاتين فى الشرق[2] ، وكان صلاح الدين منصرفا إلى توطيد سلطانه فى مصر والشام . ولم يلبث أن أحس اللاتين بالخطر المباشر بعد أن زار وليم الصورى القسطنطينية ، بعد ثلاثة أعوام من تجديد التحالف ضد مصر .

بيزنطة وصلاح الدين :

ازدادت الأحوال فى بلاد الشام سوءا بينما قوى أمر صلاح الدين واقتصرت جهود صلاح الدين فى الفترة السابقةعلى قيام الدولة الأيوبية إلى سنة ١١٧٨ على مناوءة الزنكيين ، والحشيشة ، ثم رد الهجوم الصليبى على الدوة الأيوبية فى مصر والشام ، وإعادة تنظيم قياداته الحربية فى الشمال . شعر الصليبيون بمدى الخطر الذى يحيق بممتلكاتهم فى الشام ، من سيطرة صلاح الدين على مصر والشام ، ومن الدليل على ذلك عبارة وليم الصورى « أن كل ازدياد فى قوة صلاح الدين ، يثير فينا الخوف والرعب لأنه كان رجلا حكيما إذ أشار مقداما فى الحرب ، إذا نهض لها ، بالغ السخاء إذا عفى، ومن الخير أن نبذل المساعدة للملك الطفل لا مراعاة لصالحه ، بل لتشجيعه باعتباره عدوا لصلاح الدين »[3].

ونتيجة للأحداث فى الشام التى تلت وفاة أملريك وتولى بلدوين الرابع ، وأصبح ريموند الثالث كونت طرابلس قيما على الملك الصغير بلدوين الرابع ، وأن تنازع السلطة أثناء فترة وصاية حزبان تألف أحدهما من البارونات المحليين والاسبتبارية ، يؤيد ريموند ويسعى للتفاهم مع جيرانه ، أما الحزب الآخر فيتألف من القادمين

(١) Runciman : of . cit . vol II . p . 414 . Cohen : of . cit . p 417 .

(٢) Ostrogorsky : of . cit . p . 374 .

(٣) Willian of Tyre : of . cit . II p . 415 .

حديثـا من الغـرب ، ومن الداوية ، وممن اشتهروا بنزعتهم العدوانيـة وتزعم هذا الحزب ريجنالد شانتون [١]. وفى سنة ١١٧٧ بلغ بلـدوين الرابع سـن الرشد واستقل بـا لملك ، ولإصـابته بـالبرص كـان يعلم أنه لن يعيش طـويـلا ، فكان عليـه أن يبحث عن زوج لـلأميرة شقيقته سبيـلا ، وأرسل إلى وليم مونتفـرات يعرض عليـه الزواج من أختـه وتم الزواج فعلا ، ولكن ما لبث مونتفرات أن تـوفى سنة ١١٧٧ ، وبعد وفاته وضعت طفلا واختير ريجنالد دى شاتيون نائبا للملك[٢] . ولما أرسل بلدوين الـرابع سفارة للحصول على زوج لأخته كان من أهداف السفارة أيضا الدعوة لحملة صليبية جديدة .

وكان يعتقد أن البيزنطيين ليسوا بالقادرين على تقـديم مساعدات فعلية كما كانوا يفعلون من قبل نتيجة لهزيمة ميريـوكيفالون لوقوع النزاع بينهم وبين فـردريك بربروسه والمجر والنورمان ممـا دفع مانويل إلى التماس مساعدة البابـا الذى رحب بإزالة الحواجز بين الكنيستين، ولكن اشترط مانويل أن يضع البابا التاج على رأسه ، ولكن الأكليروس الشرقى تردد فامتنع البابا[٣] ، وبازدياد قوة صـلاح الدين سنة ١١٧٧م قدمت إلى بيت المقدس سفارة من القسطنطينية تلح فى تنفيذ التحالف الذى سبق إبرامه من أجل فتح مصر فإذا كان الجيش البيزنطى قد انهار نتيجة لمعركة ميريوكيفالون فإن الأسطول مازال من القوة ما يكفى للتـدخل ، ولكن الملك بلدوين كان قد اشتد بـه المرض وقتذاك عند قدوم حملـة من الغرب ، وأشيع أن الملك لويس السـابع وهنرى الثانى قـادمان ، ولكن الذى قدم بالفعل كـان فيليب فلاندر[٤] وكان الـلاتين يأملون من وراء قـدومه تحقيق أغراض كثيرة وإذ اشتدت علة الملك ، كان فى حاجـة ماسة إلى من يقوم بأعباء الحكم. ولذا رحب كبار رجـال الدولة بقدوم فيليب فلاندر وعـرض الملك عليه أن يتقلد حكم المملكة وإدارة أمـورها والقيـام بالـوصاية على المملكـة والدفـاع عنها فى حـالة الحرب والسلام[٥] .

ووصلت أخبار حملـة بيزنطـة ، فوصل أسطـول بيزنطى مؤلـف من سبعين سفينة وجنود مدربين وسـلاح ، وهذه الحملة هى التى كان مقررا إرسالها وفقـا للمعاهدة التى

(١) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٧٦٣ .

(٢) William of Tyre : of . cit . II. p . 415, 417.
Runiciman : of . cit II P .414 .

(٣) Camb : Med . Hist vol IV. p. 370 .

(٤) Runciman : of . cit . II. P. 414 .

(٥) William of Tyre : vol of . cit . vol II. p. 417 .

عقدها أملريك ، فأرسل مـانويل إلى بلدوين الـرابع ، يعلن التزامه بها بذلـه من وعود ، وأشار مبعـوثو الامبراطور إلى أن الأحوال مـواتية لمهاجمة مصر سنة ١١٧٧م لما يصـادفه صلاح الدين من العداء فى حلب من قبل الزنكيين ، ولما يلقاه من الكراهية فى مصر من قبل أنصار الفـاطميين ، فإذا أسهم فيليب كونت فلانـدر ، ازداد الأمل فى القضاء على صلاح الدين .

وطلب بلدوين من فيليب الاشتراك مع بيزنطة فى مهـاجمة مصر ، فاعتذر ، وقال: إنه جاء ليقوم بزيارة الأماكن المقدسـة ولا يلزم نفسه بالاضطلاع بأى مسئولية[١] . وإنه سوف يعود للبـلاد متى اقتضت الأحوال ، ورفض ما عرض عليـه الملك من أن ريجنالد دى شاتيون سيشاركه فى قيادة الحملة وأن أسطول بيـزنطة سيعاونه ورأى أنه لا يوجد ما يبرر إجباره على التعـاون مع البيزنطيين ، ثم كشف عن نواياه حين أبـدى اعتراضه على عدم استشـارته فى موضـوع زواج سبيلا[٢] على الـرغم من قـرابته الـوثيقـة بها ، وأدرك البارونـات ما يضمـره الكونت من رغبـة ترمى إلى نزع الملِك مـن الملْك . على أنه أعلن صراحة أنه لم يأت لبحث أمر الزواج مـن إحدى الأميرتين إيزابيلا أو سبيلا ، ومع ذلك حرص الـلاتين على المحافظة على المعـاهدة المعقودة مع بيـزنطة والإفادة من المسـاعدة التى عرضتها[٣] .

وبفشل الحملة عاد فيليب فلاندر دون أن يؤدى عملا هاما ، ولم يغتنم الصليبيون الفرصة التى هيأتها لهم بيـزنطة بقواتها وأسطولها ولا سيما أن صلاح الـدين كان منصرفا وقتـذاك لتدبير أحـوال مصر ، وفى سنـة ١١٧٨م تـوجه وليم الصـورى لحضـور مجمع اللاتيران فـاستقبله البابـا إسكندر الثالـث استقبالا حسنا . ومن المعـروف أن إسكندر الثالـث كان على علاقـة طيبة بالامبراطور البيزنطى مانويل نظـرا لكراهيتهما للامبراطور الألمانى فردريك بربروسه ، وأرسل البـابا وليم الصورى فى سفارة إلى بلاط القسطنطينية حيث دارت محادثات تمهيدية لتوحيد الكنيستين البيـزنطية والرومانية الغربية[٤] ، وهذا المشروع عطل وليم الصورى عن الذهـاب لبيت المقدس ، ولم يعتبر وليم الصورى نفسه غريبـا فى القسطنطينية ، إذ رحب به الامبراطـور ومكث ما يقرب من سبعـة أشهر بها ،

(١) William of Tyre of . cit . II. P. 417 .
(٢) Runciman : of . cit . II. P. 415 .
(٣) Runciman : of . cit . Vol . II. P. 415 .
(٤) William of Tyre : of . cit . Vol . II . p. 417 .

شهد أثناءها خطبة ابن الامبراطور لابنـة لويس السابع ملك فرنسا كما حضر زواج ابنة لامبراطور مانويل من كنراد شقيق وليم مونتفيرات ، وعهد الامبراطور البيزنطى إلى وليم بالقيـام بسفارة لأنطـاكية . وتحدث الامبراطور معـه بشأن تجديد التحـالف مع اللاتين لمناوءة مصر . ولكن هذا المشروع لم يخرج إلى حيز التنفيذ[١] .

أدرك صلاح الدين ما حدث من تـداعى التحالف اللاتينى والبيزنطى ، وازدادت الأحوال سوءا عند الصليبيين ، فما حدث من تدهور أحوال المملكة ، وسوء حالة الملك الصحية ، حملا الملك على أن يسعى إلى أن تتـزوج أخته سبيلا من جاى لـوزجنان[٢] ، أما أنطاكية فقـد سادها الشقاق والنزاع بسبب تعدد زيجات بـوهمند الثالث بينما توالت انتصارات صلاح الدين ، وتدعم مـركزه فى مصر والشام ، وهاجم الصليبيين فى بانياس و انتصر عليهـم فى معركـة مرج عيون ، كما استخـدم الأسطول فى مهاجمة عكـا ، وأخطر بلدوين لعقد هدنة سنة ١١٨٠ لمدةعامين[٣] وفى تلك الأثناء تـوفى أهـم نصير وحليف للفرنج هو مانويل امبراطور الدولة البيزنطية .

تغير سياسة بيزنطة تجاه الصليبين بعد مانويل:

سار مانويل على سياسة كل من الكسيوس ويوحنا فى بذل المساعدة للفرنج بما لا يتعارض مع مصلحة الامبراطورية ، فضلا عن طمـوحه لخدمة المسيحية الذى دفعه إلى مغامرات ليس فى وسع الامبراطـورية أن تتحمل نفقاتها ، فما كان يـرسله من جيوش إلى هنغاريا وإيطاليا ، كان فى أشد الحاجة إليهـا فى الأناضول ، كما أن هزيمة ميريوكفالون كانت قاتلة لجيشه[٤] . وازدادت الكراهية للاتين بالقسطنطينية زمن مانويل[٥] ، فاتّهم بعض المؤرخين مانويل بأنه فى سبيل بعض الميزات الدبلوماسية منح البناذقة امتيازات اقتصادية تسببت فى انهيار اقتصاد بيزنطة ، كذلك عقد اتفاقية سنتى ١١٦٨ ، ١١٧١م مع بيـزا وجنوه[٦] ، وتسبب البنـادقـة فى زيـادة حـدةالكـراهيـة والبغضـاء تجاههـم فى

---

(١) العرينى : مؤرخو الحروب الصليبية ص ١١٨ .

(٢) Runciman : of . cit . vol . II. p. 425.

(٣) العرينى : الشرق الأوسط ج ١ ص ٧٧٣ .

(٤) Runnciman : of . cit . vol II. p . 420 .

(٥) Ostrogorsky : of cit . P. 345 .

(٦) ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرسطقراطية ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ص ٢٣ .

الامبراطـور يـة لاحتكارهـم للتجارة بين بيـزنطـة والشرق ، وقيـامهم بإمداد الأساطيل الامبراطوريـة بالبحّارة ، وبذلك أصبحت الامبراطـورية تحت رحمتها[١] . يضـاف إلى ذلك ما حدث من انتـزاع بيزنطة دالماشيا من البنـدقية ، ورفض البنادقة بـذل المساعدة للأمبراطـور فى حروبه مع النـورمان فى عهد مانـويل . وإذ أصاب البنادقـة الغرور ، لما ظفـروا بـه من نجـاح فى نشـاطهم التجـارى ، حتى شكـا البيـزنطيـون من جشعهم واحتقـارهم لليونـانيين حرص الأبـاطـرة البيزنطيـون على إخضاعهم وفـرض الضرائب والخدمة العسكرية .

وفى ٣١ مـارس سنة ١١٧١ ، أمـر الامبراطـور مانـويل بإلقـاء القبض على جميع البنادقة بالقسطنيطنية وبلاد الروم وصادر سفنهم ، فاشتدت ثائرة البنادقة وتحتم عليهم خوض الحرب ، فأرسلـوا أسطولهم إلى الشرق ، ولكن الحرب لم تسفر عن نتائج مـرضية وإنما تـرتب عليها انقطـاع التجـارة مع الامبراطـورية لسنـوات عـديدة . على أن هـذه الكراهية كان يقابلها شعور عـدائى أيضا من الغرب تجاه بيزنطة ، إذ اتهمها المسيحيون بأنها مسئولة عن فشل حملاتهم فى الشام ومصر[٢] .

ولم تكن العلاقـات طيبة بين بيزنطـة وامبراطور ألمانيـا فردريك بربـروسه ، بل إن تحالف بيزنطة مع البابا إسكندر الثـالث لمناهضة فردريك لم يؤد إلى نتيجة ، ولم يلبث أن ساءت العـلاقات ، ولم يتحقق التعاون فى المجـال الدينى بما قد يـؤدى إلى التفاهـم ، إذ عارض الشعب التقـارب بين البابـا ومانـويل وقاوم التحـالف بين الجماعة المنحـرفة فى الوطن والعقيدة ، وحدث التقارب بين البابا والامبراطور فردريك وعقدت معاهدة سنة ١١٧٧ ، وتم طرد جميع الرعايا البيزنطيين من إيطاليا[٣] .

أما فى الشرق الإسلامى ، فإن معـركة الامبراطور مع السلاجقـة وهزيمته حطمت الجيش البيـزنطى ومنعته من التـدخل الفعلى فى الإمارات الـلاتينية فى الشرق وحـرمت الصليبيين من حليف قوى[٤] ، واستشعر الـلاتين بعدئذ بما افتقـدوه من التحالف مع بيزنطة ، وهذا يبرر أن قطرة واحدة من الدم البيزنطى لم تُرَقْ فى موقعة حطين ، ولم يشترك جنود بيزنطة فى المعركة التى حددت مصير مملكة بيت المقدس .

(١) Ostrogoroky : of . cit . P. 345 .

(٢) Runciman : of . cit. vol II. P. 420 .

(٣) Ostrogorsky : of . cit . P . 340

(٤) Gibbon : of . cit . II. P. 409.

أما المرحلة الجديدة ، التى تبدأ بوفاة مانويل سنة ١٨٨١ ، فأهم ما اتسمت به،هو مـا جرى من تغيير فى السيـاسـة البيـزنطية ، نحـو الـلاتين ، والنزوع إلى التقـارب مع الأيوبيين(١) .

وتفصيل ذلك أن الطفل الكسيـوس الذى ولى العـرش بعـد وفاة أبيـه مانـويل لم يتجـاوز الحادية عشرة من عمـره ، فسيطرت أمـه الـلاتينية مـاريا الأنطـاكية على أمـور الدولة، وكـانـت أول لاتينية تحكم الامبرطورية وتـوثقت علاقتها وصداقتهـا بالكسيوس كـومنين وهو من أقـارب الامبراطور الجديـد ، فتعرضت بـذلك للكراهيـة من الشعب والارستقراطية على حد سواء فالارستقراطية رأت أن هذا الرجل وصل لمركز مرموق برغم افتقاره إلى الكفاية والمقدرة ، ولم ينس البيزنطيّـون خلافاتهم ومنازعتهم مع أنطاكية(٢) . فضـلا عن أعمال الصليبيين العـدوانيـة أثناء مـرورهـم بـالأراضى البيـزنطيـة ، فما زال البيزنطيـون يذكـرون مذابـح البندقيـة وبيزه وجنـوه ، وسيطرتها على تجارة الامبراطـورية وجنى الأربـاح الطائلـة ومهاجمة المواطنين المسـالمين(٣) ، وازدادت الكـراهيـة لحاشيـة الملكـة المؤلفـة من التجـار الإيطـاليين والجنـود المأجـورين ، ولما ظفـر بـه الـلاتين من امتيازات ، بينما شعر اليونانيون بـالحقد الشديد عليهم ، فصب البيزنطيون غضبهم على تلك السياسة ولا سيما بعـد انهيار مركز بيزنطة سواء فى الـداخل والخارج ، وجرت عدة محاولات لاغتيال الامبراطورة وصديقها منها محاولة ابنـة مانويل وزوجها ، ولكنها باءت بالفشل .

ولقد بدأ التغير واضحا فى مخطط السياسـة البيزنطية فأرسل الامبراطور الكسيوس كـومنين الثـانى إلى القـاهـرة مبعـوثـا سنـة ١١٨٠-١١٨١ لعقـد الصلح مع صـلاح الدين(٤)، ورغم انهيـار حكم الملكـة والامبراطـور الكسيـوس الثـانى بعـد ذلك ، فإن المخطط الجديـد لم يتغير ، فقد ثـار عليها أنـدرونيكس كومنين وهـو ابن عم مانـويل ، وسياسته تختلف عن سياسة مانويل اختلافًا تـامًا. إذ أنه عدوا للارستقراطية الإقطاعية وخصم عنيد لـلاتين فى الشرق ، ولكن فى نفس الوقت كـان متقلب الأهواء(٥) إذ رأى نذر الخطـر تحيط به ، واستطاع أنـدرونيكس آخر الأمر أن يهزم الكسيـوس فأمر بسمل

(١) Ostrogorsky : of . cit . P. 340

(٢) Runciman : of . cit . II. P. 427.

(٣) Ostrogorsky : of . cit . P . 340.

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٢ .

(٥) Ostrogorsky : of . cit . P . 351.

عينيه وأدخله الدير ، ودخل القسطنطينيـة وأعدم الامبراطورة وأجبر الامبراطـور الطفل على أن يوقع الحكم بشنـق والدته ، وسيطـر على الامبراطور الطفل الكسيـوس الثانى ، وتعـرض الـلاتين لما أجراه انـدرونيكس من مـذابح ، ذهب ضحيتهـا أعـداد كبيرة من الـلاتين ، وقام البيـزنطيون بـالتنفيس عن حقـدهم للاتين بـالمشاركـة فى تلك المذابح الضخمة والاستيلاء على متـاجرهم وممتلكاتهم ، وكانـت المقاومة اليائسة التـى أبداها اللاتين حافزا لهم على القسوة ، فلم يراعـوا سنا أو جنسية أو روابط أو صداقة وامتلأت الطرقـات بأشلائهم ، وحرق رجـال الدين فى كنـائسهم والمرضى فى المستشفيات وبيع آلاف منهم كرقيق للترك . وأسهـم رجال الدين فى الـدعوة لهذه الحركة ، بل تقربوا إلى الله شاكرين حين فصلت رأس الكاردينال الرومانى مندوب البابا ، ولم يستطع الإفلات إلا عدد محدود ، واستقلـوا سفنهم إلى الغرب ، وتجنبوا كل الموانىء البيزنطيـة حيث اطلعوا الغرب على أخبار تلك المذابح ، وأثار هذا نفوس المسيحيين فى الغرب[(١)] ، ولم يلبث أن لقىَ الامبراطور الكسيـوس الثانى مصرعه سنة ١١٨٣ ، وصار أنـدرونيكس امبراطورا ، وما ارتكبه من الجرائم[(٢)] وما أقدم عليه من منـاهضة اللاتين فى الشرق والغرب سواء ، كل ذلك حمله على أن يلتمس حليفا جديدا بين المسلمين فى الشرق وكان هذا الحليف ، صلاح الدين[(٣)] .

---

(١) Gibbon of . cit . vol . VI. P. 404.
Diehl : of . cit. p. 134 .
Ostrogorsky . of . cit . p. 351 .

(٢) Runciman : of . cit . vol II. P. 428 .

(٣) Gibbons : of . cit . vol Vol VI P . 404 - 405 .

الفصل الرابع

التحالف الأيوبى البيزنطى فى عهد صلاح الدين

١١٨١ - ١١٩٣م

تعرض صلاح الدين والبيزنطيون لتهديد عدو مشترك - سفارة أندرونيكس إلى صلاح الدين (١١٨٥م) - ترحيب إسحاق أنجيلوس بمحالفة صلاح الدين - سفارة صلاح الدين إلى إسحاق - المفاوضات بين الأيوبيين والبيزنطيين بشأن الحملة الصليبية الثالثة - اهتمام صلاح الدين بإقامة الشعائر الدينية بمسجد القسطنطينية - العلاقات بين البيزنطيين وحملة فردريك بربروسه - مراسلات إسحاق إلى صلاح الدين بشأن حملة فردريك - رفض صلاح الدين لطلبات البيزنطيين .



تعرض صلاح الدين والبيزنطيون لتهديد عدو مشترك :

حدث قبيل الحرب الصليبية الثالثة أن انحاز صلاح الدين ، سلطان مصر والشام ، إلى أكبر دولة مسيحية فى الشرق ، الدولة البيزنطية ، للمحافظة على مصالحهما المشتركة التى تنطوى على مقاومة اللاتين فى الأرض المقدسة[1] واعتبر الغرب هذا الاتصال انتهاكا لرابطة الدين وتحطيما للتقاليد ، وذلك ، لأن الحروب كادت تكون مستمرة بين البيزنطيين والمسلمين . منذ ظهور الإسلام ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى انتزع المسلمون السلاجقة معظم بلاد الأناضول من الامبراطورية الشرقية وما حدث بعد الحملة الصليبية الأولى من تعاون بيزنطة مع المسيحيين فى الغرب ، كانت تأمل من ورائه أن تجعل لنفسها الحماية على الإمارات الصليبية فى الشام ، وفى أن تظفر بالمساعدة ، لمقاومة الزحف الإسلامى على أطرافها الشرقية[2] . ومع ذلك فإن أندرونيكوس ، آخر أباطرة أسرة كومنين ، وخليفته أسحاق إنجيلوس ، غيرا هذه السياسة رأسا على عقب ، وتحالفا مع أكبر عدو للصليبيين ، صلاح الدين بل إنهما حاولا جاهدين ، أن يستأصلا الدول اللاتينية من الشرق هذا التقارب بين العدوين القديمين (البيزنطيين والمسلمين ، سهله ويسره ما جرى أخيرا من علاقات شخصية ، وما أملته الضرورة السياسية فحينما تقرر نفى أندرونيكوس ، فر إلى دمشق وبغداد ، حيث توطدت الصداقة بينه وبين نور الدين[3]وحدث بعدئذ أن حل فى بلاط صلاح الدين ، الكسيوس أنجيلوس وأخوه الأصغر إسحاق ، اللذان هربا من طغيان أندرونيكوس[4] ، وكان الكسيوس لا يزال فى بلاط صلاح الدين ، حينما نصّب الرعاع بالقسطنطينية ،إسحاق امبراطورًا[5] ومن هنا عرف هؤلاء الحكام قادة المسلمين والقوى الإسلامية .

وفى سنة ١١٨٥ تعرض كل من البيزنطيين وصلاح الدين لتهديد نفس الأعداء من المسلمين والمسيحيين . إذ أن صلاح الدين واجه الإمارات الصليبية التى قامت وفصلت بين شطرى ممتلكاته المعروف أن قبرص التى تمردت وأعلنت العصيان تحت زعامة إسحاق كومنينوس من أقوى المتحمسين لدعوة اللاتين وللمصالح اللاتينية، وكانت من قبل ترجح كفة اللاتين ضد صلاح الدين، ومن الطبيعى أن البيزنطيين

(١) Runciman: of . cit . vol II. P . 412 .

(٢) Setton : of . cit vol . II . p. 154 .

(٣) Ostrogorsky . of . cit . P 351 .

(٤) Gibbon : of . cit. Vol . VI . P. 405.

(٥) William of Tyre of . cit . Vol . II . P. 354.

كانوا يأملون أن يستردوا هـذه الجزيرة(١) . وما حـدث سنة ١١٧٦ من إحراز السـلاجقة انتصارا حاسما فى معركة ميروكيفالون وطد سلطانهم فى جون الأناضول ، حيث أضحوا مصدر خطـر شديـد ، وتهديد كبير على الممتلكات البيـزنطية فى بحـر إيجه وعلى أملاك صلاح الدين فى شمال الشـام ، فتوافر للبيزنطيين مثلما توافـر لصلاح الدين من دواعى الخوف من جهة الغـرب ، وأثار حـديث الحروب الصليبية عنـدهم ذكريـات أليمة عن تجاربهم مع الحروب الصليبيـة المتقدمـة ، فما بذلـه مانـويل كومنين من جهـود لاسترداد الأقـاليم التى فقدتها بيـزنطة فى إيطـاليـا ، أسهمت فى تباعـد الامبراطوريـة الغربيـة ، ومملكةصقلية ، والبندقية بما تمتلكه من أسطـور قوى ، وما حدث سنة ١١٨٢ من إجراء مـذبحـة مروعـة بين الإيطـاليين المقيمين فى القسطنطينيـة أحزنت جنـوا وبيـزا ، إذ أن رعاياهما كانوا أكثر من عانوا من هذه المذبحة ، ومن الطبيعى أن تسعيا إلى الانتقام(٢).

ازداد أندرونيكس طغيانـا فقتل الكثير من أنصار مريم الأنطـاكية من البيزنطيين وسمل أعين آخـرين ، وأساء إلى البطـريرك ونتيجـة لذلك فـر من وجهة عـدد كبير من رجال العـاصمة والتجـأوا إلى الأمراء الصليبيين فى أنطـاكية وغيرهـا ولاسيما القدس(٣) وأقام بعضهم فى صقليـة وإيطالية والبعض الآخر فى قـونيه وكان أنـدرونيكس قد نفى أحد أفراد أسرة كومنين واسمه الكسيـوس كومنين إلى روسيه فهرب منها والتجأ إلى ملك صقلية وليم الثانى وطلب مساعدة ضد أنـدرونيكس فأجاب وليم الثانى التماسه وجرَّد حملة فى سنة ١١٨٥م مما حرك الأمل فى إقامة ثورة لصالحه(٤) .

واستولى على دراخيوم ١١٨٥م واتجه إلى سالونيكا وهـاجم الأسطول جزائر كورفو وكيفالونيـا . واستولى الجيش النورمانى على سـالونيك ثانى مدن الامبراطـورية ونهبها ، وزحف على العـاصمة ذاتها . ولم يسع أنـدرونيكوس ، بعد أن جـرى تطويقـه من جميع الجهات ، وبعد أن تعـرض لتهديد وضغط مباشر من غارة النورمـان وما تهدده من ثورة

---

(١) Lamonte : of . cit . P. 12 .

(٢) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) ابن جبير الاستبصار فى عجائب الأمصار الرحلة ص ٣٢٣ .

شاهـد ابن جبير الجيوش الصقليـة ، وهى تحشد استعـدادا للحملة ضـد بيزنطـة كذلك شـاهد المطالب العرش أثناء وجوده بصقلية .

(٤) Ostrogorsky : of . cit . P. 355 .

إلا أن يلجأ إلى صلاح الدين ، أملا فى أن يحصل على مساعدة فعالة[1] .

سفارة أندرونيكس إلى صلاح الدين (١١٨٥م) :

ووفقا لذلك أرسل أندرونيكوس ، سنة ١١٨٥ ، سفارة إلى صلاح الدين يستعيد ما كان بينهما من صداقة قديمة ، ويعرض قيام تحالف بينهما . ونظرا لأن أندرونيكوس كان امبراطورا فكان لزاما على صلاح الدين أن يبذل له الولاء ، وأن يقدم له المساعدة ، فيجرى فتح فلسطين واقتسامها بينهما ، على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس والمدن الساحلية ما عدا عسقلان . وإذا جرى الاستيلاء على آسيا الصغرى ، فلابد من إضافتها حتى أنطاكية وأرمينيا ، إلى الامبراطورية الشرقية . ولاشك أن أندرونيكوس ، مقابل هذه المساعدة والأملاك ، وعد بأن يبذل المساعدة للمسلمين فى نضالهم ضد اللاتين فى سوريا وليس معروفا مدى استجابة صلاح الدين لهذه المقترحات ، غير أنها فيما يبدو حازت القبول[2] ، والراجح أن كل الحقوق والامتيازات الإقليمية توقفت على ما يقوم به البيزنطيون من تنفيذ نصيبهم فى المعاهدة ، ولكن أندرونيكوس طرد من العرش (١٢ سبتمبر سنة ١١٨٥) ، على يد سكان المدينة الذين حنقوا لما أصابه من هزائم وفشل فى الحرب النورمانية[3] . قبل أن يصل إلى القسطنطينية رد صلاح الدين .

أما طلب أندرونيكوس ، بأنه ينبغى على صلاح الدين أن يبذل له الولاء لأنه امبراطور ، فإن صلاح الدين ، سلطان مصر والشام ، اعتبره طلبا داعيا للسخرية ، ولا يقبله بأى حال من الأحوال . فضعف الامبراطورية البيزنطية وقتذاك كان أمرا معروفا فى كل مكان[4] . فلم يكن النورمان وحدهم هم الذين غزو سالونيك ، بل إن جزر الارخبيل تعرضت لغزو القرصان اللاتين وغاراتهم ، واندلعت فى قبرص ثورة لقيت نجاحا كبيرا ، وتجاوز الترك والمجريون فى غاراتهم أطراف الامبراطورية . أما سلطة صلاح الدين فإنها أخذت وقتذاك تمتد وتتسع ، وما أحرزه من انتصار باهر على الإمارات الصليبية كان معروفا ولم يكن موضع تفكير مطلقا وقتذاك أن يخضع العالم العربى للبيزنطى ، ومع ذلك فإن طلب إخضاع العرب ،إنما يمثل عند الامبراطور فكرة

(١) Gibbon : of . cit . vol . VI. p. 405 .

(٢) Ostrogorsky : of . cit . P . 354.

Grousset : of . cit . II. p. 743-751. note 1 .

(٣) عن سفارة أندرونيكوس لصلاح الدين انظر :

Cahen : of . cit . p. 424,425 .

(٤) Ostrogorsky : of . cit . p. 355.

بيزنطية تقليدية ، باعتبار أن الامبراطور ممثل الله على الأرض ، فما من أحد يساويه فى المكانة(١) .

والدليل على أن أندرونيكوس لم يكن يهتم بأكثر من مجد خيالى ما جرى من طلبه بأن تكون له بيت المقدس وساحل فلسطين . والواضح أن صلاح الدين رفض دعوى بيزنطة فى السيادة .

ترحيب إسحاق أنجيلوس بمحالفة صلاح الدين :

وما كان من قبول صلاح الدين فكرة أندرونيكوس فى التحالف معه ، رحب بها الامبراطور الجديد ، إسحاق الثانى أنجيلوس ، الذى سره أن يجد حليفا فى صلاح الدين، بعد أن تعرضت عاصمته القسطنطينية لتهديد النورمان ، فأقر المعاهدة (بعد أن راجعها وعدلها صلاح الدين فيما بعد)(٢) واستدعى أخاه الكسيوس ليعود من لدى صلاح الدين كان الكسيوس أنجيلوس لا يزال ضيفا على السلطان صلاح الدين مثلما كان إسحاق من قبل .

غير أنه حدث سنة ١١٨٦ بعد أن استدعى إسحاق أخاه ، أخذ الكسيوس فى المسير إلى القسطنطينية ، أمسك به كونت طرابلس أثناء اجتيازه عكا وأمر بحبسه وذلك حينما وصل إلى الإمارات الصليبية نبأ التحالف البيزنطى الإسلامى .

وفى أثناء اعتقاله ، بذل له البيازنة المساعدة بما قدموه له من القروض ، التى فيما بعد تسديدها . ولما علم إسحاق بهذا الإجراء كتب إلى صلاح الدين يحثه على مهاجمة الإمارات اللاتينية ، كيما يتم إطلاق سراح أخيه الكسيوس .

وفى ربيع سنة ١١٨٧ م ، بعث البيزنطيون بأسطول لمهاجمة قبرص وتحرير الأراضى المقدسة ، جرى تفسير تحرك الأسطول البيزنطى على أنه مساعدة بحرية كيما يقوم صلاح الدين بهجوم على الإمارات الصليبية ، غير أن القوات البيزنطية تعرضت للهزيمة فى قبرص على يد إسحاق كومنين ، وحلت الكسرة بالأسطول على يد قائد الصقلى . وفى تلك الأثناء ، هاجم صلاح الدين مملكة بيت المقدس ، بسبب ما تعرض له من إهانات من قبل اللاتين لا بسبب تشجيع إسحاق ، فاستولى صلاح الدين

---

(١) Cahen : of . cit . p. 425 .

(٢) أشار كاتب الرسالة المجهولة إلى مصدر من المصادر التى يصح أنه استقى منها معلوماته ، فى سنة ١١٨٦ علم كونت طرابلس وأمير أنطاكية بالتحالف بين إسحاق وصلاح الدين .

Branrd (C) : Saladin and Byzantiun p. 167 (Speclum 1945 Vol xx)

على بيت المقدس والمدن الساحلية[١] ، ولما سقطت عكا في يد صلاح الدين ، جرى إطلاق سراح أنجيلوس من معتقله فعاد إلى القسطنطينية على ظهر سفينة جنوية، ولم يدفع نفقة الرحلة حتى سنة ١٢٠١م[٢] .

على أن صداقة صلاح الدين لإسحاق أنجيلوس ليس لها أى صلة بفتح الأرض المقدسة إلا من ناحية واحدة ، فالمعروف أن ما حدث من قبل من استسلام بيت المقدس إنما يرجع فيما ذاع وشاع إلى أن اليونانيين الأرثوذكس المقيمين ببيت المقدس والمعروفين باسم الملكانية كانوا مستعدين لتسليم المدينة بطريق الخيانة ، واتصل بهم المسلمون عن طريق يوسف بطيط وهو ملكانى ، ولد ونشأ فى بيت المقدس ، وعد بتدبير فتح أبواب المدينة على يد بنى جلدته وديانته .

ولما وقف زعماء اللاتين على كراهية الملكانيين وعلى تدبير مؤامراتهم ، كان هذا من أسباب مبادرتهم بتسليم المدينة[٣] . لم يكن ثمة صلة معروفة أو ضرورية تربط بين إسحاق أنجيلوس ، وما كان من أفعال الملكانيين ، غير أنه من الملحوظ أن تحالف صلاح الدين مع البيزنطيين أدى إلى تحويل الكنائس اللاتينية القائمة بالأراضى المقدسة إلى الشعائر اليونانية . والراجح أن الملكانيين فى بيت المقدس علموا ما بذله صلاح الدين لهم من وعود ، والواضح أنه لم يكنوا المحبة لجيرانهم من الفرنج[٤] .

سفارة صلاح الدين إلى إسحاق :

وإذ فرح صلاح الدين بما أحرزه من انتصارات على الصليبيين أرسل إلى إسحاق سفارة تعلن ما أصابه من نجاح وفوز ، ووفقا لتقاليد الدبلوماسية الشرقية حمل السفراء إلى الامبراطور البيزنطى هدايا فاخرة ، منها فيل ، وخمسون من السروج التركية ، ومائة من الأقواس التركية ، بما تحتاجه من سهام ، ومائة من الأسرى البيزنطيين من بلاد اليونان ، ١٠٥ حصانا تركيا وكمية كبيرة من البهار ، وأظهر إسحاق سرورا بما جاءه من أنباء طيبة ، ومن هدايا ثمينة فاستضاف الرسل فى قصر منيف فى وسط القسطنطينية وجدد المحالفة مع صلاح الدين[٥]. وأكثر ما أظهر له الامتنان والشكر ، ما جرى من

(١) Branrd of , cit , p 169-170 .

(٢) Lane-poole: of . cit . p. 214-218 .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٤) Gibbon : of . cit . vol VI 374 .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٤٧ .

إطلاق سراح شقيقـه من حبس الصليبيين ورد إسحـاق على صـلاح الـدين ، بهدايـا تضارع مـا أرسله لـه فى القيمة والروعـة ، فمنها أربعمائة زردية ، وأربعة آلاف رمح من الحديد ، وخمسة آلاف من السيوف ، وكلها من الأسلحـة التى استحوذ عليها من هزيمة جيش وليم الثانى الـذى أغار على أملاكه ، واثنتـا عشرة قطعـة من القماش الفـاخر، وقـدحـان من الذهـب ، وثلثمائة من فرو السمـور ، وأرسل هـدايـا من القماش والخلع الامبراطـورية إلى شقيق صـلاح الـدين وإلى أبنائه الثـلاثـة ، وأهم من كل ذلك ، حمل الرسولان إلى السلطان تاجا مرصّعـا بالذهب ، ورسالة من إسحاق نصها « أبعث إليك بهذا التاج ؛ لأنك فى رأيى تعتبر ملكـا وأنت جديـر بالملك ، وذلك بفضل مسـاعدتى وعـون الله » ، وبهذا الرمـز وبهذه العبـارات على الرغم مـن أنها لم تكن صادقـة ، سعى الامبراطور إلى أن يبرهن على سيادته على صلاح الدين .

المفاوضات بين الأيوبيين والبيزنطيين بشأن الحملة الصليبية الثالثة :

أبحر الـرسل إلى عكا ، حيث أقام لهم صـلاح الدين ، فى ٦ ينايـر سنة ١١٨٨م ، بعد أن رفع الحصار عن صور ، أقام سرادقا فخما حافلا لاستقبالهم وجدد التحالف مع بيزنطـة ، وذلك بحضور أبنـائه وأمرائه ومـوظفيه ، وأشـــاد الرسل بصفـــة خاصـــة بصلاح الـدين لما أجراه من إطلاق سراح الكسيوس أنجيلـوس ، فبفضلك ثم تخليصه وإنقاذه من أيدى اللاتين [(١)] وسأل صلاح الدين هؤلاء الرسل عن أحوال الامبراطورية (البيزنطية) والحرب مع الفلاح ، والحرب مع سائر الحكـام (الواضح أنه يقصد ملوك الغرب) وأهم خبر حمله هؤلاء الرسلان البيزنطيون إلى صلاح الدين ما حدث فى الغرب من الدعوى إلى حملة صليبية جديدة لتخليص بيت المقدس[(٢)] . وبعد فترة من التمهل والإرجاء ، الراجـح أن صلاح الدين تلقى أثناءهـا من جهات أخرى ما يـؤكد احتشاد الحملـة الصليبية الثـالثة ، عـزم على أن يزيـد من توثيق عـلاقته بإسحـاق كيما يضمن مساعـدته إزاء ما يصح أن يمـر بأراضيه من رجـال الحملة[(٣)] ، ولذا أنفـذ مع السفارة البيزنطية عند عـودتها سفارة من قبله ، عهد إليها بالقيـام بمفاوضات من هذا القبيل ،

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٣٦ .

(٢) تشير رسالة القاضى الفاضل إلى سيف الإسلام باليمن المؤرّخة ٥٨٤هـ (١١٨٨-١١٨٩) إلى ما ورد من الأنباء من حـاكم القسطنطينية ، الإسكندرية ، ومن شمال أفريقيـة ، بشأن تجمع وإعداد حملـة صليبية فـلا داعى لأن نفترض قدوم سفـارة أخرى من إسحـاق ، لتحمل هذه الأنبـاء إلى صلاح الدين كما يزعم Dolger انظر / أبو شامة الروضتين ج ٢ ص ١٣٦ .

(٣) Grousset : of . cit . Tome III p . 13 .
Runciman : of , cit . vol , III 63-74 .

وفاقت هـدايـاه كل مـا سبق أن أرسله من هـدايا إذ كـان منهاعشرون حصـانا لاتينيًّا ، وصناديق كبيرة من العطـور ، و الجامات والبلسان ، وثلثمائة عقـد من الجواهر صندوق من العود ، ومائة كيس من المسك ، وعشرون ألف بيزنطا ، وفيل صغير وغزال، وزرافة ، وخمسة فهود ، وثلاثون قنطارا من الفلفـل وأنواع البهار الأخرى ، وقدر كبير مصنوع من الفضة وكميـات كبيرة من الدقيق والحبوب السـامة وهذه الأطعمة المميتـة (التى جرى اكتشافهـا عند تجربتها مع أحـد الأرقاء الـلاتين حينما لقى مصرعه) كان الغـرض منها فعلا ، توزيعها على الصليبيين القادمين من الغرب ، عند اجتيازهم الأراضى البيزنطية . وحوت حوليات فردريك بوبروسه قصصا عن محاولات تدمير الألمان بالالتجاء إلى مثل هذه الوسائل .

اهتمام صلاح الدين بإقامة الشعائر الدينية بمسجد القسطنطينية :

ومن هدايا صـلاح الدين ، فى هذه المناسبة « منبر » والذى كـان لابد للامبراطور أن ينصبـه ، ويعمل على تمجيده وتبجيلـه ، تكريما للمسلمين، وفقـا لما بـذله من وعـد سابق، ففى أثناء المفـاوضات الثالثة ، مع إسحاق ، اهتم صلاح الـدين بالمحافظة على الشعائر الإسلاميـة . وعمارة مسجد القسطنطينية ، مثلما أبدى إسحاق رغبتـه فى مراعاة الشعائر اليـونانية فى كنائس الأرض المقـدسة[1] ومع ذلك فإن المنبر الـذى بعث بـه صـلاح الدين ، فى هـذه المنـاسبة لم يصل إلى القسطنطينيـة ، إذ استـولى الجنويُّـون على السفينة التى تحمله إلى العاصمة البيـزنطية ، وحملوه إلى صور ، ولما كان المنبر يعتبر دليلا ملموسـا على التحالف بين الامبراطور وصـلاح الدين حـرص كنراد مونتفـرات (الذى حكم وقتذاك فى صور) على أن يـذيع نبأ الاستيلاء عليه[2] . فى سائر أنحاء أوربا ، وما أرسلـه فيليب الثانـى ملك فرنسـا من سفـارة إلى القسطنطينية ، حملـت من الأنباء مـا يقصد بها تشجيع التجهيز والاستعداد والتجنيد للحملة الصليبية القادمة . وفى خريف سنة ١١٨٨ ، أصبح معروفا فى غرب أوربا خبر معارضة إسحاق للحملةالصليبية .

وفى ٢٠ سبتمبر ١١٨٨ ، وحينما بعث كنـراد مـونتفـرات بـرسـالـة إلى أسقف كانتربيرى عن الاستيلاء على المنبر ، توافر لديـه من الأنباء ما يكفى لأن يضمن رسالته أهم ماورد فى المحـالفة بين صلاح الـدين والبيزنطيين من شروط ، قرر صـلاح الدين أن تسير كل الكنائس فى فلسطين التى استولى عليها وفقـا لمذهب بيزنطة (الأرثوذكس) ، والتزم إسحاق بأن تجرى الشعائر فى مسجد القسطنطينية على مذهب صلاح الدين[3].

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) Gibbon : of . cit . vol VI . p . 407 .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .

وفيما يتعلق بحصار أنطاكية التزم إسحاق بأن يبعث مائـة سفينـة حربيـة ، لمساعدة صلاح الدين ، ومع ذلك فإن مقاومة الحملة الصليبيـة الثالثة المقبلة ، كان أمرا جوهريا عند صلاح الدين فلم يقم إسحاق من تلقاء نفسه ، بأن يسجن فى القسطنطينية اللاتين الذين وعدوا بالاشتراك فى الحملـة الثالثة ، بل إنه وافق أيضا على معارضـة ومقاومة كل جيش يحاول اجتياز ممتلكـاته[1] ، ومقـابل ذلك وعـد صلاح الـدين ، بأن يمنحـه كل الأراضى المقدسـة ، وهو مـا ناضلت بيزنطـة من أجل الحصول عليـه طوال القـرن الثانى عشر ، ومن أجلهـا أجرى أيضا أنـدرونيكوس المفاوضـات ، أما تقريـر السفارة الفرنسية ، الذى جرت كتابته من القسطنطينيـة بعد فترة قصيرة عقب كتابة رسالة كنراد فأضافت إلى أن السفراء المسلمين ، لقوا من الحفاوة والتكريم فى القصر الامبراطورى ما لم يلقه غيرهم من السفـراء ، وزعمت السفارة الفرنسيـة أيضا أنه حـدث فى نفس اليوم الـذى تأهبت فيـه رسلهـا لمغـادرة القسطنطينية ، أمـر إسحـاق بطـرد كل الـلاتين من الامبراطورية، فإذا كـان هذاالقرار قد صـدر فعلا ، وهو ما لم يجد تأكيـدا له فى مصادر أخـرى ، فإنـه لم يلبث أن جـرى تعـديلـه بعـد فترة وجيـزة ، فمن المحقق أنـه كـان بالامبراطورية الشرقية أثناء الحملة الثـالثة ، تجار من البنادقة وجند مأجورة من الفرنج ، وموظفون من اللاتين[2] ، ومع ذلك فإن مـا حدث من احتجـاز الصليبيين مستقبلا فى القسطنطينية دل على أن إسحـاق يكون قد ألـزم نفسه بسياسـة عدائية نحـو الغرب لما يبذله من جهود لاستعادة بيت المقدس .

العلاقات بين البيزنطيين وحملة فردريك بربروسة :

على أنه ليس من المحقق ما إذا كانت الشروط النهائية للمخالفة العسكرية انتهى منها سفـراء صلاح الـدين سنة ١١٨٨ ، أو سفـارة أخرى جـاءت إلى القسطنطينية فى السنةالتالية ، فا لمعروف أن مبعوثين من قبل السلطان صلاح الدين كانوا بالقسطنطينية فى يونيـة ١١٨٩ عند استحكام الأزمـة فى العلاقات بين إسحـاق وفردريك بربـروسه ، ذلك أنـه حينما قرر الامبراطـور الألمانى فـردريك بربـروسه ١١٨٨ الاشتراك فى الحملـة الصليبية الثالثة ، أخطر الامبراطور إسحـاق بعزمه على اجتياز أراضيه فطلب السماح له بالمرور[3] ، وتعهد البيزنطيون بـاقامة أسواق ليفيد منها الصليبيون ، وتكفلـوا بتقديم ما

(١) Grousset : of . cit . Tome III p . 13 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٣٧ .

(٣) Grousset : of . cit . Tome III p . 13. 14.
Ostrogorsky : of . cit . p . 360 .

يلزم لنقلهم عبر البوسفور إلى الشاطىء الأسيوى ، ومع ذلك فإنهم لم يلبثوا أن طلبوا رهائن كيما يكفلوا السلوك الطيب من الصليبيين، هذه الشروط التى تخالف ما سبق للبيزنطيين أن دربوا عليه ، دلت على أن إسحاق لا زال يفكر فى اتخاذ إجراء عدائى ، فلم يدرك فحسب أنه شديد الالتزام بصلاح الدين ، بل إنه كان أيضا يخشى ما تتعرض له عاصمته من مهاجمة من قبل قوات بربروسه ، انتقاما لما سبق أن وجهه مانويل من إهانات عديدة إلى بربروسه ، ولما جرى من مذبحة فى اللاتين (١١٨٢م) وقبل إهانات وقبل مسير بربوسه (١١ مايو ١١٨٩) أرسل أسقف مونستر بصحبته جماعة من كبار الأعيان الألمان ليخطروا إسحاق بقرب وصوله (بربروسه) إلى القسطنطينية ، وحوالى منتصف يونيه ، وصلت هذه السفارة إلى القسطنطينية ولم تلبث أن جرى حبسها وسجنها ، والراجح أنه تم ذلك بناء على إلحاح ممثلى صلاح الدين، وكيفما كان الأمر ، فإن ما كان لسفراء بربروسه من خيول وأمتعة ، تقرر منحها للمسلمين ، على أن إسحاق ، بما لجأ إليه بطريق غير مشروع ، من اعتقال سفراء بربروسه ، ارتكب جريمة إزاء بربروسه وحملته الصليبية .

مراسلات إسحاق إلى صلاح الدين بشأن حملة فردريك :

وفى الوقت الذى قبض فيها الأمبراطور إسحاق على سفارة أسقف مونستر ، أرسل مبعوثين من قبله إلى صلاح الدين[١] ، ومن الواضح أن الغرض من ذلك التصديق على المحالفة .

وصل الرسل إلى صلاح الدين فى أغسطس ١١٨٩ ، وهو بمرج عيون بالشام ، وبالإضافة إلى ما هو معروف عند اللاتين من شروط ، جرى إضافة شرط يتعلق بالقيام بهجوم مشترك على قبرص والراجع أنه جرت مناقشة ما سوف تلجأ إليه بيزنطة مستقبلا من إخضاع سلطنة الروم ، ولعلها أيضا كانت تزمع الاستيلاء على أرمينية الصغرى وأنطاكية ، فلن يستطيع أن يعرض نفسه لغارات وهجمات الجيش الصليبى ، إلا إذا كان قد حصل على وعود محددة ، وإذا خشى صلاح الدين بربروسه ، لم يتردد فى أن يبذل لإسحاق من الأراضى ما ليس بحوزته مقابل تدمير الجيش الألمانى[٢].

---

(١) Ostrogrsky : op . cit . p 360 .
Grousset : op . cit . Tome . III . P. 13 .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣١٧ ، ٥٨٥ ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .

وطلب البيزنطيون من صلاح الدين أيضا أن يبعث لهم ببعثة من علماء الدين ، بدلا من التى وقعت فى أيدى الجنويين ، لإقامة الخطبة باسم الخليف العباسى فى جامع القسطنطينية ومن الطبيعى أن يحرص صلاح الدين على الاستجابة لهذا الطلب، ولذا أرسل بصحبة السفير إماما ، ومنبرا وطائفة من المؤذنين ، والقرّاء لتلاوة القرآن ، وجرى الاحتفال باستقبالهم استقبالاً باهرا ، وجرت أول خطبة ، وشهدها عدد كبير من تجار المسلمين ورحّالتهم [١].

ولما مات مبعوث إسحاق فى الشام ، والراجح أن ذلك وقع فى أواخر صيف سنة ١١٨٩ ، أوفد سفيرا ثانيًا ، ليتم المفاوضات ، كان إسحاق يأمل فى أن يحصل على مساعدة حربية من صلاح الدين ، لأن فردريك بربروسه لن يجد عناء شديدا فى معالجة ما صادفه من قوات بيزنطية ، وأدرك الامبراطور أن أخبار هذه الأحداث سوف تبلغ فعلا الشام غير أن حرب العصابات التى قام بها البيزنطيون ، عرقلت - الامبراطور الألمانى منذ أن دخل إلى الامبراطورية ، ففى الجهات الممتدة من نيش إلى صوفية ، نجح فردريك فى أن يطرد جيشا بيزنطيا من استحكاماته ، وبالقرب من فيليبوبولس ، أنزل الهزيمة مرة أخرى بقوات إسحاق[٢] . وما كاد بربروسه يتأكد عنده خبر اعتقال سفارة أسقف مونستر ، حتى تعاهد بأنه سوف يُرغم البيزنطيين على إطلاق سراح هذه البعثة بالإغارة عن تراقيا ، وعلى الرغم من أن الأسقف ورفاقه قد أطلق سراحهم حوالى ٢٠ أكتوبر سنة ١١٨٩ م ، ظل إسحاق على ولائه لصلاح الدين ولم يسمح للألمان باجتياز بلاده إلى آسيا[٣] . وعندئذ أصر فردريك بربروسه على غاراته ، فاستولى على أدرنَه بل إنه أعد خطة لحصار القسطنطينية[٤] ، ولم ييأس الامبراطور البيزنطى من الحصول على مساعدة من قبل المسلمين حتى فبراير سنة ١١٩٠ ، حين حلت به الهزيمة ، ووافق على معاهدة أدرنه ، التى تقضى بأن يسمح إسحاق للامبراطور الألمانى ، بشراء المؤن من الأسواق وبالعبور إلى آسيا الصغرى) وأن يقدم من الرهائن ما يكفل ضمان السلوك الطيب من قبل البيزنطيين[٥] .

---

(١) أسد رستم : الروم ص ١٧٢ .

(٢) Runciman : op , cit . vol III . p . 13 , 14 .

(٣) Grousset : op . cit . Tome . III. 12 , 13 .

(٤) Ostrogorsky : op . cit . P 361 .

(٥) أسد رستم : الروم ص ١٧٢ .

وفى ضوء ما أحرزه فردريك بربروسه من انتصارات ، كانت رسالة إسحاق المؤرخة حوالى ديسمبر ١١٨٩ ، والتى أنفذها مع الرسول المتوفى ، إلى صلاح الدين ، أثناء الحصار على عكا ، خليطا من الأسى ، والتهديدات الجوفاء وبالتظاهُر بالشجاعة ، والتوسلات بأن يقوم صلاح الدين بأعمال إيجابية . ونص هذه الرسالة ، التى لا شك فى أصالتها ، والتى أوردها أحد رفاق صلاح الدين فى مؤلفه عن سيرته[1] ، تكشف ما انتاب إسحاق من مخاوف فى لحظة حرجة أثناء قيام المحالفة[2] : وهذا هو نص الرسالة: لاهميتها بالنسبة لمستقبل العلاقات البيزنطية الإسلامية « قدم الرسول بخطاب عن موضوع تجرى الاهتمام به ، وفيما يلى وصف لهذه الوثيقة ، إذ أنها خطوط عريضة طويلة ، غير أنها تزداد ضيقا بين الخطين على ما هو معروف فى بغداد من الكتابة ، ووردت الترجمة فى القسم الثانى ، من الورقة فى باطنها وظاهرها ، وجرى إثبات الخاتم بين القسمين.وكان هذا الخاتم من الذهب ، انطبع عليه صورة الملك ، ويزن خمسة عشر دينارا . ويجرى شطرا الكتاب كما يأتى « من إيساكيوين (إسحاق) الملك ، خادم المسيح ، المتوّج بفضل الله ، الامبراطور المظفر دائما المجيد ، والذى يحكم باسم الله ، الذى لا يقهر ، طاغية اليونانيين ، أنجيلوس ، إلى عظمة سلطان مصر ، صلاح الدين ، خالص المحبة والود ، وما أرسلته سيادتكم من رسالة إلى جلالتنا ، وصلت بسلام ، لقد طالعناها ، ووقفنا منها على وفاة رسولنا ، وسببت هذه الوفاة لنا كدرا شديدا ، ولاسيما لأنه مات فى أرض أجنبية ، دون أن تتم ما عهدت به إليه امبراطوريتنا من أعمال وكان لابد أن يتدارسه مع سيادتكم . ولاشك أن سعادتكم إنما تقصدون بأن تبعثوا إلينا سفيرا لينهى إلى امبراطوريتنا ما اتخذ من قرار يتصل بالمهمة التى كلفنا سفيرنا الراحل بإعدادها ، وما تركه من متاع أو ما يصح اكتشافه بعد وفاته ، لابد من إرساله إلى امبراطوريتنا حتى يصح تسليمه إلى أبنائه وأقاربه ، وليس فى وسعى أن أعتقد أن سعادتكم سوف تستمعون إلى التقارير السيئة عن مسير الألمان فى أملاكى ، وليس ما يدعو إلى الدهشة ، أن أعدائى سوف يذيعون الأكاذيب لتحقيق أغراضهم . فإذا أردت أن تعلم الحقيقة ، فسوف أخطرك بها ، فما يعانون من المشاق والإرهاق يعوق ما يسومون

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١١٥ .

(٢) Lane - Poole : op . cit . p 265 .

به الفلاحين ببلادى من العـذاب ، إذ أن خسارتهم فى المال والخيل والـرجالـة ، كانت بالغـة الفداحـة ، إذ فقدوا عـددا كبيرا من الجند ، ولم يفلتـوا من جنـودى الشجعان إلا بصعوبة ، وحل بهم من التعب والإرهاق ، أنهم لم يكن بوسعهم الوصول إلى ممتلكاتك ، بل إنهم إذا نجحوا فى الوصول إليها فليس فى وسعهم أن يبذلوا المساعدة لرفاقهم ، ولن يلحقـوا بسيـادتكم أدنى ضرر ، فإذا جـرى الإمعــان فى هـذه الأمـور ، فإنى لشـديـد الدهشة، لما حدث من إغفالكم علاقاتنا الطيبة السابقة ، وإنكم لم تؤدوا لامبراطوريتى شيئا من خططكم ومشروعـاتهم حتى ليبدو أن النتيجة الوحيـدة لصداقتى معكم ، أنها جرت على كـراهية الفـرنج وكل أجناسهم ، فيتحتـم على سعادتكم أن تـوفوا بما ورد فى رسالتكم ، من نيـة ترمى إلى أن تبعثوا إلىَّ بسفير يخطرنى بما اتخذتموه من قـرار ، فى الأمر الذى بعثت إليك رسالة عنه منذ زمن طويل . فليجر ذلك بأسرع ما يكون وإنى لأرجو الله ، أن قدوم الألمان ، الـذين سمعت عنهم روايـات عديـدة ، سوف لا يكـون له وزن عنـدك ، فما اتخذوه من خطط وأغـراض سـوف تؤدى إلى اضطـرابهم ، تحرر فى سـنـة ١٥٠١ ، من التقـويم السـلجوقى ، الموافق أول سبتمبر ١١٨٩-٣١ أغسطس سنة ١١٩٠[1] .

وما تردد فى الـرسالة من الشكوى وخيبـة الأمل ، وما جرى من ترويـد المطالب ، للـوقـوف على أغـراض صـلاح الـدين ، ومـا انطـوت عليـه من عبـارات عما إذا كـان الصليبيون سوف ينجحـون فى الوصول إلى الشام ، كل ذلك زاده شعـور إسحاق بفشله فى تدمير بربروسه[2] ، وكراهيته الشـديدة لما لجأ إليه صلاح الـدين من التسويف ، وفى فبراير - أبريل ١١٩٠ ، وفى نفس اللحظة التى عقد فيها الصلح مع فردريك ، وسمح له باجتياز ار ضيه ، كتب إسحاق للمرة الثانيـة ، يذكر صلاح الدين ، بأنه أعاد الخطبة للخليفة ا' عبـاسى فى مسجـد القسطنطينية ،ويؤكـد من جـديد صـداقته للمسلمين ، وشرح أ ضـا بأنـه اضطر إلى أن يسمح لـفردريك بـاجتياز بـلاده ، غير أنـه أعلن أن

---

(١) لا شك فى صحة هذه الرسالة ، لا فحسب فى وصف ما ورد فى الخطاب من عبـارات التحية وما اشتملت عليه من الإقناع ، بل إن الفاظ الرسالة وجرسها تعتبر من عبارات إسحاق أنجيلوس .
وأما التقويم السلجـوقى فكان شائع الاستعمال عند الجانبين . انظر : أبو شـامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ ، ابن الأثير : الكـامـل ج ١٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن شـداد : النـوادر السلطــانيـة ص١١٦-٣١٧.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٩ ، ابن شداد : النوادر السلطانية .

الامبراطور الألمانى وجيشه لن يستطيعوا القتال إذا وصلوا إلى الشام[١] . « لقد اتبع الامبراطور كل أنواع الخداع والغش أثناء مسيره ، وما تعرض له من متاعب ، وما تعرضت له مؤنه من النقص ، كل ذلك أضعفه وأقلقه ، فلن يبلغ بلادكم فى صورة سليمة ، فسوف يجد قبره هنالك، ولن يعود إلى بلاده ، وسوف يقع فريسة فى الشَّرَكِ الذى نصبه »[٢].

كرر إسحاق أنه فعل كل ما فى وسعه لتحطيم جيش بربروسه ، وألحَّ على صلاح الدين أن يبعث إليه رسولا يحمل الردود على المطالب البيزنطية ، ووفقا لرواية عماد الدين الكاتب ، اشتد تأثر السلطان ، واتخذ قرارا يتفق مع رغبات إسحاق ، والراجح أن هذا لا يعنى سوى أن صلاح الدين أرسل سفارة جديدة إلى القسطنطينية[٣] .

رفض صلاح الدين لطلبات البيزنطيين:

وفى تلك الأثناء ، غادر فردريك بربروسه أراضى الامبراطورية البيزنطية ، واجتاز آسيا الصغرى إلى قونية ، عاصمة سلطنة سلاجقة الروم ، وهذه المدينة التى صمدت اسوارها لمانويل كومنين ، اقتحمها فردريك دون عناء[٤] ، فتبين لصلاح الدين أن ما زعمه إسحاق أنجيلوس عن تدمير الجيش الصليبى ، إنما هو من قبيل الخيال والوهم ، أما تقدير فردريك عن خسائره فى تراقيا ، التى تبلغ حتى ١٨ نوفمبر سنة ١١٨٩ نحو مائة رجل بعد حرب عصابات امتد نطاقها وبعد الغارات على المدن البيزنطية ، وبعد أن وقع اشتباكان مع جيش إسحاق فإنه دل على أن إسحاق لم ينفذ إلا قليلا من خطته التى وضعها لتدمير الصليبيين[٥] ، ومع ذلك فإن بربروسه أقر بأن خيوله تناقص عددها

---

(١) ابو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٥٩ .

(٢) Lane - Poole . of . cit . p 565 .

Grousset : of . cit . Tome III . p . 13.

(٣) نقل أبو شامة فى كتاب الروضتين ١٦٠ باختصار ما أورده رواية العماد الكاتب فى شأن هذه الرسالة ،وما احتوته الأجزاء الأخرى من هذه الرسالة يدل على أنها تختلف عن الرسالة السابقة المؤرخة فى ديسمبر ١١٨٩ .

أبو شامة : الروضتين ١٦٠ .

(٤) Runciman : of . cit . vol III P. 15.

Ostrogorsky : of . cit . p . 320.

(٥) أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٦٠ .

وما كان من تـداعى هجمات إسحاق على الجيش الألمانى الصليبى ، وقف عليه صلاح الدين من التقارير التى وصلتـه عن سيرهم فى آسيا الصغرى ، ومن أشهر هذه التقارير الرسـالة الـواردة من باسيل أسقف أرمينيـة ، وهو من الـذين انحازوا إلى صـلاح الدين بسبب مـا يكنـه من الكـراهيـة لأرمينيـة الصغـرى ، التى يحكمهـا بيت روبين الموالى للصليبيين ، على أن الأسقف أورد رواية حافلة بالمبالغة والمغالاة عن قوة الجرمان وحسن نظامهم وصبرهم على تحمل الشدائد ، وعـرض المؤرخون العرب فى ذلك العصر لما أثاره تقدم بربروسه[1] فى معسكرهم من الخوف ، وفى يـونيه سنة ١١٩٠م غرق فـردريك عند حدود إقليم روبين ، وتلى ذلك مبـاشرة تفرق جيشه[2] فى صيف ١١٩١ أرسل أسحـاق مرة أخـرى إلى صلاح الدين رسولا يحمل هـدايا ورسالـه شفوية واستقبله العـادل أخو صلاح الدين ووزيـر خارجيته وكرر فى رسـالته جهوده ضد الصليبيين وفى وجـه الدعوة للحمـلات الصليبية ، على أن صـلاح الـدين تـوافر لـديـه من التقـارير مـا تفيـد بأن الامبراطور البيـزنطى بذل كل مـا يستطيعه لتحطيم الألمان ، وكـان يقصد بـذلك أيضا حماية بـلاده من الصليبيين ، بينما يزعم أنه يعمل لصالـــح المسلمين . أمـــا بطريـركية بيت المقدس ، التى استنـدت إلى الامبراطور البيـزنطى وقتئذ واعتمدت عليـه ، فجرت الروايـة أن إسحاق أخطـر اللاتين من قبل بأن إشرافه وسيطـرته عليهـا ، لن يستمرا إلا ريثما يتولى البطـريركية رجل من أتبـاع أمراء الغـرب ، وبهذه الدعوى زعم إسحـاق أنه أبعـد عن شخصـه خطر الـلاتين ، ولا سيما بعـد أن استقـرت فى القسطنطينية الخطبة للخليفة العباسى ، ووفقا للقاضى الفاضل رفض صلاح الدين آخر الأمر ، كل طلبات البيـزنطيين، وقد أوضح القـاضى الفـاضل أن الامبراطور البيـزنطى سبق أن طلب من صـلاح الـدين أن يجعل لـه الإشراف على بيت المقدس أو يشترك معـه فى الهجـوم على قونيه[4] وعلى الـرغم من أن الامبراطـور شرع من جـديد فى التماس حلفـاء فى الغـرب ، بسبب ازدياد قوة هنـرى السادس الهوهنشتا وفن فإنه لم ييأس أبـدا من أن صلاح الدين سوف يوفى بـوعوده[5] . ففى ١٥ مـايــو ١١٩٢ ، وصل إلى بيت المقـدس رسـول من

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٠- أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢) Grousset : of . cit . Tome III. p. 12, 13.

(٣) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٧٧ .

(٤) Runciman : of . cit . vol III.. p. 29 .

(٥) Grousset : of . cit . II. p . 748 .

القسطنطينية ، وبعد يـومين استقبله صلاح الدين ولم تكن طلبـاته إلا تكرارا لما ورد من نصوص فى المعـاهدة التى جرى الزعم بـوجودها فعلا ، واشتملت هـذه النصوص على المطالب المتعلقة بـالصليب المقدس (قطعة مـن الصليب) الذى استولى عليـه صلاح الدين ، وأملاك الكنائس الأرثوذكسيـة فى بيت المقدس (التى فكر صلاح الدين فى أن يتنازل عنها للاتين ثمنـا لرحيل ريتشارد قلب الأسد) ، وإجراء محالفة دفـاعية هجومية بين الدولتين ثم القيـام بحملة بحريـة مشتركة ضد قبرص ، وعلى الـرغم من الزعـم بأن صـلاح الـدين رفض هـذه الشروط ، ويصح أنـه أعطى الـرسـول قطعـة من الصليب المقدس ، فإنه أنفذ رسـولا إلى القسطنطينية ، لمراجعة الشروط سنة ١١٩٢ أى فى العام الذى سبق وفاته .

ويشير المقريـزى إلى ذلك فى حوادث سنـة ٥٨٩ هـ فيقـول : « وفيها قـدم رسول متملك القسطنطينيـة يطلب صليب الصلبـوت ، فأحضر من القـدس وكان مـرصعـا بالجوهـر ، وسلم إليه على أن يعـاد ثغر جبيل من الفـرنج ، وتوَّجَهُ الأمير شمـس الدين جعفر بن شمس الخلافة بذلك[1] .

وأرسل صلاح الـدين مع سفيره ، ما جرت العـادة به ، من الهدايا القيمـة : ومنها الخيـول ، وحيوانـات بريـه وأليفة ، وسروج الخيل المطهمـة بالتحف والـلآلىء[2] . وفى أواخـــر الصيـف أو فى مستهل الخريف ارتحل السفيران البيـــزنطى والأيـــوبى إلى القسطنطينية على سفينة بندقية ، يمتلكها أحد الأفراد اسمه بوردانو ، وحدث أن التقت السفينة بالقـرب من جزيرة رودس بأسطول للقـرصان الجنويين والبيازنـة ، بقيادة قائد جنوى جعل من نفسه مصدر رعب للمنطقة . فتم استبـاحة السفينة البندقية ، وتعرض للموت رسـولا إسحاق وصـلاح الدين ، كما استـولى على قطعة الصليب المقـدس أحد البيازنة ، واسمه فورتى Forti فحملها إلى حصن البيازنة فى بونيفاكيو على ساحل جزيرة فورسيقـه، حيث استولى عليها سنـة ١١٩٥ م أحد الجنـويين ، فأضافها إلى المقـدسات الدينية المحفوظة بالمدينة[3] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٢٠ .

(٢) Runciman : op. cit . vol III . p . 74 .

(٣) Runciman : op . cit . III. p . 63 .

وفى نوفمبر سنة ١١٩٢ ، رفع إسحاق الشكوى إلى جنوه وبيزا ، عن هذا الحادث، وغيره من أعمال القرصنة ، ويبدو أنه حصل من جنوه على تعويض عما تعرض له من خسائر مالية . على أن علاقات الامبراطورية البيزنطية بصلاح الدين انتهت عند هذا الحادث . إذ انخدع صلاح الدين فى كفاية إسحاق الحربية ، بينما أدرك إسحاق أن صلاح الدين يبلغ من البعد عنه مالم يتيسر له أن يحميه من اللاتين(١) .

ولما مات صلاح الدين ١١٩٣ ، لجأ الامبراطور إسحاق إلى تغيير سياسته فعقد محالفات مع جنوه وبيزا ، والبابا ، والنورمان فى صقلية ، وكان يأمل من ورائها ، أنها تربحه من ارتكانه السابق على المسلمين ، والخلاصة أن الفترة الواقعة بين سنة ١١٨٥ ، ١١٩٢ كان التحالف فيها مع صلاح الدين ، يعتبر حجر الزاوية فى سياسة بيزنطة الخارجية . إذ أن الامبراطورية البيزنطية ارتكنت إلى قوة المسلمين(٢) ، فى سوريا ومصر ، لمهاجة ما يكنه لهامن العداء النرمان ، والبيازنة ، والجنويين ، والامبراطور الألمانى والبابا والواقع أن إسحاق أنجيلوس بصفة خاص ، استمد من هذا التحالف من الشعور بالثقة والاطمئنان ما أدى آخر الأمر إلى وقوعه فى مشاكل عديدة إذ أن عداءه للامبراطور بربروسه نشأ أساسا من هذه المسألة ، فكيما يفى بما التزم به فى المعاهدة ، كان لزاما عليه أن يقاوم كل جيش صليبى يجتاز أراضيه وما كان يأمله من جزاء ، مقابل ذلك ، لم تكن سوى الأهداف التى تطلع إسحاق وآل كومنين الأول لتحقيقها ، وهى استعادة قبرص واسترجاع الأراضى المقدسة(٣) ، وإعادة حدود آسيا الصغرى إلى ما كانت عليه فى القرن العاشر الميلادى ، وترتب على فشل التحالف مع صلاح الدين ، أن تغيرت السياسة نهائيا ، واتخذت صورة التقارب مع الدول الصغيرة فى الغرب لمواجهة أطماع الامبراطور هنرى السادس ، التى أخذت فى الازدياد والنمو(٤) .

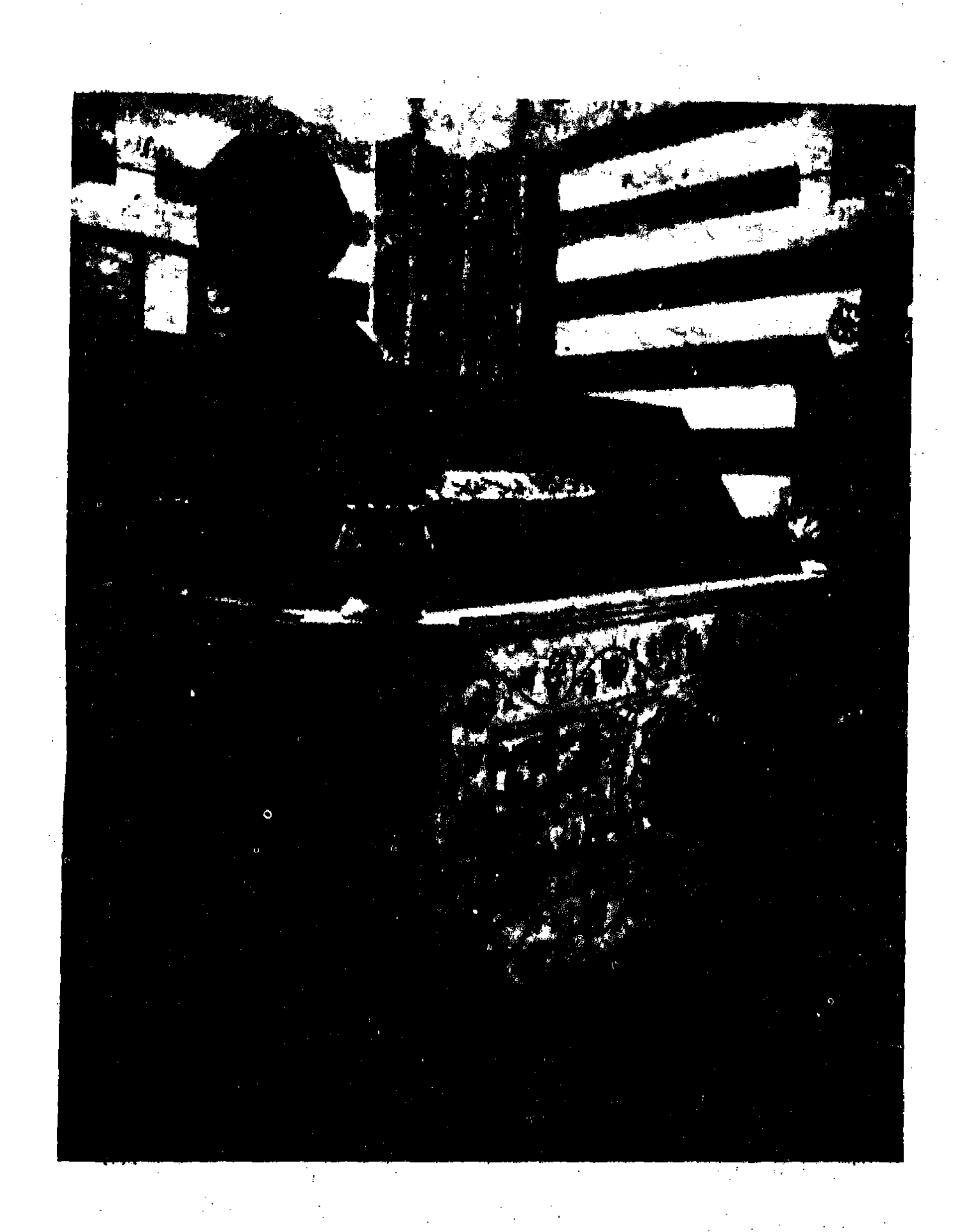
كان للتحالف البيزنطى الإسلامى أثر كبير فى مجرى الأحداث بالشام ، من ذلك أنها عجلت باستسلام بيت المقدس ، على الرغم من أن أحوال المدينة بلغت من السوء ما جعلها عاجزة عن الصمود لقوة المسلمين المتزايدة ، ولو أن حملة بربروسه وصلت فعلا إلى الأراضى المقدسة ، بكامل قوتها ، وجودة نظامها وتدريبها ، لتغير الموقف ، غير أن تدميرها لم يكن بحال من الأحوال من أعمال إسحاق ، فإن أقوى ما قام به من هجمات لم تؤثر فيها ، فقد عانى الصليبيون من المناخ والطرق ما يزيد كثيرا على ما عانوه

(١) Runciman : of . cit . vol III. p. 65 .

(٢) أسد رستم : الروم ص ١٧٢ .

(٣) Gibboms : of . cit . vol . VI p. 406 .

(٤) Ostrogorsky : of . cit . p . 368 .



قبر صلاح الدين بدمشق

من الامبراطور ، ولم يحصل الامبراطور من وراء التحالف مع صلاح الدين إلا على مزايا مادية ضئيلة ، فعلى الرغم من إنه صار فى حوزة الأرثوذكس ، بعض كنائس الأرض المقدسة ،فإن قبرص ، التى استولى عليها اللاتين ، أصبحت قبيل وفاته حليفا له ، وبقيت قونيه فى أيدى المسلمين ، ولم تغير المحالفة مع صلاح الدين ، برغم ماكان لها من أثر على وضع الامبراطورية بالشرق إلا شيئا ضئيلا[1] . أما النتائج السيئة للتحالف مع المسلمين على سمعة البيزنطيين ، فاستمرت زمنا طويلا ، فالواضح أن اللاتين فى سوريا أزعجهم هذا الترابط ، وسعوا إلى التشهير به فى سائر أنحاء أوربا ، إذ أن فردريك بربروسه ، أثناء اجتيازه تراقيا ، بعث إلى ابنه هنرى يطلب إليه أن يحث البابا على أن يدعو لحرب صليبية ضد البيزنطيين ، وما حدث من حرص ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس والحملات الصليبية المتأخرة ، على اتخاذ الطريق البحرى ، كان شديد الارتباط بعلاقات إسحاق مع المسلمين[2] ، ولاشك أن ذكرى هذه السياسة تأثر بها رجال الحملة الصليبية الرابعة ، إذ جرى استخدامها للتشهير بالامبراطورية الشرقية (البيزنطية) . فطوال القرن الثانى عشر فى زمن الحملة الصليبية ، سنة ١١٠١ ، وفى أثناء النضال بين بوهمند وبين الكسيوس كومنين ، وبعد الحملة الصليبية الثانية ، جرى تحطيم كل ما لصق بالبيزنطيين من التُّهَم ، التى تشير إلى ممالأتهم للمسلمين ، أما فى هذا المثال الأخير (التحالف بين إسحاق وصلاح الدين) فإن هذه التهم لقيت التبرير، إذ أن المحالفة أدت إلى التداعى الظاهرى فى مكانة الامبراطورية والتقدير الذاتى لها . فمن ناحية النظريات السياسية قلما اعترفت بيزنطة بدولة أنها ندٌّ لها منذ زمن الساسانيين ؛ لأن الامبراطورية الرومانية ليست إلا أداة - اختارها الله ، لنشر المسيحية فى العالم وإدارته ، وما من دولة تستطيع أن تقترب منها إلا على أنها خادم تابع ذليل . ولما حاول الأباطرةُ البيزنطيون التماس صداقة صلاح الدين ، سعوا إلى أن يبقوا على هذه الصورة ، مثلما حدث حينما طلب أندرونيكوس من صلاح الدين أن يبذل له الولاء ، وحينما أرسل إسحاق تاجا ، يقترن بتصريح ينطوى على فكرة أن بيزنطة لا زالت تحتفظ بحق منح الألقاب الشرعية أو منعها ، ولما تجاهل صلاح الدين هذه الأمور أو أنكرها ، فإن واقع الموقف وحقيقته لم تلبث أن ألزم بيزنطة بأن تتخذ وضع التابع الذليل ، نظرا لأنها أضعف شأنا ، وقبل إسحاق كرها ما أنزله الصليبيون والجرمان من الخراب

(١) Munciman : of . cit . vol VI. p. 374 .

(٢) Muvciman : of . cit . vol III p. 13,14

بأراضيه ، لما كان يأمله من أن - صلاح الدين سوف يكافؤه على أنه خدمة بإخلاص[١] لم تجد كل محاولة للتوفيق بين دعاوى البيزنطيين وواقع الأمور السياسية . فدعوى السيطرة جرى اغفالها ., حينما تضاءل كبرياء أندرونيكوس ، وليس أدل على ذلك من أن المؤرخ البيزنطى نكيتاس لم يشر إلى التحالف مع صلاح الدين ، على الرغم من أنه كان من كبار موظفى الدولة البيزنطية ، ولابد أنه وقف على كل ما يعتبر معروفا بصفة عامة فى الغرب .

وهكذا فشل التحالف بين البيزنطيين والمسلمين ، ضد العدو الدخيل (اللاتين) إذ كان صلاح الدين من البعد ما يجعل من العسير عليه أن يحمى إسحاق من أعدائه، ولم تكن أحوال البيزنطيين تسمح لهم بإبداء مقاومة عنيفة للصليبيين ، أما تقدير المسلمين لقيمة هذا التحالف فظهر فى صراحة فى رسالة القاضى الفاضل التى حررها حينما كان جاى ملك قبرص حليفا لصلاح الدين ، بقوله : « ينبغى ألا يجعل مفاوضاتنا مع حاكم القسطنطينية ، فيما يتعلق بالمساعدة التى لا بد أن تبذلها له لمهاجمة قبرص ، لأننا لم نعده بهذه المساعدة إلا حينما كانت البلاد (قبرص) فى أيدى أعدائنا ، والواقع أن الملك اليونانى لم ينجح مطلقا فى حملاته ومعاركة ولم نجنِ شيئا من صداقته ، ولن تخيفنا عداوته »[٢].

وتقدير إسحاق لقيمة هذا التحالف أشد عبوسا إذ « يبدو لامبراطوريتى أن النتيجة الوحيدة التى نجمت عن صداقتى لك ، أنها جرت على كراهية الفرنج وجميع أجناسهم »[٣] وما حدث من التحالف مع صلاح الدين زاد فى كراهية الغرب للبيزنطيين ، والتى بلغت ذروتها فى تحول الحملة الصليبية الرابعة ، واستيلاء اللاتين على القسطنطينية ، وما حدث من قبول إسحاق ، القيام بدور ثانوى فى محالفته هيأ الطريق مرة أخرى ، إلى هبوط مكانة امبراطورية كانت عظيمة، فصارت دولة صغرى فى شرق البحر المتوسط .

---

(١) Ostrogosky : of . cit . p . 360 .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٧٨ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢١٠ .



الفصل الخامس

بيزنطة وخلفاء صلاح الدين

١١٩٣ - ١٢٥٠م

الدولـة الأيوبية بعـد صلاح الدين – العـلاقة بين بيزنطـة وخلفاء صلاح الـدين – الحملة الصليبية الرابعـة وتحولها إلى القسطنطينية سقوط القسطنطينية – انقسـام الامبراطورية البيزنطيـة امبراطورية نيقيـة البيزنطيـة – امبراطـورية طـرابيزون البيـزنطيـة والسلاجقـة الامبراطـوريـة اللاتينية بـالقسطنطينيـة – سياسـة الأيـوبيين مع السلاجقة – الأيوبيون والحملة الصليبية السابعة .

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين :

حينما مات صلاح الدين ، فى ٤ مارس ١١٩٢، تمزقت الوحدة التى فرضها فى امبراطوريته بفَضل قوة شخصيته وسلطانه ، وأضحت كل الأقاليم باستثناء الكرك ، مستقلة . وترتب على ذلك أن صار لبلاد الشام بناء سياسى من نوع خاص إذ أصابها من الانقسام ، ما اتصف به قبل زمن السلاجقة ، وما حدث من الاضطرابات التى ولدتها المنازعات فى البيت الأيوبى ، وأطماع بعض أفراده وحرص أميرى حلب ودمشق على المحافظة على استقلالها من أطماع أقاربها الأقوياء فى مصر والجزيرة ، كل ذلك جعل هذه المرحلة من تاريخ الأيوبيين تتسم فى الظاهر بالفوضى والاضطراب ، على أن ما يجعل لهذه الرحلة شيئًا من التماسك ما اتصفت به الأسرة الأيوبية فعلا من الترابط ، الذى زاده قوة ومتانة ، ما حدث من المصاهرات التى انعقدت بين أفراد الأسرة ، وما كان للإدارة التى تتسم بالروح الدينية من تأثير قوى ، بفضل تمسكها بتقاليد نور الدين وصلاح الدين(١) .

ومن السمة البارزة فى السياسة الأيوبية : المحافظة على علاقات المسالمة والمهادنة مع إمارات الفرنج فى الشام ، ولم يحدث إلا قليلا أن اتخذ الأيوبيون خطة مهاجمة الفرنج(٢) .

ومن عوامل الاستقرار أيضا ما كان يحدث فى كل جيل من ظهور زعيم قوى فى الأسرة ، كان يظفر فى الوقت المناسب بفرض سلطانه على سائر الأمراء الآخرين على الرغم مما تعرض له فى الأجيال المتتالية من مقاومة عنيفة ، ففى الجيل الأول كان العادل أيوب شقيق صلاح الدين هو المسئول الأول عن كيان الأيوبيين ، والمعروف أن العادل كان أعظم مستشارى صلاح الدين ، وكان أقوى أفراد الأسرة ، بعد صلاح الدين وأكثرهم كفاية ، فلم تكن مكانته فحسب راجعة إلى مناهضته أبناء صلاح الدين صغار السن ، والذين افتقروا إلى الخبرة والتجربة ، بل لدرايته التامة بأحوال الإمارات الداخلية ، نظرا ، لأنه تولى إدارة مصر وحلب والكرك فى أزمنة مختلفة(٣) .

---

(١) Setton : of . cit . vol , II. p. 644.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٧٨ .

Setton: of . cit . vol, II p. 695 .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ١١٠ .

وفى السنوات الستة التالية لوفاة صلاح الدين أمد العادل سلطانه إلى الشام ومصر وحرص على توطيده ، ولما اشتهر به العادل من الكراهية للحرب جعل من الدبلوماسية والتآمر أهم الأسلحة عنده ، وما وقع من المنازعات والمخاصمات بين أولاد صلاح الدين هيأ له أوسع سبيل لاستخدامها[١] .

وفى ٤ أغسطس سنة ١٢٠٠ صار العادل سلطانا على مصر والشام واعترف بسلطنته سائر الأمراء فى الأقاليم ما عدا الظاهر عادى أمير حلب[٢] ، إلا أنه لم يسعه إلا الاعتراف بسلطنة العادل سنة ١٢٠٢م بعد أن هدده بمحاصرة حلب[٣] ، وما حدث من إخضاع أملاك الفرنج المتاخمة ، لا سيما فى الجنوب ، أبعدت كل خطر حقيقى عن قواتهم المحلية ، والخطر الوحيد الذى يصح الخوف منه ، هو احتمال قدوم حملة صليبية جديدة من جهة البحر ، وكانت مصر أهم ما يشغل بال العادل ، شأنه فى ذلك شأن صلاح الدين ، وظلت العساكر على أهبة الاستعداد فى مصر ، وإذ خشى ما قد يقوم به الصليبيون من غارات جديدة ، تنازل للصليبيين عن يافا والناصرة سنة ١٢٠٤ وعقد معاهدات تجارية مع إيطاليا .

العلاقة بين بيزنطة وخلفاء صلاح الدين :

الواقع أن للأحوال السياسية بأوربا الغربية تأثيرا كبيرا على اتجاهات السياسة البيزنطية ، ومن الدليل على ذلك أن ما جرى من أقدام أسرة أنجليوس على التحالف مع صلاح الدين وانتهاج سياسة مُوَالِيَةٍ للشرق ، أثار المتاعب لبيزنطة ، ذلك أن أباطرتهم لم يكن لهم من الطباع والخلال ما اتصف به أباطرة أسرة كومنين ، فلم تكن سياستهم موالية للاتين ، بل إن إسحاق أنجيلوس أرسل بعد وفاة صلاح الدين إلى العزيز عثمان سفارات وكتبا دلت على استمرار المودة وأشار فيها إلى اهتمامه بأمر الشعائر الإسلامية أخذ يوصيه خيرا بالروم فى الدولة الأيوبية[٤] . وإذ أضعف بيزنطة ما نشب بداخلها من حروب داخلية وحملاتها الفاشلة فى البلقان ، لم يعد بوسعها أن

---

(١) Setton : of cit . vol . II. p. 695.

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٣٧ .
المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٤٩ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٥٩ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ١٢٩ .

تنـاهض أطماع بيت هوهشتـاوفن[١] . وبـازديـاد تـدهـور وضع الصليبيين فى سـوريـا وفلسطين ، والفشل النسبى الـذى حـاق بـالحملـة الصليبيـةالثـالثـة ، اشتـد الاهتمام بالامبراطورية البيزنطية[٢] . فما جـرى من مخاصمات سياسيـة ، ومـا وقع من منافسـات تجارية ، وما حدث من الانشقاق بين الكنيستين الشرقيـة والغربية كل ذلك خلق وضعا جعل اشتراك الغرب فى قيام بهجوم على الامبراطورية البيـزنطية أمرا وشيك الوقوع ، فلم تكن الحرب الصليبية الثالثة إلا ستارا لأطماع فردريك بربروسه الذى خطب لابنه وريثة مملكة صقلية ، تمهيدا لاتحا د ألمانيا وصقلية تحت حكم أسرة واحدة[٣] ، وحينما تهيأ سنة ١١٨٨م للخروج اتصل بـالامبراطور البيزنطـى ، كيما ييسر له اجتياز بـلاده ، كما وطد علاقته بسلطان سلاجقة الروم فى قـونيه ، وتحالف مع بلغاريا ، فى عدواتها لبيزنطة ، ولما لم يكن بـوسع إسحاق أنجيلـوس أن يسانـد الحركة الصليبيـة تجهز فردريـك بربـروسه لمهاجمة إسحاق الذى تجرد من الكياسة الـدبلوماسية ، وأساء استخدام الموقف ، وكتب فردريـك إلى ابنه هنرى بأن يبعـث بأسطول لمهـاجمة القسطنطينية من جهةالبحـر ، فلم يسع الامبراطور إسحـاق أنجيلوس إلا أن يقبل شروط فـردريك ، ووقع معاهـدة أدرنه ١١٩٠م ، وبذا توقع فردريك بربروسه ما وقع سنة ١٢١٤ من أحداث[٤] .

أعد هنرى السادس بن فردريك بربـروسه حملة صليبية جديدة لفتح القسطنطينية والاستيـلاء على الامبراطـورية البيـزنطيـة ، قبل المضى إلى سـوريـا وفلسطين ، ولم يسع الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثـالـث أنجيلوس (١١٩٥-١٢٠٣) إلا المبادرة بتلبية مطـالـب هنرى ، التـى اقتضت تأدية إتـاوة بـاهظة ، ومع ذلـك فإن هنرى حـرص على توطيد مركزه فانتمى إليه ملكا قبرص وأرمينية الصغرى .

ولم ينته الخطر إلا بوفاة هنرى الفجائية سنة ١١٩٧[٦]. على أن القوات الصليبية لم يوجهها للإفادة من مـتاعببيزنطة سوى البندقية ومطامعها ، فما كان من تمزقالامبراطوريـة البيزنطيـة وانـقسامها ، هيـأ الفرصة لتفـوق البندقيـة البحرى وللقيـام بهذا العمل ، فى

---

(١) Camb. Med . Hist . IV. P. 441 .

(٢) Setton : of . cit vol . II p. 146-147 .

(٣) Setton : of . cit vol . II p. 147.

(٤) Setton : of . cit vol . II p. 148 .

(٥) Camb. Med . Hist .Vol . IV. P. 114.

(٦) Setton : of . cit . vol II p. 149 .

القرن الثالث عشر[١] . فلم تكن الحملة الرابعة مفاجأة للدوائر الدبلوماسية فى الغرب ، إذ أن الأحوال الداخلية للامبراطورية البيزنطية كانت شديدة الملائمة لهذا الهجوم ، فقد ازدادت -الامبراطورية ضعفا فى عهد آل أنجيلوس ولا سيما فى عهد إسحاق الذى انهارت فى عهده الامبراطورية البيزنطية ، وفقدت توازنها الاقتصادى ، ودب الفساد فى جهازها الحكومى ، وشبت الثورة فى بعض النواحى ولا سيما فى بلغاريا[٢] واستغل الكسيوس أنجيلوس شقيق الامبراطور هذه الفرصة فاستولى على العرش بعد أن عزل إسحاق واعتقل ابنه الذى استطاع الفرار إلى زوج شقيقته فيليب فى ألمانيا[٣] .

والمعروف أن الحملة الصليبية الرابعة كانت تهدف إلى الاستيلاء على بيت المقدس ومصر[٤] ، ولكن ما تعرضت له مصالح البندقية التجارية بالقسطنطينية من مناهضة ، أثار مخاوف البنادقة ، وأدركت أنه لا سبيل إلى المحافظة على امتيازاتها إلا بالإسهام فى القضاء على حكومة القسطنطينية ، فحرصت على تحويل اتجاه الحملة عن مصر إلى بيزنطة[٥] ، هذا فضلا عن العداء الشخصى الذى يكنه الدوق داندلو الذى كان يتولى أمر البندقية ، كما أن للبندقية علاقات تجارية واسعة مع مصر ، من مصلحتهم المحافظة عليها بل إن البنادقة عقدوا معاهدة مع السلطان العادل ، وأكد دوج البندقية أنه لا ينوى القيام بأى عمل أو الاشتراك فى أى حملة موجهة إلى مصر[٦] ، كما أن كراهية البندقية للامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث ، بلغت من المرارة أنها اعتقدت أنه لابد لها أن تنفرد بتجارة القسطنطينية ،يضاف إلى ذلك ما أحس به البنادقة من تزايد نفوذ جنوه وبيزا فى بيزنطة[٧] .

ومهما يكن من أمر فقد تعهدت البندقية بنقل الحملة ومدها بالمؤن فى مقابل ٨٥ ألف مارك ونصف ما يجرى فتحه من البلاد[٨] ، ولكن عجز الصليبيين عن دفع

---

(١) Camb : Med . Hist . vol IV. P. 411 .

(٢) Grousset : of . cit . Tome . III p. 17 .

(٣) Runciman : of . cit . vol III . p. III .

(٤) Setton : of . cit . vol II . p. 151 .

(٥) كلارى (روبرت) : فتح القسطنطينية ص ٤٠ .

(٦) أرسل العادل رسولاً إلى البندقية فأكد له رفضهم الاشتراك فى أى حملة تقصد مصر .

Runciman : of cit. III. p . 112 .

(٧) Runciman : of . cit . vol III. p. 113.

(٨) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٥ .

القسط الأول بسبب وفاة كونت شمبانيا شجع البندقية على العمل لتحويل اتجاه الحملة من مصر إلى القسطنطينية للاستيلاء على زارا(١) ، رغم إصدار البابا قرار الحرمان لكل من يستولى على أرض مسيحية ، وتقرر استدعاء الكسيوس أنجيلوس ، الذى كان يقيم عند زوج شقيقته فيليب امبراطور ألمانيا ليكتسب الهجوم صفة شرعية(٢) ، واغتنم رجال الحملة فرصة قلة الأقوات وطلبوا أن تكون وجهةالحملة القسطنطينية ولقى هذا الطلب استجابةً من مونتفرات قائد الحملة ومن عدد من الصليبيين فى حين عارضه آخرون ، رأى المؤيدون أنهم لن يستطيعوا المضى إلى القاهرة أو الإسكندرية وبلاد الشام نظرا لنفاذ ما معهم من ذخيرة أو أموال بعد أن أنفقوا كل ماعندهم بسبب تأخيرهم ، فضلا عما بلغهم عن ثراء بيزنطة الذى بهر الغربيين ، ويشير روبرت كلارى أن فريقا عارض فكرة المسير إلى القسطنطينية قائلا (ماذا سنفعل فى القسطنطينية ، لقد رسمنا خطتنا على أن نذهب إلى القاهرة أو الإسكندرية ، خلال سنة واحدة ، وها قد انقضى من العام نصفه(٣) ولكن إزاء إغراء دوق البندقية ووعوده للصليبيين بأنه سيمكنهم بعد استيلائهم على القسطنطينية من السير إلى بيت المقدس ومصر ، تقرر عقد اتفاق بينهم وبين الكسيوس تضمن تعهد الامبراطور المطالب بعرش الامبراطورية بدفع ٢٠٠ ألف مارك ، وإعلان تبعية الكنيسة الشرقية للغربية ، وإرسال عشرة آلاف جندى بيزنطى معهم لمحاربة المسلمين واستخلاص بيت المقدس ، كما تكفل بتموين جميع من يغادورن القسطنطينية إلى الأراضى المقدسة ، وذلك فى مقابل تنصيبه على عرش الامبراطورية .

انسحب بعض القادة احتجاجا على انحراف الحملة عن غرضها الأساسى واتجاهها لمحاربة بلد مسيحى وانفصلوا عنها واتجهوا إلى بيت المقدس ومن هؤلاء ريجنالد وتيرال ، ولكنهم كانوا قلة(٤) .

مضت الحملة لمحاصرة القسطنطينية وطلبت من الكسيوس التسليم بحق إسحاق ولكن الكسيوس رفض ، ولم يكن بالشخص القدير ، ولم يكن جيش الامبراطورية قد

(١) Gibbon : of . cit VI p. 419 .

(٢) Ostrogorsky : of . cit . P . 376 .

(٣) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٤٥ .

(٤) Runciman : of . cit . vol III . p. 116.

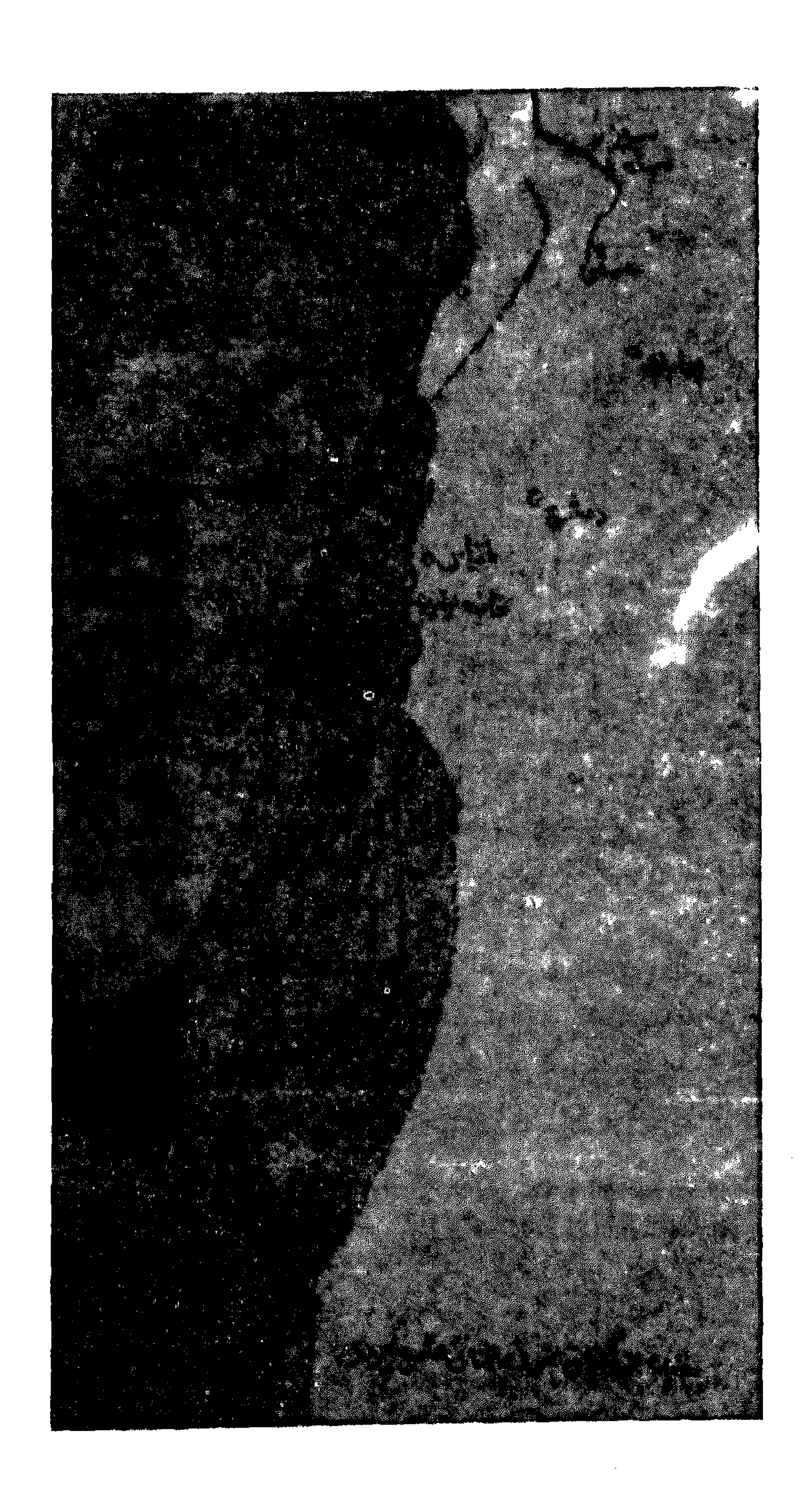
استعاد قوته بعد هزيمة مانويل وأصبح غالبيته مرتزقة فلم يصمدوا وهرب الامبراطور وسقطت القسطنطينية وتم تتويج الكسيوس وأبيه أنجيلوس فى مقابل وفائهما بما التزما بـه ، وحصلوا من الكسيوس على مائة ألف مـارك اقتسموهـا مناصفـة ، وطلب منهم الكسيوس فتح بقية الامبراطورية مقابل مكافأة مالية ضخمة ، وعاث بعض الصليبيين فسادا فى المدينة فأحرق بعض الفرنسيين الجامع المقام فى القسطنطينية الذى تبودلت بين صلاح الدين وأندرونيكس وإسحاق الرسائل بشأنه ، واستمر الصليبيون والبنادقة فى مطالبة الكسيوس بالمال ، وكان الامبراطور استنفذ الأموال فى استرداد المدينة وطلب من الدوق الرحيل بينما ظل الدوق يتهدده ويذكره بما له عليه من الأيادى .

أخذ الامبراطور يماطل فى دفع تعهداته ، بينما اعتبر اليونانيون الامبراطور صديقا للصليبيين المعتدِين ، فتآمر عليه جماعة من اليونانيين وقتلوه ، ولم يمد له الصليبيون يد العون ،وعاد الصليبيون إلى محاصرة القسطنطينية وسارعت البندقية إلى عقد اتفاقية قبل سقوط المدينة ، كان من شروطها الحصول على ثلاث أرباع الغنيمة والاحتفاظ بجميع الامتيازات التجارية وأن ينتخب الامبراطور مجلسًا من الفرنسيين والبنادقة ، والحصول على كنوز أيا صوفيا وانتخاب البطريك منهم[1] .

سعى البيزنطيون (فى القسطنطينية) إلى الاستنجاد بأعدائهم القدامى السلاجقة فلم يمد السلطان العون إلى أعدائه القدامى بل اعتبرها فرصة سانحة لإذلالهم[2] .

---

(١) ديل : البندقية ص ١٣٦ .
(٢) ابن الأثير / الكامل ج ١٢ ، ص ٧٩-٨٠ .



عرض أهل القسطنطينية التاج على ثيورد لاسكـارس ، فرفضه لعلمه بعدم جدوى المقاومة وفرّ إلى نيقية ، وبذلك سقطت عاصمة الحضارة الشرقية التى ظلت تسعة قرون عاصمة للحضارة المسيحيـة ومركزا للإشعاع الحضارى ، وقـام الفرنسيون والفلمنكيون والبنادقة بـاغتصاب كل ما وجـدوه من ثــروات ولم تســلم من عبثهـــم حتى كنيسة أيا صوفيا[1] .

وحـرص المؤرخـون المسلمـون على أن يشرحــوا أهميـة سقــوط القسطنطينيـة فى أيدى الـلاتين سنـة ١٢٠٤ ، فيشير ابـن الأثير إلى مـا أجـراه الـلاتين من المذابح فى اليونـانيين (الروم) ، فأصبح الـروم كلهم ما بين قتيل أو فقير لا يملك شيئـا ... وخرج إلى الفـرنج جماعة من القسـاوسة والأسـاقفة والـرهبان وبأيـديهم الإنجيل والصليب ، يتوسلون بها إلى الفرنج ليبقوا عليهـم فلـم يلتفتوا إليهم وقتلوهم[2] ، كما يروى أبو شامة: «أن الفـرنج بـاعـوا كثيرا ممـا نهبــوه وغنمـوه من الآلات والـرخـام إلى المسلمين بمصر والشام»[3] .

حصل البنادقـة على أخصب الأراضى وأفضل الموانىء وأهم النقط العسكـرية ، فأصبحوا يتحكمون فى الطـرق البحرية الأساسية التى تصل البنـدقيـة بالقسطنطينية كما أنهم كفلوا لأنفسهـم وضعا ممتازا بالامبراطورية فاستـولوا فى البحر الإيجى على أبيروس وكورفو وكيفالونيا ، فضلا عن شبـه جزيرة المروة ، والجزائر الواقعة جنوب بحر الأضيل وغربه ، وصار لهم على السـاحل الأوربى للدردنيل وبحر مرمره ، جاليبولى ، وهراقلية ثم أدرنه فى تراقيا ، وانتزعوا جزيرة كريت من بونيفاس دى مونتفرات[4] .

ولا شك أن للحملـة الصليبية الـرابعة نتـائج بـالغة الأهميـة فى علاقـات الشرق الإسلامى مع بيزنطة والغرب المسيحى[5] .

فالدولة البيزنطيـة التى كانت تعتبر معقل المسيحية فى الشرق ، والتى طالما أثارت العـالم المسيحى لقتال المسلمين ، لم تلبث أن أدركت أن مـا تعـرضت له من خطـر من قِبلِهِمْ يفـوق ما صـادفتـه من قِبَلِ المسلمين ، حتى آثـر البيزنطيـون صـداقة أعـدائهم القدامى من المسلمين والسلاجقة ، وما حدث سنة ١٢٠٤ من تفكك بيزنطة وانقسامها

---

(١) Runciman : op . cit . vol III. p. 125 .

Setton : op . cit vol II. p. 611 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٨٠ .

(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١١١ .

(٤) ديل : البندقية ص ٢٤ .

(٥) Saunders : J A History of Medival islam p. 178.

إلى إمارات عديدة كان فى الواقع بداية لتداعيها وتدهورها ثم زوالها آخر الأمر على أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣م .

ودل سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فى أيدى اللاتين على زوال عهد الروح الصليبية ، وتغلب المصالح الاقتصادية والشخصية والسياسية عند الصليبيين فضلا عن حرمان الصليبيين بالشام من قوة كانت دائما تساندهم(١) ، على أن اللاتين فى الشرق فرحوا حينما أصبحت القسطنطينية بأيدى اللاتين ، وبذا لا تخضع الحملات الصليبية لتحكم الأباطرة البيزنطيين ، ويشير ابن الأثير إلى أهمية سقوط القسطنطينية وإلى أنه خرج فى تلك السنة كثير من الفرنج فى البحر إلى الشام وسهل الأمر عليهم بذلك ، لتملكهم القسطنطينية(٢) .

انقسام الامبراطورية البيزنطية :

كان للحملة الصليبية الرابعة وقيام المملكة اللاتينية بالقسطنطينية (١٢٠٤-١٢٦١) أهمية كبيرة فى تطور العلاقات بين الأيوبيين والبيزنطيين ، ولاسيما بعد أن دخل فى السياسة العالمية ، عناصر جديدة ، واختفت عوامل كانت معروفة بتأثيرها فى مجرى الأحداث فى الشرق الأوسط ، ومن هذه العوامل أن بيزنطة لم تعد دولة متحدة مثلما كانت من قبل إذ اختفى ما كان يعرف بالامبراطورية البيزنطية ، وحل مكأنها دويلات اتخذت أسماء مختلفة ، ذلك أنه ترتب على استيلاء الصليبيين على القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ ، وقام على أنقاضها إمارات فرنجية (لاتينية) إمارات يونانية(٣) .

فشلمت إمارات الفرنج ، الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ومملكة سالونيكا ، وإمارة إخيا فى شبه جزيرة المورة ، ودوقية أثينا وطيبة فى وسط بلاد اليونان ، وامتد سلطان البنادقة إلى الجزائر البيزنطية فى بحر إيجه وبحر أيونيان وجزيرة كريت ، وبعض المواضع الساحلية والداخلية(٤) . ومن نتائج سقوط القسطنطينية فى أيدى الصليبيين أيضا أن صار للبندقية مقابل اشتراكها فى الحملة الرابعة ، ثلاث أثمان القسطنطينية ، وكان هذا القدر سببا فيما اتخذه الدوق من لقب لنفسه ، كما أن بطريرك القسطنطينية

---

(١) Runciman : of . cit . vol III p . 120 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٨١ .

(٣) Gibbon : of . cit . vol . VI . p. 452 .

Grousset : of . cit . Tome III p . 175 .

(٤) Vasiliev : of . cit . p . 566.

صار يختار من البنادقة ، واكتملت سيطرة البندقية التجارية على البحر المتوسط بما صار لها من سيادة على أسواق بيزنطة ، وعلى الطرق البحرية ولا سيما التى تربط بينها وبين مصر ، بعد استيلائها على مودون وكورون ، وشرائها جزيرة كريت والاستيلاء على يوبيا وجاليبولى فأضحى للبنادقة امبراطورية تجارية استعمارية فى البحر المتوسط(١) .

ومن الدليل على ما للبنادقة من نفوذ فى القسطنطينية أن بلدوين آخر امبراطور لاتينى بالقسطنطينية ، جعل ابنه رهينةً لدى البنادقة مقابل مبلغ من المال ، كما أفاد البنادقة من المنازعات(٢) الناشئة بين القوى المختلفة .

أما الإمارات البيزنطية اليونانية ، فكان منها بآسيا الصغرى ، امبراطورية نيقية وامبراطورية طرابيزون ، ومنها بشمال بلاد اليونان ، إمارة أبيروس ، ولاشك أن هذه الإمارات اليونانية كانت أكثر الإمارات اتصالا بالدولة الإسلامية فى الشرق .

والمعروف أن بلدوين كونت فلاندر أضحى امبراطورا على القسطنطينية وسيدا على الشطر الأكبر من تراقيا ، وولى بونيفاس مونتفرات حكم سالونيكا ، وامتد سلطانه إلى مقدونيا وتساليا ، بينما حكم فى المورة وليم شامبليت ، وصار أوتون دى لاروش سيدا على أثينا وطيبة(٣) ،وتولى حكم الممالك البيزنطية اليونانية ، تيودور الأول لاسكاريس فى نيقية والكسيوس الأول كومنينوس فى طرابيزون ، وميخائيل الأول أنجيلوس دوكاس كومنينوس فى أبيروس .

يضاف إلى هذه الإمارات اللاتينية واليونانية الامبراطورية البلغارية الثانية التى توالى على حكمها كالوجان ، ويوحنا أصن الثانى ، ثم سلطنة السلاجقة فى قونية ، وأسهمت هاتان الدولتان فى الحياة الدولية المعقدة التى سادت ما قام من إمارات على أنقاض الامبراطورية البيزنطية وتحكمهافيها ، وماكان من علاقات بينها وبين الغرب المسيحى ، والشرقى الإسلامى(٤) ، ومن هذه العوامل أيضا ، ما وقع بين هذه الإمارات فى القرن الثالث عشر من مصادمات ، إذ دأب اليونانيون على مهاجمة الفرنج والترك والبلغار الذين اعتبروهم دخلاء ، ونشبت المنازعات أيضا بين اليونانيين أنفسهم ، فيما

---

(١) Miller : Trebizond the last Greak Empire p. 116 .

(٢) Miller : Essays on the Latin orient p. 99 .
Bayna byzantium p 37.

(٣) Vasiliev : of cit . P. 506 .

(٤) Vasiliev : of . cit . p .506, Diehl : of . cit . p . 139 .

وقع بينهم من اختلاف قومى أضاف إلى الحياة عاملا جديدا من عوامل التمزق والتفكك فزاد الحياة اضطرابا ودار القتال بين الفرنج (اللاتين) والبلغار وترتب على كل هذه المصادمات الحربية ، قيام محالفات دولية ، غير أنها لم تلبث أن تحطمت[1] .

ولابد هنا من استعراض الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى إمارات الشرق الأوسط ، سواء كانت مسيحية أو إسلامية حتى يتسنى دراسة ما كان من علاقات بين البيزنطيين والأيوبيين فى هذه المرحلة الممتدة منذ أوائل القرن الثالث عشر إلى سقوط الدولة الأيوبية سنة ١٢٥٠ ، والظاهرة الملموسة أن العلاقة تكاد تنحصر فى علاقات تلك الدول بدولة السلاجقة فى آسيا الصغرى .

امبراطورية نيقية البيزنطية :

المعروف أن مؤسس امبراطورية نيقية البيزنطية هو تيودور لاسكاريس الذى ينتمى إلى بيت الإنجيليين عن طريق زوجته آنه ، ابنة الامبراطور الكسيوس الثالث من جهة ، وإلى بيت كومنين عن طريق الكسيوس الثالث من جهة أخرى . وليس معروفا أصل أسرة الأشاكرة (لاسكارس) المالكة ولا اسم موطن تيودور[2] ، وكل ما هو معروف أن تيودور كان قائدا عسكريا استبسل فى قتال الصليبيين ، أثناء الحملة سنة ١٢٠٤ ، ورشحه رجال الدين اليونانيون بالقسطنطينية ، كيما يكون امبراطورا ، بعد فرار الامبراطور الكسيوس دوكاس مورتزوفلوس غير أنه كان قد هرب إلى آسيا الصغرى عقب سقوط القسطنطينية ، ولحق به ، فرارا من الصليبيين عدد كبير من نبلاء بيزنطة العسكريين والمدنيين ، وبعض كبار رجال الكنيسة ، وغيرهم ممن كرهوا الخضوع للحكم الأجنبى[3] ، أما البطريرك اليونانى وهو يوحنا كوماتيروس فلجأ إلى بلغاريا ، ولم يلب دعوة تيودور بالقدوم إلى نيقية .

وحكم تيودور لاسكاريس فى نيقية من سنة ١٢٠٤ حتى سنة ١٢٢٢ ثم تلاه ، على الحكم صهره زوج ابنته إيرين ، يوحنا الثالث دوكاس فاتا تزيس ١٢٢٤-١٢٥٤ ، وهما أعظم أباطرة نيقية ، وأنبههم شأنا وأكثرهم اتصالا بموضوع الرسالة ، ثم أعقب

---

(١) Vasiliev : of . cit . p . 507, 508 .
Runicman : of . cit . vol 3 p . 112 .

(٢) اشتهر تيودور لاسكارس بالنسبة للمؤرخين العرب باسم الأ شكرى وأطلق اللفظ على بقية حكام الأسرة ابن الأثير : ج ١٢ ص ٨٠ .

(٣) Setton: of . cit . vol . II .p. 21 .

يوحنا ابنه تيودور الثانى ١٢٥٤ / ١٢٥٨ - ثم حفيده يوحنا الرابع (١٢٥٨-١٢٦١) وكان صغير السن ، واستطاع خلفه ومخائيل باليولوجس أن يستعيد القسطنطينية من أيدى اللاتين سنة ١٢٦١[١] .

والواقع أن وضع الدولة الجديدة فى بثينيا كان بالغ الخطورة ، إذ هددها من جهة الشرق سلطان السلاجقة فى قونية الذى ملك كل الأجزاء الداخلية من آسيا الصغرى ، وجزء من ساحل البحر الأسود بشمالها ، وتعرضت دولة نيقية للضغط من الغرب ، من قبل الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، التى جعلت من أهدافها الأساسية تدمير دولة نيقية الناشئة[٢] ، وكان لزاما على تيودور لاسكاريس ، الذى استمر حكمه أربع سنوات ، والذى اتخذ لقب طاغية لا امبراطور ، أن يتحمل عبئا ثقيلا ، إذ سادت الفوضى فى أنحاء بلاده ، وظهر فى الدولة حكام عديدون مستقلون مناوئون ، وأغلقت نيقية أبوابها على تيودور[٣] .

واندلع عصيان اليونانيين والبلغار فى شبه جزيرة البلقان ، واضطر الصليبيون (اللاتين) أن يطلبوا من أوربا الجند التى كانت موجهة إلى آسيا الصغرى لقتال تيودور لاسكاريس ، وحلت بالصليبيين هزيمة ساحقة فى أدرنه سنة ١٢٠٥ هلك فيها زهرة الفرسان الغربيين ووقع بلدوين فى أسر البلغار ، حيث لقى مصرعه[٤] .

ازداد مركز الصليبيين حرجا بعد معركة أدرنه ، فتحطمت آمالهم وزالت سيطرتهم على آسيا الصغرى ، أما البلغار واليونانيون بالبلقان فلم يتحقق لهم إقامة مملكة يونانية عاصمتها القسطنطينية ، بل انفرط عقد التحالف بينهما ، ورأى اليونانيون بالبلقان فى ملك نيقية البيزنطى محررا لهم من اللاتين ورمزا لآمالهم وأمانيهم القومية ، وإذ تحطمت قوة اللاتين بالقسطنطينية ، أضحت نيقية بنجوة من خطرهم ، وتهيأ لها الأمل فى حياة جديدة ، فانصرف تيودور لاسكاريس إلى تنظيم مملكته الناشئة وتقرر تعيينه بطريرك جديد فى نيقية سنة ١٢٠٨ ، وهو الذى توج تيودور ، فى نفس السنة امبراطورا[٥].

(١) Setton : of . cit . vol . II . p. 201 .
(٢) Diehl : of . cit . p. 139 .
(٣) Vasiliev : of . cit . p. 508 .
(٤) Setton : of . cit . vol II . p. 203 .
(٥) Vasiliev : of . cit . p . 511 .

أضحت نيقية مقر للامبراطور والكنيسة معا ، فإلى جانب امبراطورية اللاتين بالقسطنطينية قامت امبراطوريته البيزنطية التى أخذت تحتل رويدا رويدا مساحة من أراضى آسيا الصغرى ، ثم صارت أيضا تجتذب انتباه اليونانيين وأضحت معقد آمالهم. ففى المعاهدة التى انعقدت سنة ١٢١٩ م بين تيودور لاسكاريس وممثل البنادقة (اليوديشتا) فى القسطنطينية اعترف البنادقة بلاسكاريس امبراطورا . وجاز لرعايا الامبراطوريتين ممارسة التجارة فى بلاد الجانبيين وتقرر إعفاء البنادقة من الرسوم والضرائب ببلاد نيقية ، على حين التزم تجار نيقية بأن يؤدوا الرسوم القانونية فى القسطنطينية وفى أملاك البندقية ، ووعد لاسكاريس بألا يرسل سفنا حربية إلى القسطنطينية إلا بعد موافقة البوديشتا (ممثل البندقية) وألا يستخدم البنادقة جندا مرتزقة إلا بموافقته أيضا[١] .

ولم تلبث العلاقات أن توترت بين الامبراطوريتين فى القسطنطينية ونيقية التى قامتا على أنقاض بيزنطة ، فلم يكن بوسعهما أن يعيشا فى تآلف وسلام ذلك أن نيقية التى تقع على مسافة ٥٠ ميلا من القسطنطينية ، أضحت عاصمة الامبراطورية الجديدة كما أن وقوعها فى ملتقى عدة طرق جعل لها أهمية سياسية خاصة ، واشتهرت نيقية فى التاريخ البيزنطى بما انعقد فيها من مجامع مسكونية ، ثم صارت عاصمة للسلاجقة بآسيا الصغرى أعادها الصليبيون لالكسيوس الامبراطور البيزنطى . فكان امبراطور نيقية امتدادا لسلسلة الأباطرة البيزنطيين . وما تعرضت الامبراطورية اللاتينية من الهزيمة على أيدى البلغار ، ومن تجدد خطرهم على اللاتين ، منع اللاتين من الاستيلاء على نيقية . على أن ما تعرضت له نيقية أيضا من خطر السلاجقة كل ذلك أدى إلى عقد هدنة بين نيقية والقسطنطينية[٢] .

على أن ما نشب من الحرب بين تيودور امبراطور نيقية والسلطان السلجوقى كان بالغ الأهمية ، نظرا ؛ لأن السلاجقة فى قونية كانوا يملكون معظم آسيا الصغرى ، ولم يلق قيام دولة نيقية قبولا عندهم ؛ لأنها حالت دون توسعهم نحو بحر إيجه غربا ، يضاف إلى ذلك أن الكسيوس الثالث أنجيلوس ، صهر تيودور لجأ إلى السلطان السلجوقى يلتمس منه المساعدة لاسترداد عرشه الضائع ، فلم يسع السلطان السلجوقى إلا أن

(١) Setton : of . cit . vol II. p .213 .

(٢) Setton : of . cit . vol II p. 205 .

ينذر تيودور ، ويطلب إليه إعادة العرش للامبراطور الكسيوس ، ودارت معركة عنيفة بين البيزنطيين والسلاجقة على نهر دياطفو فى كاريا . وعلى الرغم من أنه لم يترتب على هذه المعركة تغييرات إقليمية هامة فى جانب تيودور ، فإنها أحيت الأمل فى نفوس اليونانيين فى آسيا وأوربا ، واعتبروا نيقية نواة وحدتهم المقبلة وانتعشت الآمال للاستيلاء على القسطنطينية(١) .

كل ذلك أثار مخاوف هنرى فلاندر امبراطور القسطنطينية ، ولاسيما أنه لم يتوافر له من القوة ما يكفل حماية أملاكه ، على أن ما انعقد من صلح بين هنرى فلاندر امبراطور اللاتين بالقسطنطينية ، وتيودور لاسكارس امبراطور البيزنطيين ، أقر الحدود التى قامت بينهما منذ سنة ١٢٠٤ ، إذ أن الجزء الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ظل بأيدى الامبراطورية اللاتينية ، ومات تيودور سنة ١٢٢٠م بعد أن أقام بآسيا الصغرى حكما هيلنستيا ، ووحد الدولة ، وشيد الأساس الذى أقام عليه خليفته يوحنا الثالث دوكاس فاناتزيس (١٢٢٢-١٢٥٤)الامبراطورية بعد اتساعها وامتدادها .

ويعتبر يوحنا الثالث من أنشط أباطرة نيقية ، وحدث فى عهده أن تنازع السلطة أربع قوى : امبراطورية نيقية ، الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية ، واستبدادية أبيروس ، ومملكة بلغاريا .

وقامت سياسة يوحنا فاناتزيس الخارجية على الحروب من جهة ، وعقد المحالفات من جهة أخرى ، ونجح يوحنا فى معالجة الموقف الدولى المعقد ، بينما فشل خصومه الثلاثة فى البلقان ، لما وقع بينهم من المنازعات حول الحرب والمحالفات(٢) .

ففى السنوات الأولى من عهد يوحنا فاناتزيس ، أضحى لنيقية التفوق على امبراطورية القسطنطينية ، بعد أن أنزل يوحنا الهزيمة الساحقة بالخارجين عليه من أخيه تيودور الأول والذين تلقوا التأييد من اللاتين(٣) ، فاكتملت له السيادة فى آسيا الصغرى ولم يعد للاتين بمقتضى معاهدة سنة ١٢٢٥ سوى الساحل الأسيوى المواجه للقسطنطينية والقرى التى تحيط بنيقوميديا ، وانتزع أسطول نيقية جزر لسبوس وخيوس

(١) Vasiliev : of. cit. p. 510
(٢). Vasiliev : of. cit. p. 518.
(٣) Ostrogorsky : of. cit. p. 384.

وساموس ، واعترفت رودوس بسيادة امبراطوريته ، وبذا توطدت أركان امبراطورية نيقية برا وبحرا ، وأخذت تتطلع لانتزاع الجانب الأوربى ، وإعادة الامبراطورية البيزنطية[١] إلى سابق عهدها ، وحدث أن اعترفت إمارة أبيروس البيزنطية بسيادة حكومة نيقية عقب سقوط القسطنطينية فى أيدى اللاتين وبذلك زالت أسباب الاحتكاك بين الدولتين البيزنطيتين فى آسيا الصغرى والبلقان ، نظرا لا تفاقهما فى المثل والأهداف ، غير أن تيودور شقيق ميخائيل أنجيلوس حاكم أبيرورس ، لم يلبث أن أنكر ولاءه لنيقية بعد أن تولى العرش حوالى سنة ١٢١٥ وبفضل بسالته استطاع أن يستولى على المملكة اللاتينية فى تساليا ومقدونيا سنة ١٢٢٤ بعد حصار طويل[٢] ، وزعم لنفسه حق الامبراطور البيزنطى وتوجيه القتال ضد القسطنطينية ، وبذا ظهرت مقاومته لامبراطورية نيقية[٣] ، وإذا تهيأ لامبراطور نيقية البيزنطى ، يوحنا فانا تزيس أن يستولى على ادرنه ١٢٢٥ تراءى أن عودة الامبراطورية البيزنطية أضحت وشيكة الوقوع[٤] . لولا أن تعرضت مؤخرة قواته لهجمات أمير أبيروس البيزنطى ، تيودور أنجيلوس الذى أرغم قوات نيقية على الانسحاب بعد أن كاد يتحقق غرضه ، بالاستيلاء على القسطنطينية ، غير أنه تطلع إلى هذا الهدف ، الاستيلاء على القسطنطينية قيصر بلغاريا أصن الثانى (١٢٢٨-١٢٤١) ، ولم يتطلع أصن لما هو أقل من إقامةامبراطورية بيزنطية بلغارية ، تتخذ القسطنطينية حاضرة لها[٥] .

وتم التوقيع على معاهدة التحالف بينه وبين فاناتزيس فى سنة ١٢٣٥ فى غاليبولى[٦] التى استولى عليها مؤخرا فاناتزيس ، وتم زواج تيودور الثانى لاسكاريس ابن الامبراطور البيزنطى فى نيقية من ابنة أصن التى كان مقررا أن تتزوج من بلدوين الثانى امبراطور القسطنطينية[٧] .

تقدم الحلفاء لإلقاء الحصار برا وبحرا على القسطنطينية ، وعلى الرغم من صمود

---

(١) Setton : of. cit. vol II p. 214.
(٢) Setton : of. cit. vol II p. 214.
(٣) Ostrogorsky : of. cit. p. 585.
(٤) Setton : of. cit. vol II. p. 215, Ostrogorsky : of. cit. p. 387.
(٥) Setton : of. cit. vol II. p. 215.
(٦) Setton : of. cit. vol II p. 216.
(٧) Ostrogorsky : of. cit. p. 387, 388.

العاصمـة بفضل مسانـدة أسطول البنـادقة ، فإن وضع الـلاتين أضحى فى شدة الحرج حتى إن بلـدوين الثـانى غـادر المدينـة ، ليلتمس المسـاعـدة من الغـرب ، ولم ينقـذ القسطنطينية سوى ماوقع من نزاع بين المهاجمين .

وإذ توفى أصن سنـة ١٢٤١ أخذت قوة بلغاريا فى التفكك بسبـب إغارة المغول ، ولم يعد يواجه فاناتزيس خطر[١] .

وتوجه يوحنا فاناتزيس على رأس حملـة سنة ١٢٤٢ لمهاجمة امبراطورية سالونيكا ، ولما اقترب من العاصمة علم بغزو المغول لآسيا الصغرى ، فاضطر إلى الانسحاب وعقد الصلح مع امبراطـورية سـالونيكـا ، وترتب على هـذه المعاهـدة أن قبلت امبراطوريـة سالونيكا التخلى نهائيا عن كل تنافس مع امبراطوريـة نيقية ، وتنازل امبراطور سالونيكا عن ردائه الامبراطورى ووافق على أن يتخذ اللقب الذى منحه له فاناتزيس[٢] .

على أن الغزو المغـولى أثار كل شرق أوروبا والشرق الأدنى فهوت روسيـا فى أيدى الغزاه ، وظلت مـا يزيـد على مائتى سنة خاضعة للتتار لتهديدهم سلطنـة قونية المتاخمة من جهة الشرق لامبراطورية نيقية[٣] .

وتعرضت لخطرهم أيضا امبراطوريـة طرابيزون ، ولم تأمن نيقية ذاتها من خطرهم . وأدى الخطر المشترك إلى عقد محالفة بين يـوحنا فاناتزيس وامبراطـور طرابيزون وسلطان السلاجقـة بقونيـة سنة ١٢٤٣[٤] ومن الـدليـل على ضعف الـروح الصليبيـة ، أن السلاجقة استخدموا من اللاتين جنـودا مرتزقة بلغ عددهم نحو ألف رجل ، وبلغ من نفوذ اللاتين أنهـم أسهموا فى تولية غياث الـدين كيخسرو الثانى سلطانا وكاد التحالف يتم بين السلاجقـة واللاتين ، لـولا أن كيخسرو كان ضعيفا ولم يكن عـدوا لفانـاتزيس فضـلا عن تحالف كيخسرو مع فانـاتـزيس بعد غـارة المغول ، فلم يسعـه إلا الاعتراف بسيادة المغول والانتماء إليهم ، بل إن سلطان السلاجقـة التزم بدفع الجزية ، وبمقتضى هذه الشروط ، تهيأ لامبراطور طـرابيزون وسلطنة قونية السلجوقيـة أن يحافظا على بقائهما

---

(١) Setton : of . cit . vol II . p. 223 .

(٢) Setton : of . cit . vol II . p. 223 .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٩ .

(٤) Vasiliev : of . cit . p. 530 , 531 .
ostrogosky : of . cit . p. 390 .

لأن المغول انصرفوا عنها إلى ما هو أهم من المغامرات[١] ، على أن امبراطورية نيقية لم تتأثر بكل ذلك ، بل إنها أفادت كثيرا من ضعف جيرانها .

فدخل سالونيك فى ديسمبر سنة ١٢٤٦ ، دون أن يلقى شيئا من المقاومة وبذا اختفت امبراطورية تيودور أنجيلوس ، الذى اكتفى بالحصول على ضيعة بالقرب من مودينا[٢] .

فكر فاناتزيس فى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية سنة ١٢٣٤ مقابل أن يتخلى البابوية عن الامبراطورية اللاتينية ، غير أنه لم يلبث أن تخلى عن هذا المشروع ، بعد أن أدرك أن أيام الامبراطورية اللاتينية أمست معدودة[٣] . الواقع أن فاناتزيس زاد من مساحة امبراطورية نيقية ، إذ أن أملاكه بآسيا الصغرى أضحت مستقرة آمنة بينما خضع لسلطانه الشطر الأكبر من شبه جزيرة البلقان ، وجرى التخلص من خصوم نيقية السابقين ، فهوت امبراطورية اليونان الغربية ، ولم يعد يتعرض للخطر من قبل استبدادية أبيروس ومملكة بلغاريا ، أما الامبراطورية اللاتينية فإنها تحتضر ، إذ بلغ بها الفقر والعجز أن الامبراطور بلدوين الثانى رهن ابنه وولى عهده فيليب عند التجار البنادقة ، حتى يحصل على قرض يخفف عنه ضائقته وحاجته الشديدة للمال[٤] واقتصرت أملاك الامبراطورية اللاتينية على ما يحيط بالقسطنطينية من بلاد يحيط بها من كل جانب أملاك فاناتزيس امبراطور نيقية ولم يبق لاستكمال استعادة الامبراطورية البيزنطية إلا القيام بمحاولة أخيرة ، وهى الاستيلاء على القسطنطينية التى قام بها امبراطور آخر بعد أن أعد فاناتزيس كل الخطوات اللازمة ، وهو الذى يرجع إليه الفضل فى استعادة الامبراطورية البيزنطية[٥] .

وما أحرزه فاناتزيس من النجاح فيما اتخذه من التدابير الاقتصادية لم يكن أقل شأنا ، إذ أن امبراطورية نيقية شهدت فى عصره من الرخاء المادى مالم تشهده فى سنوات عديدة ، إذ وجه الامبراطور اهتمامه إلى إصلاح الزراعة وتربية الماشية وأقام نموذجا

---

(١) Ostrogorsky : of . cit . p. 390 , Setton : of . cit . vol II . p. 223 .

(٢) Setton : of . cit . vol II . p. 226 .

(٣) Vasiliev : of . cit . p. 544 , 545 .

(٤) Setton : of . cit . vol II . p. 225 .

(٥) Ostrogorsky : of . cit . p. 393 .

لذلك ، بأن جعل لضِيـاع الامبراطورية مثـالا يحتذى بـه ،فأظهر لرعـاياه ما يتـوافر من الثروة من زراعة المحصولات وزراعة الكروم وتربية الماشية(١) ، كما قام بحماية البلاد من الواردات الخارجية ومنع رعـاياه من شراء الكماليات الباهظـة الأثمان ، ومع ذلك تدفق إلى الامبراطورية المعـادن النفيسة والمنسوجات الثمينة ، من سلطنة السـلاجقة المجاورة لها ، وعلى الرغم من أن الغزو المغولى خرب الإمارات المجاورة لنيقية فإن هذا الغزو كان بالغ الأهمية للبيـزنطيين من الناحية الاقتصاديـة ، إذ أن الترك اشتروا المواد الغذائية من امبراطورية نيقيـة ، ودفعوا فيها أثمانا مرتفعة من الـذهب والسلع التجارية(٢) ، ولـذا لم تفتقـر نيقيـة إلى الأموال ، بـرغـم انغماسهـا فى حـروب مستمـرة ، وما سـاد من أحـوال اقتصادية فى دولة نيقية زمن يوحنا فانـاتزيس ، كان أسلم وأصح مما عرفته الامبراطورية البيزنطية زمن أسرة كـومنين وأنجيلوس فلم تستنفذ الدولة حيـويتها ، وأضحى استعادة الامبراطورية البيزنطية أمرا قريب الوقوع .

امبراطورية طرابيزون البيزنطية والسلاجقة :

ارتبطت امبراطـوريـة طـرابيـزون البيـزنطيـة بعـلاقـات عـدائيـة مع جيرانها من السـلاجقة، إذ تعـرضت لحصار من قبـل كيخسرو سلطان السـلاجقة لطـرابيزون سنـة ١٢٠٥ ، ١٢٠٦م ، كما أن السلطـان السلجـوقى الجديـد كيكـاوس الأول عمل على التـوسع على حسابها ، فـاستولى على سينـوب ، وذبح دافيـد حاكم المنطقـة(٣) ، وكـان للاستيـلاء على سينوب نتـائج بعيدة المدى إذ اقتطع السـلاجقة جـزءا كبيرا من الحدود الغربية لطرابيزون ، ومنعوا اتصالها المباشر بامبراطورية نيقية البيزنطية(٤) .

وفى عهد ثـانى أبـاطرة طـرابيزون أندرونيكـوس الأول تعرضـت العاصمـة لخطر القتـال المباشر ، إذ أن إحـدى سفن طرابيـزون المحملة بـالجزية من إحـدى الولايـات البحريـة ، وعلى ظهرها أحد الإرخـونات وعدد من النبـلاء ، تعرضت لعاصفة شـديدة فلجأت إلى مينـاء سينـوب(٥) ، ووفقـا للمعـاهـدة التى عقـدهـا أنـدرونيكس مع

---

(١) Ostrogorsky : of . cit . p. 394 .

(٢) Vasiliev : of . cit . II p. 546 . Gibbon : of . cit . vol . p . 476 .

(٣) أسر السلاجقة كومنينوس حاكم طرابيزون وتعهد بدفع جزية سنوية للسلطان علاء الدين كيقباذ.
Miller : Trebizond p.19 .

(٤) Vasiliev : The foundation of Empire of Trebizont p. 26 speclum 1933 vol XI .

(٥) Vasiliev : of . cit . p . 25 .

غياث الدين كيخسرو بن السلطان السلجوقى كيقباذ الذى وصل ارتقى عرش قونية سنة ١٢٢٠م[١] ، قام تابعه هيتوم بالاستيلاء على السفينة وشحنتها وبحارتها كما أرسل السفن لنهب خيرسون ، وحين وصلت الأنباء طرابيزون ، حشد أسطولا ، وجهه اندرونيكس إلى سينوب حيث استولى على جميع السفن الراسية فى الميناء .

أعد غياث الدين العدة واتجه إلى طرابيزون ، فى حين حصن أندرونيكس المدينة والطرق المؤدية لها ، حاصر غياث الدين المدينة وهاجمها من جهة البحر ، إلا أن المدينة صمدت للهجوم ، ودعا الامبراطور البيزنطى إلى عقد معاهدة سلام ، ودعا وفدا سلجوقيًا لرؤية المدينة وتحصيناتها ، ولكن لم تلبث أن هبت عواصف دمرت معسكر السلاجقة ووقع غياث الدين فى الأسر ، فاستقبله أندرونيكس بحفاوة بالغة ، وأجلسه بجانبه ، وبعد أن استشار مجلسه ، تقرر إرسال غياث الدين إلى بلاده ، وتجديد الاتفاق السابق بين طرابيزون وقونية ، الذى يقضى بالاعتراف بالتبعية ، وتقديم الخدمات العسكرية والجزية والهدايا ، ووافق غياث الدين الذى أعجب بتقدم طرابيزون .

كانت فترة الاستقلال هذه قصيرة المدى ، فقد تنازع جلال الدين خوارزمشاه السيطرة مع السلطان السلجوقى على غرب آسيا وأصبح جارا لطرابيزون الذى عقد تحالفا معها ، فلما حلت به الهزيمة سنة ١٢٣٠ لجأت بعض قواته إلى طرابيزون ، ولقد كلفت هذه الغلطة أندرونيكس جميع الامتيازات التى حصل عليها من اتفاقه مع مليك، وعادت طرابيزون تابعة لسلطان قونية حوالى سنة ١٢٤٠م[٢] .

الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية :

لم تكن الامبراطورية اللاتينية التى تأسست بالقسطنطينية سنة ١٢٠٤م ، نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، من القوة ما يدعوها إلى مساندة الفرنج فى الشام ، إذ استنفذت جهود المسيحيين من الرجال والأموال ، بل إنها اجتذبت إليها النبلاء الذين استقروا حتى وقتذاك بالشام[٣] ، وإذ اتجهت معظم الجيوش إلى القسطنطينية ، كان

---

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ترجمة زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) Miller : of . cit . p. 20 - 25 .
Gibbon : of . cit . vol . VI p. 459 .

(٣) Gibbon : of . cit . vol . VI p . 488-489 .

لزامًاعلى الصليبيين فى مملكــة بيت المقـدس أن يلتمســوا دائما الصلح مع المسلمين ، فتكـــرر عقـــد المعـــاهـــدات بين الجانبين (١٢٠٥-١٢١٠) ١٢١١-١٢١٧ ، ١٢٢١-١٢٢٨ ، ١٢٢٩- ١٢٣٩)[١] ، وما يدعو إلى الالتفـات أن بوهمند الرابع أمير أنطاكيـة أفاد من الامبراطورية الـلاتينية ، حينما تعرض للأخطـار والفتن من قبل أمراء أرمينيـة الصغرى ، ورجـال الدين بـداخل أنطـاكية ، وطـوائف الفرسـان الرهبـان من السبتاريـة والداوية ، بأن أعلن ولاءه للامبراطـور اللاتينى ، وباعتبـاره الوارث الشرعى للبيزنطيين ، الذين اعتبروا أنطاكية أصلا من ممتلكاتهم[٢] .

والواقع أن ما ساد الامبراطورية الـلاتينية من الاضطراب السياسى والدينى ، وما كان من قيـامها فى بلاد معـادية بين اليونانيين الكـارهين للاتين[٣] ، والذيـن بادروا إلى التماس قـادة لهم من الجهات المجـاورة فضـلا عن ار تكـانها إلى ما يتـدفق عليهـا من الغرب من المال والرجال ، واحتمال توقف هذه المساعدة فى أى وقت من الأوقات ، كل ذلك يجعل بقاء الامبراطورية اللاتينية متوقفا على ما يتصف به الصليبيون من بعد النظر السياسى ، ومثال ذلك أن الأبـاطرة اللاتين اعتبروا أن من السياسة السليمـة الإفادة مما وقع بين اليـونانيين من المنـازعات الطبقيـة التى سبق أن أدت إلى تـدمير الامبراطوريـة البيزنطية ، كان يساند الفلاحين إزاء سادتهم السابقين ، وبذا تزداد مكانتهم فى الريـف ، غير أن هذا الاتجاه كـان بعيدا عن تفكير القـادمين من الغرب ومع ذلك فـإن اللاتين لم يفيدوا ممـا تهيأ لهم من فـرص دبلومـاسية وعسكـرية[٤] ، ومـا لجأ إليـــه الـلاتين من رد هجمات البلغار ، إنما أدى إلى تحالف البلغار مع اليونانيين ، يضاف إلى ذلك أن اللاتين بالقسطنطينية ، لم يدركوا أهمية التحالف مع سـلاجقة الروم فى قونية ، أما حلفاؤهم من الأرمن فقد غشوهم ولم يحفلوا بما تعرض له اللاتين من أخطار[٥] ، ومع ذلك فإن سقوط القسطنطينية فى أيـدى اللاتين أثـار الاضطراب والتفكـك فى القوى المسيحيـة بالشرق

---

(١) Setton : of . cit . II. p. 532-533.

(٢) أعلن بوهمنـد ولاءه لزوجـه هنرى شـامبينى حين حضروها لبيت المقـدس وعين بطريـرك إغريقى وكان الإغريق العنصر الغالب فى أنطاكية .

(٣) Ostrogorsky: of . cit . II. p. 370.

(٤) Setton : of . cit . II. p.199-200

(٥) كانت بعض قوات الحملة الرابعـة اشتركت مع الصليبيين فى الشرق فى مهاجمة الأيوبيين ، ولكن هذه الهجمات لم تأت بنتيجة تذكر .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص ١٤٦ .

الأدنى ، فمن ذلك ما تعرضت له حمص من الهجوم من قبل الاسبتارية فى حصن الأكراد ، وتصدى الظاهر غازى صاحب حلب لهم ، كما حدث أيضا أن قام القراصنة من جزيرة قبرص بمهاجمة سفن مصرية والاستيلاء على ما تحمله من السلع والأسرى ، زمن الوصاية على عرش بيت المقدس (١٢٠٥-١٢١٠) ، فخرج العادل إلى الشام ، وإذا احتج لدى الوصى على عرش بيت المقدس ، أعلن أن حاكم قبرص يدين بالولاء للقسطنطينية ، وليس له عليه سلطان ، ولم يلبث الصلح أن عاد بينهما[١] . والمعروف أن قيام امبراطورية لاتينية بالقسطنطينية جعل البابا أول الأمر فى وضع حرج ، إذ أن البابا أنوسنت الثالث قاوم تحول الحملة الرابعة لمهاجمة القسطنطينية ، وحرم من الكنيسة الصليبيين والبنادقة بعد الاستيلاء على زارا سنة ١٢٠٢ ، غير أنه لم يلبث أن أقر الأمر الواقع بعد سقوط القسطنطينية فى إيدى اللاتين[٢] ، بل إنه دعا رجال الدين وسائر الملوك والأمراء ، وكل الشعوب والأقوام لمساندة بلدوين امبراطور اللاتين فى القسطنطينية ، أعرب عن أمله فى أن سقوط القسطنطينية سوف ييسر الاستيلاء على الأراضى المقدسة وإعادتها للمسيحيين[٣] على أن البابا ارتاع لما وقع من نهب بالقسطنطينية وما ارتكب فيها من الفظائع ، فضلا عن الطابع الدنيوى ، لمعاهدة التقسيم ، التى استبعدت كل نفوذ وتدخل من قبل الكنيسة[٤] .

وكان من أثر الحملة الرابعة ١٢٠٤ ، أن غلبت الصفة العلمانية على الحركة الصليبية وأن انحرفت عن هدفها ، الذى يقضى بالتوجه إلى الأراضى المقدسة فمنذ سنة ١٢٠٤ ، لم تقتصر أهداف الصليبيين على توجيه قواتهم لمهاجمة المسلمين فى مصر وفلسطين ، بل تحتم عليهم أيضا إرسالها إلى أملاكهم فى بلاد الامبراطورية الشرقية لمساندتها ، فعطل ذلك من حركة القتال ضد المسلمين فى الشرق[٥] وأدرك البابا أنوسنت أن امبراطورية اللاتين بالقسطنطينية ليس بوسعها أن تتولى توجيه حملة صليبية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ١١٤ .
ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٥ ص ٣٤١ .

(٢) Runicman : of . cit. vol III p . 128 .

(٣) Runicman : of . cit. vol III p . 128 .
Vasiliev : of . cit. p . 467.

(٤) Vasiliev : of . cit. p . 468

(٥) Vasiliev : of . cit. p . 469 .

للشرق ، نظرا لما تصادفه من متاعب سياسية واقتصادية ودينية[١] .

وإذ ظفرت البندقية بنصيب الأسد عند اقتسام الأملاك البيزنطية ، لم يحل ذلك دون تغيير سياستها مع المسلمين إذ حرص كل من العادل والكامل على المحافظة على العلاقات الطيبة مع البنادقة وجمهوريات إيطاليا .

ففى سنة ١٢٠٧ قام سفير بيزا ماركوتيرتى بعقد معاهدة مع العادل الحدث حرص السلطان على الاستمرار فى تقديم كل التسهيلات اللازمة[٢] ، وفى سنة ١٢١٥م ارسلت جمهورية بيزا إلى القاهرة سفيرا آخر ، وكان بسبب قيام الحكومة المصرية بأسر عدد كبير من البيازنة ، وكان قد تم القبض عليهم فى كنيستهم ، وعقدت معاهدة ١٢١٦م حددت فيها امتيازاتهم[٣] .

وعقدت البندقية بدورها معاهدة تجارية مع الملك العادل عقدها مارينو داندولو، وبطرس مخائيل ، وهى مجموعة من المراسيم السلطانية التى صدرت فى القاهرة وخطاب أرسل باسم السلطان إلى دوق البندقية[٤] ، وتنص النصوص بصورة إجمالية على حماية البنادقة وحسن معاملتهم فى أرض السلطان وعلى حماية من يصحبونهم للحج ، وليس معروفا على وجه التحديد السنة التى عقدت فيها المعاهدة والمرجح أنها سنوات ١٢٠٦-١٢٠٨ و، لكن لما كانت العبارتان اللتان تردد ذكرهما فى هذه المراسيم ، وهما: سيد ملوك المسلمين ، أمير المؤمنين لم تضما إلى ألقاب السلطان سوى فى العام الهجرى ٦٠٤هـ إذ كان تاريخ صدور المرسوم حوالى ١٢٠٨[٥] ، وفى نفس العام أرسلت جمهورية البندقية إلى مدينة ، حلب السورية سفيرا خاصا ، يدعى مارينونى ، فقام بعقد معاهدة تجارية مع صاحب المدينة ، وهوالأمير غياث الدين ابن صلاح الدين ، ومنح التجار البنادقة فى مدينتى حلب واللاذقية امتيازات ضخمة[٦] ، على الرغم من أن البابا أنوسنت الثالث أشار فى المجمع الدينى الذى انعقد باللاتران سنة ١٢١٥ ، إلى ما تقوم

---

(١) Vasiliev : of . cit . p. 469 .

(٢) Heyd : Hist . du commercedu Levant Tome I. P. 404 .

(٣) Heyd : op . cit Tome I . p. 404 .

(٤) Wiet : op . cit . p. 385 .

(٥) Heyd : op . cit . Tome p. 403 - 404

(٦) Heyd : op . cit . Tome . p. 374 - 375

بـه المدن الايطـاليـة من نقل المواد الاستراتيجيـة كـالأخشـاب ، والحديـد ، بل إن من الأيطاليين من خـدموا فى السفن الإسـلامية ، ممـا أضعف الروح الـدينية[1] فتردد على دمياط السفن من أبوليا والبندقية وبلاد اليونان[2] .

ومن الطبيعى أن البنـادقـة لم يقصـدوا إلا مصلحتهم الخاصــة ، فما حـدث من سيطرتهم على القسطنطينية ومودون وكريت ، التـى ليست إلا محطات تجارية فى طريقها إلى مصر إنما قصدوا بـه أن يتخذوا من دمياط والإسكنـدرية ، قاعدة لتجـارتهم بعد أن حصلوا على الامتيـازات الضخمة فى القسطنطينيـة ، وسيطروا على تجارتها ، وظفـروا من طاغيـة أبيروس البيزنطى وامبراطـور نيقية البيـزنطية أيضا على امتيـازات تجارية بـالغة الأهمية[3] ، ولذا أسهمت البنـدقية فى إعداد الحملـة الصليبية الخامسـة ومدها بـالعتاد والرجال والسفن أملا فى أن تخضـع لها مصر مثلما خضعت القسطنطينية إذ وجدت فيه فرصة نادرة للسيطرة على ذلك الثغر التجارى الهام الذى تستطيع أن تنفذ منه إلى داخل البلاد المصرية[4] ، وتزعمت الجمهـوريات الثلاث حـركة المعـارضة عندمـا قدم الملك الكـامل سنة ١٢١٩ عـرضوا الجلاء عن دميـاط والشواطىء المصريـة فى مقابل إعـادة الصليب الـذى كان قـد استولى عليـه صـلاح الدين عنـدما دخل بيت المقـدس ، ورد الأسرى الموجودين فى القـاهرة ودمشق ، وتسليم مـدينة بيت المقـدس مع دفع مبلغ من المال لإصلاح أسوارها ولما أوقع المصريـون بالجيش الصليبى فى سنة ١٢٢١ وسط مياه الدلتـا ، اضطر زعماؤهـا للموافقة على الجلاء .غير أن ممثلى الجمهـوريات الإيطـالية فى الحملة ، رفضـوا التسليم بذلك وهـاجموا قصور الملك والداويـة والاسبتاريـة فى دمياط واستولوا عليها ، ونصبـوا أنفسهم سادة على المدنية ، ولم يتنازلوا عنهـا إلا عندما شعروا بأن الشتاء مقبل عليهم ، بينما كـانت المؤنة آخذه فى النفـاذ . وكانت جمهورية البنـدقية أكثر حماسا من زميلاتها للبقاء فى مدينة دمياط حتى إنها عندما أرغمت على الانسحاب حرمت على رعاياها التردد على موانىء مصر والتجارة معها[5] .

---

(١) Heyd : of . cit . Tome . p. 403-404 .

(٢) Wiet : of . cit . p 385.

(٣) ديل : البندقية ص ٤٥ .

(٤) Michaud : Histoire des croisades tome III p. 647 .

(٥) Heyd : of . cit . Tome I p . 405-406 .

وهـــددت بأقصى عقـــوبـات السجـن والنفي والمصـادرة للمخـــالفين ، وأنـــزلت فى الإدرياتيك فى ١٢٢٦ أحد سفنها لتتجول باحثة عن مخالف(١) .

على إنـه فى الـوقت الذى كـانت فيـه الجمهـوريـة تتبع سيـاسة معاديـة لمـصر وللتجـارة مع مصر ، كانت تحاول جاهـدة أن تثبت حقوقها التجاريـة فى شمال سوريا، ففى سنة ١٢٢٥ أرسلت لتلك الجهـات السفير البندقى تـوماسينو فوسكارينـى الذى عقد معـاهدات تجاريـة مع الملك العزيـز صاحـب حلـب ، ومع صاحـــب اللاذقيـة وصاحـــب حصـــن سيجـــون حصل البنـادقـة بمقتضـاهـــا على امتيـازات فى تلك الجهات(٢) .

وعندما وجـدت جمهورية البندقيـة أن الامبراطور فردريك الثانى ، عقـد معاهدة سنة ١٢٢٩م مـع الملك الكامل ، قـامت بدورها بـإلغاء قرار تحريم التجـارة مع مصر وأرسلت سفيرا إلى شمال سـوريـا وعقـد معـاهـدة مع صـاحب حلب الملك العـزيـز حصلت بمقتضـاها على امتيـازات أكثر ، وفى سنـة ١٢٣٨ أرسلت البندقيـة إلى الملك العادل الثانى سفيرين لعقـد معاهدة تجارية جديدة حـوت كثيرًا من التسهيلات وجاء فيهـا لأول مـرة ذكـر قنصـل البنـدقية كمشرف على تجارهـا فى الإسكندريـة(٣) . وفى ١٢٤٤ أرسلت سفـارة أخرى حصل فيهـا سفيرها وكان السلطـان هو الملك الصـالح نجم الـدين أيوب على تأكيـد بـالامتيازات التى منحهـا والـده ، الملك العادل الثـانى للبنادقة(٤) .

وعندمـا هاجم الملك لويس التـاسع دمياط ١٢٤٩ لعبت البندقية سيـاسة ذات وجهين فهى لم تشترك فى الحملـة كبيزا وجنـوه خوفـا إلغاء معـاهداتها ، إلا أنها عنـد ما اضطر لـويس بعد وقوعه فى الأسر ١٢٥٠م إلى الإذعـان لرغبات السلطـان بالجلاء عن دمياط ، ثارت عليـه ثورة عنيفة ، وتعاونت مع زميلتها جنوه وبيـزا على مهاجمة الحجاج الفرنسيين عند عودتهم فى البحر فإنها كـانت تأمل أنه فى ظل الاحتلال الصليبى سوف تتمتع بإعفاءات كاملة من الضرائب .

---

(١) Heyd : of . cit . Tome I p. 405-406.

(٢) Heyd : of . cit . Tome I P. 365 .

(٣) Heyd : of . cit Tome I p. 375 .

(٤) Mas Iatric . Traites Appedice P. 72- 76 .

سياسة الأيوبيين مع السلاجقة :

تمثلت هذه السياسة طوال فترة حكم كيخسرو الأول وكيكاوس وكيقباذ ، فى تأمين طوروس المواجهة لمملكة قليقية ، وفى علاقات ودية مع الفرنج ، وحاد مع اليونانيين ، وعداء إخوانهم المسلمين فانحازوا إلى الفرنجة بأنطاكية لمناوأة قليقية ، وإلى اللاتين والبنادقة بالقسطنطينية لمناهضة اليونانيين فى نيقية ، وإلى القبارصة ، واستأجروا عساكر من الفرنج وتراسلوا مع البابوية ورحبوا بالبعثات التبشيرية اللاتينية ، وذلك لمحاولة انتزاع رعاياهم اليونانيين من كل ما يربطهم ببيزنطة من صلات(١) .

أما سياسة السلاجقة مع القوى الإسلامية ، فإنها قامت على التوسع صوب الجنوب الشرقى وكان السلاجقة قد استهلوا هذه فى منتصف القرن الثانى عشر ، تخلوا عنها أثناء الخصومات الأسرية ولقوا المساعدة بما حدث من الاضطراب الناشب بين أمراء الشام والجزيرة .

وذلك أن كيخسرو وكيكاوس اتخذا سياسة التحالف مع الظاهر غازى صاحب حلب ضد ليو الثانى ملك أرمينيا الصغرى ، وكان غازى الأيوبى يأمل من وراء هذا التحالف أن يجد فيه الحماية من عمه العادل الأول . وحينما مات الظاهر سنة١٢٢٦(٢)، أراد كيكاوس أن يساند ابنا آخر لصلاح الدين وهوالأفضل ، الذى كان يتولى سمسياط منذ سنة ١٢٠٣ إقطاعا من السلاجقة ، وكان يرشحه لأن يتولى حكومة حلب، غير أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، بسبب ظهور الأشرف بن العادل ، فرجع كيقباذ إلى السياسة القديمة(٣) ، واستطاع بفضل التحالف مع الأشرف أن ينتزع من مودود الأرتقى صاحب آمد وحصن كيفا ، كل ما يملك من حصون واقعة وراء الفرات، وتمتد إلى جنوب أذربيجان ، فأضاف إلى أملاكه أذربيجان سنة ١٢٢٨ بعد ثلاث سنوات من وفاة أميرها بهرام شاه ، وفى غمرة هذه الأحداث ، ظهر عامل جديد فى سياسة غرب آسيا وهو الخوارزمية بقيادة جلال الدين خوارزمشاه ، ولم يظهر السلطان السلجوقى شيئا من الكراهية لجلال الدين خوارزمشاه الذى لم يهدد سوى أرزروم التى يعادى صاحبها كيقباذ السلجوقى(٤) وسوى أملاك الأشرف

---

(١) العينى : عقد الجمان حوادث ٦٢٦ مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ . المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٢٣ أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٤٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ض ١٨٧ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٢٤ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٣٨ .

الشمالية الشرقية ، مثل أخلاط على بحيرة وان . غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت حينما ظهر أن جلال الدين يستعد لغزو الأناضول بعد أن دانت له أخلاط ، ولقى التأييد من جهان شاه صاحب أرزدوم صار من أتباعه . واستطاع كيقباذ أن يحرض الأشرف الذى قدم بنفسه ، وكذا حكومة حلب ، فضلا عن السلطان الأيوبى الكامل ، على أن يرسلوا إمدادا ، ونجحت القوات المتحالفة فى أن تنزل الهزيمة بالخوارزمية فى سنة ١٢٣٠ فى غرب أذربيجان ، وإذ تورط بهرام شاه فى تحالفه مع الخوارزمية ، وحل به ما حل بهم من الهزيمة ، ففقد ارزدوم التى أضافها كيقباذ إلى بلاده فأصبحت أملاك كيقباذ تتاخم أطراف آذربيجان[١] ، وإذ كانت جورجيا (بلاد الكرخ) مساندة للخوارزمية ، فإن ماحدث من تهديد السلاجقة لهم ، أرغمهم - هم وحلفاؤهم - فى طرابيزون على أن يتخذوا سياسة المصالحة والمسالمة والولاء نحو كيقباذ ، ولما لم يكن ثمة باعث للتعاون بين الأيوبيين والسلاجقة ، تصادمت أطماعهم ففى سنة ١٢٣٣ كان السلطان الكامل يأمل فى أن يغزو بلاد السلاجقة ، بعد أن أنهى إليه بعض السوريين الذين كانوا بهذه البلاد سنة ١٢٣١ ، أنها بلاد ضعيفة ليس لها من يدافع عنها ، وإذ توقف الكامل فى الجبال الواقعة شمال الشام توجه صوب الشمال الشرقى ، بعد أن دعاه لمساندته صاحب خرتبرت ، غير أن الحليفين الكامل وأظفر تعرضا لهزيمة ساحقة على يد كيقباذ الذى ضم إليه[٢] ، وبذلك امتدت أملاكه إلى ما وراء نهر الفرات ، بل إنها أقام حامية فى حران فى جون بلاد الأيوبيين ، والتى لم يلبث أن استردها الكامل دون تعب ثم حاصر آمد ، ولما مات كيقباذ الأول سنة ١٢٣٧ وقع الخلاف بين ابنه غياث الدين والخوارزمية ، الذين فروا إلى الجزيرة ، غير أن ما حدث من وفاة الأشرف ثم الكامل هيأ له أن يشترك فى التحالف مع أمراء الشام والجزيرة ضد الصالح أيوب ابن الكامل ، والخوارزمية[٣] . فدخل آمد نفسها التى تعتبر أمنع المعاقل فى ديار بكر وأن يحاصر ميافارقين الواقعة وراء دجلة ، فامتدت السلاجقة إلى نفس الحدود التى كانت للدولة البيزنطية من قبل ، بل إنها اتجاهتها نحو الجزيرة قد تجاوزت حدود بيزنطة السابقة وهى

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٥٣ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٧٣ .
(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٦٢ .
المقريزى : السلوك ج١ ص ٢٥٤ .
(٣) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٦٨ .

التركمان . على أن الدولـة السلجوقية فى قـونية ، زمن كيقبـاذ الأول وبرغـم تزايـد الخطر المغولى فى مستهـل حكم كيخسرو الأول بلغت الذورة فى القـوة العسكرية وفى التـوسع الإقليمى يحيط بها أتبـاع أو حلفـاء من كل جـانب ، المسلمـون فى حلـب والجزيـرة المسيحيون وطـرابيزون ونيقية وقبرص ، التى كـانت ترسل إمـدادًا كلما طلب إليها ذلك وكانت هذه أيضـا هى الفترة التى اكتمل فيها نظام الدولة ونضجت الحيـاة الاقتصادية والحضارية .

على أنه لسـوء الحظ أن دولة السلاجقة كـانت تخفى وراء واجهتها القوية مـا كان ينخر فى داخلهـا من عوامل الضعف على حين أن الخطر المغولى بـدأ يلوح فى الشرق . ذلك أن المغول قـد توغلوا فى أملاك السلاجقـة أواخر أيام كيقباذ الأول ومـا حدث من مشاكل داخلية بين المغول هيأ لكيخسرو فترة من الراحة لِبِضْعِ سنوات .

الأيوبيون والحملة الصليبية السابعة :

ترتب على زوال شخصيـة الكامل القوية ، أن وقع الأمـراء الأيوبيون فى مخاصمات ومنازعات عنيفة بالغة الاضطراب ، فابنه العـادل أبو بكر الثانى ، الذى عينه خليفة له بعد استبعـاد الصالح أيوب ، اعترف به القـادة المصريون ، الذين رشحـوا أيضا الجواد يـونس (حفيد العـادل الأول وزوج ابنـة الأشرف الـوحيدة) ليكـون أميرا على دمشق ، وطردوا الناصر داود إلى الكرك مرة أخرى . واتخذ جيش حلب خطة الهجوم بدل الدفاع، فانتزع معرة النعمان وحاصر حماه ، بينما قام أميرها بتجديد التحالف مع كيخسرو الثانى، ورفضا التفـاوض مع الصالح أيوب ، والعـادل الثانى والجواد[1] ، لقى الصالـح أيوب متاعب من الخوارزميين الذين تـركوا خدمة كيخسرو ودخلوا فى خـدمة أرسلان الأرتقى صـاحب ماردين فهـرب إلى سنجـار غير أنه حينما حـاصره بسنجار بـدر الـدين لولـو صـاحب الموصل ، أرسل الصالح أيـوب قاضى سنجـار متنكرا إلى الخوارزميـة يطلب منهم الانحيـاز إلى جانبـه ، فزحفـوا على سنجـار وهـزمـوا قـوات الموصـل وطـردوا جيشـا سلجـوقيا كان يحاصر آمـد ، واستولوا على حصن نصيبين وأقليم الخابـور باسم الصالح أيوب ، مقابل أنه جعل لهم بلاد مصر (فى غرب الجزيرة)[2] .

---

(١) أبو شامه : ذيل الروضتين ص ١٦٨ .
أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٠ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ .

وحوالى نهاية سنة ١٢٣٨ ، خشى الجواد صاحب دمشق أن يتعرض للغزو من قبل مصر بالاشتراك مع الناصر داود ، فطلب إلى الصالح أيوب أن يأخذ دمشق مقابل أن يعطيه بعض الجهات فى الجزيرة ، غير أنه صار لأيوب من الشهرة ما أقلق جيران دمشق ولذا ، فإنه بعد أن توطد مركزه فى دمشق توجّه إلى فلسطين ليتجهز لغزو مصر ، غير أن عمه الصالح إسماعيل خرج من بعلبك وصحب معه المجاهد أمير حمص ، وانتزعا دمشق من يد المغيث عمر بن الصالح أيوب (٣٠ سبتمبر ١٢٣٨م) وإذ تخلى عن أيوب عساكره فلم يبق معه سوى ثمانين مملوكا ؛وقع فى أسر الناصر عند نابلس ، وتقرر حبسه فى الكرك[١] .

وفى مصر سارت الأمور زمن العادل الثانى من سيء إلى أسوأ[٢] ، فيما اشتهر به العادل من الإسراف البالغ ، بدد ما تركه الكامل من رصيد كبير من الأموال (الذى بلغ نحو ستة ملايين دينار ، عشرون مليون درهم) وثارت العداوة الصريحة بين الأتراك والكرد فى الجيش المصرى ونزع المماليك إلى التمرد والثورة[٣] ، وماكان من المبادرة إلى أن يدخل فى النظام الأيوبى قوة جديدة وغرض جديد ، إنما اتخذها المظفر تقى الدين الثانى صاحب حماه ، ولما اشتهر به من الاعتقاد فى سياسة التحالف مع مصر ضد الحلف التقليدى المؤلف من دمشق وحمص وحلب ، كان من الأمور البالغة الأهمية عنده أن يكون بمصر سلطان قوى . كل آماله تركزت حول الصالح أيوب[٤] ، بعد أن حلف له أنه فى مقابل ما يبذله داود له من مساعدة لولاية الحكم بمصر يجعل الصالح أيوب له حكومة دمشق والجزيرة ، وفى نفس الوقت نفذت الرسائل إلى الخوارزمية ، تحثهم على أن يهاجموا حلب وحمص[٥] وابتسم الحظ لأيوب بعد أن ظل حتى وقتذاك عابسا فى وجهه ، وبينما كان العادل الثانى يتجهز للمسير إلى فلسطين للقاء داود وأيوب، ألقى القبض عليه عساكره من الترك فى ٤ مايو ١٢٤٠ ، وجرى إنفاذ رسالة عاجلة إلى أيوب الذى ، دخل القاهرة فى ١٨ مايو هتفوا به سلطانا[٦]ونتيجة ذلك عقد

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٧٣ .
أبو شامة: ذيل الروضتين ص ١٦٩ .
(٢) Setton : op. cit . Tome II. p. 706 .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٧٥ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣١٠ .
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٢٨١ .
(٥) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ١٨٠ .
(٦) Runieman : op . cit . vol III p. 210

الصالح إسماعيل محالفة مع الصليبيين تنازل فيها عن صيدا وشقيف عرنون وما تبقى من صيدا وطبرية وانصرف الصالح إلى إعادة تنظيم مملكته فى مصر بدلا م أن يهتم بما جرى فى الشام من أحداث .

فى مايو سنة ١٢٤٢ تعرضت حملة مصرية قادمة من غزة للهزيمة بالقرب من بيت المقدس على أيدى الناصر داود صاحب الكرك والداوية ، ومع ذلك فإنه حدث بعد شهور قليلة أن اشترك الناصر داود مع قوات مصرية من غزة للقيام بغارات انتقامية على أملاك الصليبيين بعد أن أغاروا على نابلس فى ٣١ أكتوبر . غير أن ما أحرزه المغول من انتصارات حمل الأيوبيين على المبادرة إلى تسوية منازعاتهم غير أن المفاوضات احبطت لارتياب الصالح إسماعيل فى الصالح أيوب . فلجأ إسماعيل إلى تجديد التحالف مع الفرنج ، وفى ربيع ١٢٤٤ تنازل لهم عن بيت المقدس[١] ، بعد موافقة داود صاحب الكرك والمنصور صاحب حمص ، فما ارتكبه الكامل من حماقة قبل خمس عشرة سنة ، صار أمرا مسلما به بل تجاوز الحد بأن سلم إليهم قبة الصخرة .

على أن مخاوف الصالح إسماعيل تستند إلى أساس سليم ففى يونيه ١٢٤٣ أرسل المظفر صاحب حماه ، الذى يعمل بالاتفاق مع الصلاح أيوب ، سفارة إلى الأمراء المشارقة وبغداد ومن تعاليمه لرئيس السفارة أن يتصل بالخوارزمية فى طريقه ، وأن يدعو زعيمهم بركة خان لمساندة أيوب إزاء أعدائه بالشام[٢] ، وفى صيف سنة ١٢٤٤ انساب ما يزيد على عشرة آلاف منهم فى البقاع واستولوا على بيت المقدس بعد حصار قصير الأمد (٢٣ أغسطس) واحتلوا فلسطين وانحازوا إلى القوات المصرية بغزة[٣] . قام المنصور صاحب حمص مرة أخرى بالمبادرة إلى عقد حلف مؤلف من المسلمين والفرنج بالشام لمناهضتهم وزحفت على غزه الجيوش المتحالفة من حمص ودمشق والكرك وعكا[٤] . على أن الخوارزمية والمصريين بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس أنزلوا الهزيمة الساحقة بالفرنج فلم ينجُ من القتل سوى نحو (٥٠) من الداوية والاسبتارية .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٣٩٥ .
العينى : عقد الجمان ، حوادث سنة ٦٤١ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٢ .
(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ص ١٧٤ .
(٣) Howorth : History of the Mongols . vol .III p. 456.
(٤) Camb Med . Hist . vol VI . p. 636 .

وفى أكتوبر ١٢٤٤ بادر بيبرس بقواته لحصار عسقلان بينما استولى حكام الصالح أيوب على السلطة بفلسطين وكان حادث استيلاء الخوارزمية على بيت المقدس سببا مباشرا من أسباب الحملة السابعة .

وللحملة السابعة أهمية خاصة فى تاريخ الحروب الصليبية وفى تاريخ مصر ، نظرا لأنها عاصرت تلك نهاية الدولة الأيوبية وبداية دولة المماليك ، وقد بدأت الدعوة للحملة سنة ١٢٤٥ فاستجاب لها الملك لويس التاسع الذى اشتهر بالتقوى والصلاح وكانت أحوال العالم المسيحى وقتذاك شديدة الملائمة[١] ،إذ اجتاح التتار العالم الإسلامى حتى وصلوا لتخوم بغداد ، وبعد هزيمة السلاجقة أصبح الطريق إلى بلاد الشام مفتوحا[٢] .

وفى سنة ١٢٤٣م قاموا بهجوم على سوريا عن طريق ميافارقين وماردين والرها وتقدموا عبر الفرات إلى حلب ووصلوا إلى باب جيلان ويشير ما ثيو باريس إلى أن أهلها دفعوا جزية[٣] .

ونظر المسيحيون إلى قوة المغول وتهديدها للعالم الإسلامى نظرة ارتياح ورأوا من الخير لهم ترك كلا الفريقين يصارع الآخر حتى يقضيا على بعضها البعض وعندئذ يصبح بوسع البابا التأثير عليهم وفرض سلطانه عن طريق نشر المسيحية ، وبهذا يتوقف توسعهم اتجاه أوربا واعتقد البابا أن باستطاعته تأليف حلف صليبى مغولى فيصبح الشرق الأوسط بين شقى الرحا فيهجم المغول على الشرق الإسلامى من الناحية الشرقية فى حين يقوم لويس التاسع بالهجوم على فلسطين والشام من ناحية البحر المتوسط[٤] .

ولقد تناسى البابا شيئا هاما وهو أن المغول قد قاموا بالفعل بمهاجمة البلاد المسيحية مثل أنطاكية وجورجيا وهنغاريا وطرابيزون ، واستنجد الحشيشية بالغرب للوقوف أمام هذا الخطر المشترك ، ولكن لم يجدوا آذانا صاغية ، ولم يجدوا استجابة إلا عند فردريك بربروسه .

أرسل البابا مبعوثين سنة ١٢٤٥م لمحاولة إقناع المغول بتنفيذ هذا التحالف .

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٦ .

(٢) Howorth : of . cit . vol III p. 456 .

(٣) Howorth : of . cit . vol III p. 456

(٤) زيادة : (محمد مصطفى) حملة لويس التاسع على مصر ص

ولكن الخاقان أصر على أن يدخل البابا وجميع أمراء الغرب فى طاعته أولا ، وأخبره أن المغول لا يبغون ألا الفتح ، ولكن البابا أنوسنت الرابع مازال مؤمنا بجدوى التحالف مع المغول فأرسل أحد الدونسكان فى سفارة ثالثة فرحل عبر سوريا وقابل حاكم المغول فى تبريز سنة ١٢٤٧ ، وكان المغول مستعدين لمناقشة أمر التحالف ضد الأيوبيين إذ كانوا يعدون العدة لمهاجمة بغداد(١) ، وكان اشتباك الصليبيين مع الأيوبيين سيشغل مسلمى سوريا عن مد العون إلى الخلافة العباسية ، وأرسل الخاقان إلى البابا مبعوثين ، ولكنه كان دورهما مقصورا على التشاور لا اتخاذ خطوات إيجابية وأرسل معهما البابا رسالة يبدى أسفه على عدم تحقيق التعاون ضد الأيوبيين (٢).

وحين شرع لويس فى إعداد الحملة جعل وجهتها مصر نظرا لأن الدولة اللاتينية فى القسطنطينية لم تعد تثير اهتمام العالم الغربى ، فيسعى لإنقاذها واستغرق الإعداد للحملة ثلاث سنوات وبلغت أنباء تلك الاستعدادات الصالح أيوب عن طريق الامبراطورية فردريك الثانى الذى أنبأه لويس بصفته صاحب الحق فى عكا(٣) .

ولم تشترك البندقية فى الحملة فى البداية حرصا على مصالحها التجارية فى مصر ، واشتركت بدلا منها بيزا وجنوه(٤) ، وغادرت الحملة فرنسا ١٢ أغسطس ١٢٤٨ ورحلت إلى ليماسول عاصمة قبرص ، ورأى لويس أنه إذا استطاع الاستيلاء على دمياط فإنه سيتخذها وسيلة للمساومة على بيت المقدس وسوف يغرى النصر البندقية للاشتراك فى الحملة(٥) ، وصل لويس التاسع إلى قبرص فى سبتمبر ١٢٤٨ ، ظل مقيما بقبرص مدة طويلة حتى يكتمل احتشاد العساكر ، غير أن إرجاء السير كان له آثار سيئة، منها وفاة كثير من النبلاء المشتركين ، ومنها ضياع فرص مواتية لمهاجمة مصر ، ذلك أن السلطان الصالح أيوب توجه على رأس جيشه إلى الشام وهاجم الناصر أمير حلب، وانصرفت عساكره لحصار حمص أثناء شتاء ١٢٤٨-١٢٤٩.

والواقع أن هذه الشهور كانت فرصة مواتية للمبادرة بالسير إلى مصر ، فالانتظار حتى فصل الربيع ليس له من معنى سوى أن الصليبيين سوف لا يأملون فى أن يقيموا

(١) Camb . Med . Hist . vo l IV. p. 638 .

(٢) Runicman : of . cit . vol III p. 260 .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٢١١ .

(٤) Heyd : of . cit . Tome I P . 404 .

(٥) Grousset : of cit . Tome II p . 434 .

رأس جسر قبل حلول الفيضـان فيصير اجتياز الـدلتا أمـرًا يكاد يكـون مستحيلا وإن أثمرت تلك الفترة علاقـات مع أطراف عديدة كالمغول والسـلاجقة والبيزنطيين وأمراء الـلاتين بـالقسطنطينيـة وأمـراء المورة ، فسعى الملك لـويس إلى التحـالف مع المغـول ووصل إليـه اثنان من النسـاطرة ، بعثهم القـائد المغولى نـائب الخاقان الأعظم ، وكـان الخطاب يتحـدث عن التقارب بين المغول والصليبيين وأرسـل لويس معه أخـوه الذى يتكلم العربية ، ولكن الخاقـان كيوك كان قد تـوفى وتولت الأمر[1] بدلا منـه « زوجته » واقـد اعتـذرت عن عقـد تحالف بسبب الصعـاب التى تعترض الحملـة فى تلك الفترة وتمنعها من إرسـال حملة للغـرب ، ولم تصل البعثة إلا بعـد ثلاث سنـوات ١٢٥٢ م بعد فشل الحملـة ، وكانت تحمل خطـابًا كتلك التى يـرسلها السادة إلى أبتـاعهم ، وتطلب الانتظـام فى إرسال الهدايـا . وأرادت القسطنطينية استغـلال الحملة لصـالحها بعـد أن أضحى بلـدوين الثـانى امبراطور القسطنطينيـة فى حـالـة من الفقر يـرثى لها وتـردت امبراطوريته فى مهاوى الانهيار وخاصة بعد ازدياد قوة حاكم نيقية ولم تعد مملكة اللاتين فى القسطنطينية إلا رقعـة ضيقة[2] حول القسطنطينيـة ولم يعد بينه وبين أتبـاعه إلا ولاء أسمى ليس لـه وزن ، ولم يعد مستقبل الامبراطوريـة شيئا جـوهريـا ، فرغم إمكـانيات الأتباع المادية والبشرية فإنهم آثروا الاشتراك فى حملـة لويس التاسع على مصر على إنقاذ امبراطـوريتهم ومن هؤلاء الاتبـاع حاكم أخيـا وحـاكم المورة ، أرسل إليه لـويس دوق برجانديا لما اشتهر به هو وفرسانه من قوة وشجاعة ، ولقد قضى الدوق الشتاء فى إقناعه فى الاشتراك فى الحملة ، ولقـد اشترك بها يقرب من أربع وعشرين سفينـة حربية كـاملة العتـاد والمؤن ، وبـدلا مـن أن يسعى لـويس لالتماس المسـاعـدة من امبراطـور القسطنطينية، سعى هذا الامبراطور البـائس إلى الملك لويس التاسع[3] ، رأى بلدوين فى تلك الحملة الرابعة وتوجيهها إلى البيزنطيين فى نيقية أو مساعدتهم على الأقل ببعض قوات الحملة . وأرسل الامبراطور بلـدوين زوجته ماريا[4] بربين ابنة حنا بـريين لمحاولة التأثير على لويس ، وكانت تمت له بصلة القرابة .

أورد جوانفيل مـؤرخ الحملة ، وصفـا لتلك الرحلـة ، كان جوانفيـل يميل لحكام القسطنطينية الـلاتين ، وتبادل مع بلدوين الرسـائل العديدة ، وكـان جوانفيل وبعض

(١) Setton : of . cit II. p. 493 .

(٢) Miller : Essays of the Latin Orient P. 91 .

(٣) Joingille (Jean Sire de : The History of st . Louis . Trans joan Evans p. 41 .

(٤) Joinville : of . cit . p. 41 .

الأمراء الصليبيين يميلون إلى مساعدة القسطنطينية ، واستقبلها جوانفيل وحملها رسائل تأييد من حوالى مائتين من الصليبيين يظهرون الود واستعدادهم لتأييد بلدوين ، بل أكد لها أنه وحوالى ثلاثمائة فارس على استعداد للذهاب فورا إلى القسطنطينية إذ وافق الملك لويس ، بل وأنهى إلى لويس رغبته ، ولكن لويس رفض هذا الرجاء فعلى الرغم كان يميل إلى الاستجابة لرجاء الامبراطورة ماريا بريين فإنه صارحها بأنه من الأجدى أن تتجه الحملة إلى المسلمين وإلى مصر بالذات نظرا لأنه لا يحتمل تشتيت قواته وتوجيهها إلى جبهتين ، وكان لويس شديد الاقتناع بألا جدوى من مساعدة القسطنطينية وكل ما فعلته ماريا أن عقدت زواج شقيقها حنا دى برين صاحب عكا على كونتيسة مونتفيرات .

أما موقف الأيوبيين من الحملة السابعة ، فإن الصالح أيوب كان يعتقد أن الحملة ستتوجه إلى الشام ، ولكن بعد أن تبين له أن الحملة موجهة إلى مصر ، وسارع بالعودة إلى أشموم طناح ليكون فى مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط[1] وأرسل الجيش بقيادة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ وأمر بإعداد دمياط وتجهيزها بمستودعات الذخيرة والأسلحة والمؤن وإعداد أسطول نهرى ، ولكن لويس استطاع الاستيلاء على دمياط وانسحب فخر الدين بجيوشه ، ورحل الصالح أيوب بالجيش إلى المنصورة ، وتأخر لويس فى الزحف إلى القاهرة ، وبدأ ارتفاع النيل ولم يكن أمراء الصليبيين الذين يرافقون لويس يبدون اهتماما بالحملة ومصيرها ومن الوقت الذى اتخذ فيه لويس طريقه إلى المنصورة توفى الصالح أيوب فى ٢٢ نوفمبر ١٢٤٩ ، ولم يكن لوفاته تأثير مباشر على الموقف بفضل الإدلة القوية التى أنشأها ، وهى المماليك التى استكثر منهم وما اشتهرت به زوجته شجرة الدر من قوة الشخصية ، إذ أخفت خبر وفاة الصالح وتولت الإدارة باسمه بموافقة المماليك البحرية ثم استدعت توران شاه ابن الصالح من حصن كيفا غير أنه لم يصل حتى نهاية فبراير سنة ١٢٥٠ م[2] .

وبعد فشل حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٥٠ م سعى حاكم طرابيزون إلى التقرب إلى لويس أثناء حصار صيدا ، كما ذهبت وفود من السلاجقة بالهدايا إلى لويس التاسع سعيا للتحالف ضد مصر[3] .

---

(١) المقريزى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٧ ورقة ٩٠ ومخطوط رقم ١٤٩٥ تاريخ .
ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ورقة ٣٥٥ (مخطوط رقم ٥٣١٩) تاريخ .

(٢) لم يلبث تورانشاه فى الحكم سوى شهور حتى قتل على يد المماليك وأهم ما ترتب على مقتله من تطور فى تاريخ الشرق الإسلامى وسقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك: زيادة حملة لويس التاسع ص ٢٠٦ .

(٣) Joinivlle : of . cit . p. 180 .

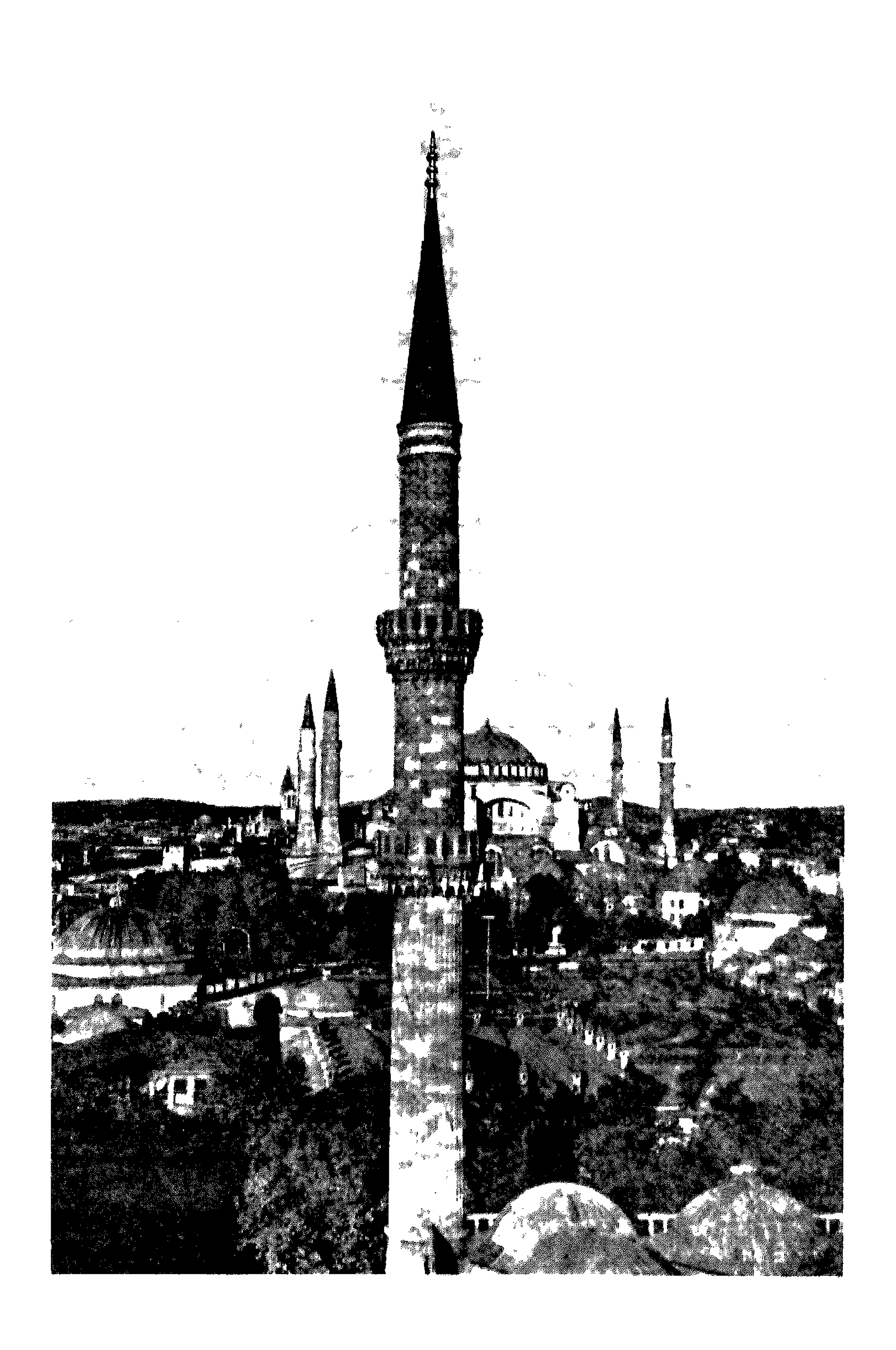


الفصل السادس

العلاقات الحضارية

العلاقات الاجتماعية - تبادل الزيارات - التسامح الديني - التأثير الحضاري المتبادل بين العرب وبيزنطة - أثر الحرب الصليبية على الأيوبيين والبيزنطيين - أثر العرب وبيزنطة في الحضارة الإيطالية - التجارة - الإجراءات الجمركية ...





كنيسة أيا صوفيا

العلاقات الاجتماعية :

تبادل الزيارات :

تحتل الامبراطورية البيزنطية موقعا ممتازا ، إذ تقع فى ملتقى الاتصال بين آسيا وأوربا وأفريقيا ، وتمر بها كل الطرق البرية والبحرية التى تصل بين أوربا الشرقية والبحر المتوسط[١] ، ورغم قيام الحروب الصليبية واضطراب التجارة ، ثم سقوط القسطنطينية ، وتعذر السير ، وصعوبة الرحلة لأسباب سياسية وطبيعية ، فضلا عن العلاقات العدائية ، فإن كثيرا من الرحالة العرب زاروا القسطنطينية التى نزلت بها جاليات إسلامية ولا سيما من سوريا[٢] ، والملاحظ أن البيزنطيين لم تجذبهم الرحلات لتدوين تقارير عن مشاهداتهم فى الشرق ، بعكس الرحالة العرب الذين زاوروا بيزنطة وعرضوا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية ، والمعاملات ، والتجارة ، والإدارة ، ساعدت المسلمين فى فترة فتوحهم الأولى على تنظيم أحوالهم الإدارية .

وصف العرب الطرق المؤدية إلى بيزنطة ، والزمن الذى يستغرقه المسافر فى رحلته ، بل أعطتنا صورة عن التسامح والمعاملة الطيبة التى لقيها العرب من الحكام البيزنطيين[٣] ، فلم يتعرضوا للكراهية التى تعرض لها اللاتين[٤] ، بل إن التقسيمات الجغرافية التى أوردها العرب لبيزنطة ، اعتمد عليها الجغرافيون الغربيون ، وكتب كثير من الرحالة العرب عن القسطنطينية فى الفترة السابقة للحروب الصليبية أمثال هارون بن يحيى الذى كان أسيرا فى القسطنطينية ثم ابن خردابه[٥] .

أما فترة الحروب الصليبية – ورغم الصراع والانهيار السياسى – فإن الرحالة العرب بهرتهم بيزنطة بحضارتها وثرائها وآثارها وعجائبها ، وأبدوا إعجابهم بالمدينة التى وصفها روبرت كلارى بأن فيها ثلثى ثروة العالم ، فزارها الرحالة العرب الهروى ، والإدريسى فى حكم آل كومنين[٦] .

---

(١) Baynes (N) : Byzantium. p. 67.

(٢) العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ١٥٨ .

(٣) Baynes : of . cit . p . 68.

(٤) كلارى : فتح القسطنطينية ص ١٣٢ .

(٥) brooks : Arabic Lists : p 27 (Journal) of Hellenic Studies vol : XXi.

(٦) Miller : of . cit . p. 262 .

وكتب الجغرافيون العرب عددا من الكتب الجغرافية - انطوت فصول منها على وصف كامل لبيزنطة ومدنها وتقسيماتها الجغرافية ، ومن هؤلاء الجغرافين ياقوت الحموى الذى ذكر الفترة التى كانت فيها بيزنطة فى يد الفرنج[1] ثم ابن الأثير الجزرى الذى ألف كتابا جمع فيه بين جميع كتابات الرحالة الذين زاروا القسطنطينية فى تلك الفترة ، وتشرح تلك الرحلات العلاقة الوثيقة بين الجانب الإسلامى والبيزنطى فالهروى الذى زار القسطنطينية فى عهد مانويل بهرته عظمة بيزنطة وثروتها ، وكان الهروى مقربا من الملك الظاهر ابن صلاح الدين ، ويورد الهروى وصفا لأسواقها وميادينها وآثارها ومناراتها ، ويعقد مقارنة بين منارة الإسكندرية ومنارة القسطنطينية « المنائر العجيبة بمدينة القسطنطينية ، منها منارة موثوقة بالرصاص فى البضرم »وهو الميدان ويورد وصفًا لبلاط الملك ، ويذكر الصليب المجنون وحكايته ، والبيمارستانات ، ثم يذكر التسامح الذى ينعم به الرحالة والمعاملة الطيبة التى يلقاها المسلمون ، والتى لقيها هو من الامبراطور مانويل ، كما يذكر كنيسة أيا صوفيا إذ أشار إلى أنه سيذكر ترتيب هذه الكنيسة وارتفاعها وأبوابها وعلوها وطولها وعرضها والعمد التى بها وعجائب هذه المدينة ، وأوضاعها والسمك الذى بها ، وباب الذهب وجميع ما بها من الآثار والعجائب ما فعل الملك مانويل معى من الخير والإحسان ، فى كتاب العجائب «أذكر كما تقدم إن شاء الله تعالى، وهذه المدينة (القسطنطينية) أكبر من اسمها نسأل الله تعالى أن يجعلها دار الإسلام بمنه وكرم »[2] .

أما الرحالة الثانى فهو الإدريسى الذى رسم صورة تقريبية لما أورده الهروى فتحدث عن المزارات الإسلامية ، وقد رأى الكهف « أصحاب الكهف » فهم فى كهف فى رستاقة وتحدث عن بيزنطة ، ومدنها وشواطئها وموانيها كطرابيزون ومسنية وسالونيكا ، فالساحل البيزنطى كله ، أجوان وجبال « وتكلم عن قوة مُنْشَئات بيزنطة التى أقامتها لحماية شواطئها ومدنها ، وعن خليج القسطنطينية ، الذى يصل بين القسطنطينية وبحر الشام وطوله ، وعن المآصر والأبراج ، وكان للخليج ، فوهتان إحداهما تتصل ببحر الشام فى جهة الجنوب ، وتحدث الإدريسى عن تقسيمها

---

(١) ياقوت الحموى . معجم البلدان ج ١٠ ص ٣٦٠ .
(٢) الهروى : الإشارات إلى معرف الزيارات ورقة ١٩٧ .
(مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٧٤٧٤ جغرافيا) .

الجغرافى[1] ، فى حين لم يعط المؤرخون الغـربيون معلومات وافية عن ذلـك ولقد وصفها وصفا دقيقـا ، لم يرد لـدى أى مؤرخ يـونانى فأورد فى البلـوبونيـز ١٣ مدينـة وأشار إلى نباتات كورفو وأثينا .

وأجمع رحالـة ذلك العصر على الإشارة بما نعموا به من معـاملة طيبة ، وما يـلاقيه المسلمـون ، رحالـة وتجار ، من حسن معاملـة ، وكـان جميع الرحـالة على درايـة بعلماء اليونان وفلاسفتهم وأبدوا إعجابهم بهم .

وما حدث من تبادل السفارات بين المسلمين والبيزنطيين كان لها مراسيم استقبال خاصـة ، تجرى على أسلوب دقيـق عند كلا الجانبين ، ولقـد أنفق الأبـاطرة البيـزنطيون الأموال الضخمـة على البعثات والضيـوف الذين قامـوا بزيـارة القسطنطينية متشبهين بالبلاط الشرقى[2] ، وشغل عـرب المشرق مـركـزا رفيعا عن عـرب المغـرب فى البـلاط البيزنطى ولقى سفـراء المسلمين من قبل نور الدين والعبـاسيين كل تكريم[3] ، وتدلنا الحوليات البيـزنطية على أن الأباطـرة اهتموا بتزويد سفـرائهم بالثروة حتى يبهـروا العالم الأسمى ، وكانت مظاهر الاحتفال تتمثل فى المجامـلات الدبلوماسية ، وعرض القوات العسكرية ومشاهـدة آثار العاصمة ، وكتاب الامبراطور قسطنطين بـورفجنتيوس الذى ألف فى القرن العـاشر والمعروف باسم المراسيـم يعرض وصفا لمراسيم البـلاط البيزنطى للاستقبالات[4] وبرغم فترة الضعف والانهيـار الاقتصادى ، امتازت بعثات بيـزنطة إلى الشرق بالفخامة .

ولقى البيزنطيـون من الجانب الإسلامى كل اهتمام ، وكـانت البعثات الإسـلامية والبيـزنطية تصحب عـادة مترجمين يجيـدون اللغـة العربيـة واليـونانيـة ، وكـان كل من البيزنطيين والمسلمين ، يسعى إلى اختيار سفرائه من الأشخاص المقربين الموثوق بهم[5] وكانت البعثات البيـزنطية إلى الخارج ترحل فى حاشية كبيرة ، محملة بـالهدايا والألطاف السنيـة والجواهر والذهـــب والحريـــر والحيوانـات النـــادرة ، وكـذلك امتـــازت سفارات الجانب الإسلامى أيضا بالبذخ ، واهتم العباسيون بأمر التقاليد الدبلوماسية ،

(١) Miller : of. cit. p. 262.

(٢) Runciman : of . cit . vol . III . p. 475.

(٣) Baynes : of cit . p . 312 .

(٤) Baynes : of . cit . p. 312 .

(٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ١٨٦ .

وكان السفراء يوضعون عادة تحت رقابة دقيقة[1] واستمرت تلك التقاليد سائدة فى عهد الدولة الأيوبية التى حرصت على علاقات الصداقة والود .

وحرص ديوان الإنشاء على استخدام صيغ وعبارات خاصة ، فى الكتابة إلى الأباطرة البيزنطيين .

كانت هناك صيغة خاصة يخاطَب بها امبراطور القسطنطينية وهى أعلى مراتب التفخيم ، وكانت الصيغ فى الحرب تختلف عنها فى السلم بما تشتمله من دعاوى وتقديم وتفخيم ، وفى الفترة التى تلت سقوط القسطنطينية ١٢٠٤ وانقسامها إلى ممالك اتخذ ديوان الإنشاء صيغة تلائم كل حاكم ، إذ جعل صيغا خاصة بحكام نيقية وصيغا خاصة بحكام سالونيكا ، ومن الألفاظ التى اعتادت الدبلوماسية إطلاقها على الامبراطور نمطان[2] ، النمط الأول ، أكثر ما فيه صفات الشجاعة مثل الأسد الضرغام، الهمام ، الغضنفر ، الباسل ثم ألقاب مركبة ، مثل العادل فى ملكه حامى البحار والخلجان ، ضابط الممالك الرومية ، الذى يحكم باسم الله ، الذى لا يقهر[3] وكان للدبلوماسية البيزنطية هى الأخرى أساليبها الخاصة بها ولها ما يشبه ديوان الإنشاء، إذ أحاطت نفسها بشبكة من الصدقات والمودات القريبة والبعيدة ، وانتهج الأباطرة البيزنطيون نهج الملوك الشرقيين فازدهرت الحركة الدبلوماسية ، وإن كانت أساليب بيزنطة لا تصل إلى فخامة الأساليب الإسلامية الشرقية التى امتازت بكثرة ألقاب المديح وفى مثال رسالة إسحاق إلى صلاح الدين :-

« من إيساكيوين (إسحاق) الملك خادم المسيح ، المتوج بفضل الله الذى لا يقهر ، طاغية اليونانيين ، أنجليوس ، إلى عظمة سلطان مصر ، صلاح الدين ، خالص المجد والود والصداقة » .

ولقد كان العادل أخو صلاح الدين بمثابة وزير الخارجية لأخيه ، وكان يقوم باستقبال البعثات الدبلوماسية والإشراف على إقامتها[4] .

---

(١) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ١٨٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ج ٨ ص ٤٣.
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٣ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٨ ص ٤٣ .

و الفترة الأولى من حكم الأيوبيين تخللتها سفارات عـديدة من كلا الجانبين وهى فترة حكم صـلاح الديـن وابنه العـزيـز وحكم أندرونيكس و إسـاحق أنجليـوس من الجانب البيزنطى[(١)] . أمـا الفترة التى تلت سقـوط القسطنطينيـة فلم تتبـادل فيهـا سفارات، ثم كثـر تبادل السفارات زمن المماليك وأسرة بـاليولوجوس ، وحـرص صلاح الديـن على استقبال السفراء البيـزنطيين ، وتفويـض العادل فى رعايتهـم كما حدث فى السفـارات التى استقبلهـا من قبل كل أنـدرونيكوس و إسحـاق[(٢)] ، أمـا سفاراتـه إلى الجانب البيزنطى كسفـارة سنة ١١٨٥ فكانت تحمل نفـائس وحيوانات وأنـواع البهار التى يهتم بها الشرق البيزنطى ، ولقد قدرت بما يقرب من ٦٦٧٥ هيبادوس[(٣)] .

وكان رد إسحاق على ذلك بهدايا تضارعها فى الفخامة منها تاج مرصع واستقباله الـرسل فى قصر منيف استقبالا عظيما وأحـاطهم بمظـاهر الاحترام ، وفى سنـة ١١٩١م أرسل إسحاق مـرة أخرى رسولا وهـدايا وقـام العادل باستقبـالهم ، وكان يصحب كل تلك السفارات مترجم يجيد اليونانية والعربية ، والفرنسية وكان صلاح الدين يرسل من يثق فيهم من السفراء وممن يجيـدون اللغة اليونانيـة ، فأرسل ابن البزاز المصرى سفيرا[(٤)] ولما كانت تتطلبـه تلك المهام من مهارة ودقة ، بل إن بعض السفـارات الشرقية حظيت بما لم تحظ بـه سفارات الغـرب ، وكان الغـرض من تلك السفـارات الحرص على إقامـة الشعائر الدينية و إقامة جبهة ضد اللاتين .

التسامح الدينى :

نَعِمَ مـواطنـو كـلا الجانبين البيـزنطى والإسـلامى بـرعـايـة الطـرف الآخـر الرحـالةوالتجـار سواء ، ونعم المسلمون بـرعايـة لم يحظ بها اللاتين[(٥)] ، وتردد صـدى المعاملة الطيبـة التى لقيها المسلمون فى كتابـات الرحالة ، وفى رسـائل صلاح الدين إلى أباطـرة القسطنطينية ، فالمزارات الإسلاميـة تنتشر فى طول الأراضى البيزنطية وعـرضها وظلت كـذلك حتى بعـد سقـوط القسطنطينية زمن الـلاتين ، كما ذكـر القـزوينى وابن سعيد المغربى اللذين عاصرا تلك الفترة .

---

(١) المقريزى : السلوك ج١ ص ١٢٩ .
(٢) أبو شامة : الروضتين ج٢ ص ٣١٩ .
(٣) عملة بيزنطية .
(٤) المقريزى : ج ١ ص ١٢٩ .
(٥) بنيامين : رحلة بنيامين ص ٧٧ .

وكـان ممـا استرعى انتبـاه الهروى كثـرة المزارات الإسلاميـة ومقـابـر المسلمين ، الـذين استشهدوا فى القسطنطينية التى تلقى كل رعاية من الدولة واحترام من البيزنطين .

وكـذلك أشار إلى الجوامـع المقامـة فى القسطنطينيـة والتى يتردد عليها المسلمـون ويؤدون شعائرهـم بلا حرج ولا ضغط من السلطـات البيزنطية ، ففى جانب سورها قبر أبى الأيوب الأنصارى صـاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم واسمه خالـد بن يزيد ، وبها الجامع الـذى شيـده مسلمـة بن عبـد الملك والتـابعـون ، وفيـه قبر رجل من ولـد الحسين. بل نجد أن فى مدينة سالـونيك ونيقية أن الكنائس تجاورت إلى جانب الجوامع وفى مدينة قونية قبر أفلاطون الحكيم بالكنيسة إلى جانب الجامع وفى مدينة الأبروق وهو موضع ببـلاد الروم يـزار فى الأفاق ويقال إن بها شهـداء عمر بن الخطـاب ويقال إنهم لايبْلُوا وهناك كنيسـة لطيفة ومسجد فإن كان الزائر مسلماً أتوا بـه إلى المسجد وإن كان نصرانيا أتوبه إلى الكنيسة ، وزار مدينة أبسيس[1] ، وبها الكهف الذى ذكـر فى القرآن ، فرحلة الهروى خير مثـال على مدى العلاقات الوطيـدة ، وعلى مدى التسامح ، رغم أن الفترة التى زار فيهـا القسطنطينيـة ، وهى فترة حكـم مـانـويل[2] ، كـانت تتخللهـا الحملات على مصر .

واهتم صلاح الـدين وخلفاؤه بعمارة جـامع القسطنطينية وإرسال المقـرئين إليه ، وحظى المسلمون بالرعاية والحماية من السلطات البيزنطية[3] .

ولقى البيـزنطيون الرعـاية من صـلاح الدين وخلفـائه ، فكما اهتم صلاح الـدين بعمارة مسجد القسطنطينيـة اهتم إسحاق بأمـر الكنائس اليـونانيـة والشعائر والسماح للمسيحيين بتأديتها ، والسماح بإخراج مـوتاهم بالشموع بل وإرسـال صلاح الدين إلى بيزنطـة الصلبوت ، واشتهـر ملوك الأيـوبيين بتسامحهم كما لقى المسيحيـون اليونـانيون وخـاصة فى أنطـاكية معـاملة طيبـة ، بل إن صلاح الـدين حَوَّل بعض الكنـائس التى استـولى عليها إلى المذهب الأرثـوذكسى ، وكان اليـونانيـون فى بيت المقدس يفضلـون حكـم المسلمين على اللاتين ، ونعـم المسيحيون عامة رغم الحروب الصليبية بتسامح كبير

(١) ابسيس هى أفسيوس .

(٢) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ص ١٩٧.

(٣) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ورقة ١٩٧ .

الامبراطور فردريك الثانى[1] ، فأفاد من تلـك المعاملة الطيبـة المسيحيون جميعـا سواء اللاتين أو اليـونانيون ، وكـان صلاح الدين فى بدايـة حكمه قد استغنى عن خـدمات المسيحيين فى الدواوين ، ولكـن لم يلبث أن أعادهم سنـة ١١٧٧ م إلى أعمالهم لدرايتهم بالأعمال الديوانية فى تلك العصور ، واتخذ العـادل كاتبا قبطيا من أسرة النحال ، ووافق القبط صلاح الديـن فى غزواته[2] ، وكـان القاضى شهـاب الـدين الطوسى قـد أغلق كنيستين فأمـر صـلاح الـدين بفتحهما ، وكان فى خـدمـة الملك الكـامل الطبيب أبـو شاكر[3] ورفض الكامل تعمير مسجد بجـوار الكنيسة المغلقة بمدينـة الفسطاط ، بناء على رجاء طبيبـه ، وبرع بعض الأقبـاط فى العلوم العـربية ، وأبدى بعـض الأرثوذكس كثيرا من سرورهـم بوجودهـم فى مـصر ؛ لأن العادل أحسن معاملتهـم دون الكاثوليك على خلاف ما كان يفعلـه الصليبيون ، وكان عـدد الكنائـس يربـو على مائـة كنيسة ، وكان المسيحيـون يتعرضون لغضب المسلمـين خلال فترات قيـام الحمـلات الصليبية فقط ، على حـين أن الصليبيين كانـوا يعتـدُون على أراضـى كـل من المسلمين والمسيحيين .

ظلت الدولـة الإسلامية والـدولة البيزنطيـة قرونـا عديدة على اتصـال وثيق برغم العـداء السافـر ، والحروب التى نشبت بينهما وتأثـرت كل منهما بـالأخرى فى النـواحى الحضـارية والفنيـة والفكـرية ، إذ استمـد كل منهما حضـارته من التراث الكـلاسيكى الإغريقى ، فـالفتوح العربية امتـدت إلى مراكز الثقافـة الهلينية أمثال أنطاكيـة فى الشام وقيصريـة وغـزة فى فلسطين والإسكندريـة بمصر ثم حـران ومـراكـز الحياة الفكـريـة الهلينية[4] ، كما أفاد العرب من الحضارة الفارسيـة والحضارات القديمة فى العلم والفن قبل أن يـدخلوا فى عـداد الأمم ذات الثقافـة ، وما قـام من علاقـات ودية ومن تبـادل السفارات بين المسلمين والبيزنطيين أسهم إلى حد كبير فيما تأثـر به المسلمون من النظم البيزنطية .

---

(١) Lane - Poole : A Hist . ory of Egypt . p. 24 .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ٢٤ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٠ .

(٤) Camb : Med . Hist . col Iv . P. 774 .

أما بيزنطة فقد تأثرت بالشرق العربى حتى أصبحت توصف بأنها دولة بيروقراطية نصف شرقية(١) .

ولكن قيام الحروب الصليبية دفع العالمين البيزنطى والإسلامى إلى توجيه أنظارهم وقواهم إلى المجال الحربى والعسكرى وصرفها عن المجال الحضارى ومجال توطيد العلاقات السلمية فى الفنون والآداب فلم تحدث اشتباكات وحروب مثلما حدث فى الفترة السابقة(٢) ، وإن كان العنصر الإسلامى الذى تأثر ببيزنطة فى تلك الفترة هو سلاجقة الروم فزخرت ملاحمهم بالحديث عن حروبهم مع بيزنطة ، وكان السلاجقة على اتصال وصراع دائم بالقسطنطينية ونشأت بينهم علاقات عديدة وتسربت الحضارة البيزنطية إليهم تأثر بناء المساجد فى قونية بالأنماط اليونانية والتقاليد الفنية البيزنطية(٣). وسعى البيزنطيون للتبشير بالمسيحية ونجحوا إلى حد ما فى الفترة الأخيرة من التاريخ السلجوقى ، وارتبط بعضهم بعقد المصاهرة مع البيزنطيون ، ولكن هذا لا يمنع من وصول بعض التأثيرات البيزنطية فى تلك الفترة إذ كان من التجار سواء من العرب والبيزنطيين يجيد لغة الآخر كما أشار إلى ذلك ابن جبير(٥) ، وتسربت كثير من الألفاظ العربية إلى اللغة اليونانية ولاسيما فى المجال التجارى كألفاظ Admiral, Dinarus وكذلك أسماء بعض المنسوجات ودفع لويس التاسع فديته بالدينار البيزنطى(٦) .

وهناك بعض أمثلة قليلة للتعاون فى المجال الثقافى فمنذ العصر العباسى اعتاد الطلاب التردد على القسطنطينية للتزود بالعلم ، ففى أواخر القرن الحادى عشر كان يتردد على القسطنطينية طلبة من العرب بل من بغداد نفسها ، وقام أحد علمائهم وهو باسيليوس بدراسة الآداب المصرية واليهودية القديمة(٧) ، ما زالت التأثيرات البيزنطية المعمارية واضحة فى العمارة فى العصر الأيوبى ، ومازال بعض المهندسين

---

(١) Baynes : of . cit . p. 322 .

(٢) Bayens : of . cit . p. 222.

(٣) Miller : Essays on the Latin orient p. 527.

(٤) كان لكل من كونت طرابلس وحاكم أنطاكية حرس من المسلمين الأتراك كانوا من المولّدين من أمهات يونانيات .

Miller : of . cit . p. 527 .

(٥) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٢١٣ .

(٦) Wiet : of . cit . p. 282.

(٧) رنسمان : الحضارة البيزنطية .

اليونـانيين يسهمون فى العمائر الإسلاميـة ، ومن الدليل على ذلك الثلاث بـوابات التى بنيت فى عصر العزيـز عام ١٠٧٨ م وهى باب النصر ، باب زويلة ، بـاب الفتوح والتى قام ببنائها ثلاثة إخوة من الرهـا ، وكانت على الطراز البيزنطى وتم تجديد تلك البوابات بواسطة أحد الرهبان اليونان فى العهد الأيوبى[١] .

وتمثل عمائر صـلاح الـدين الحربيـة فى القاهـرة قـواعـد الفن الحربى المعمارى فى المدرستين اللاتينية ، العربية البيزنطية أحسن التمثيل وتوضح مدى التفاعل بينهما وبناء الحصـون فى بلاد الشـام يبـدو فيه هـذا التأثير[٢] ، وكـان الفــرنج يسيرون وفق التأثير البيزنطى وإن كان التأثير العربى بدأ ظـاهرا واهتم الامبراطور البيزنطى بعمارة الكنائس وإصلاحهـا بالـزخارف والفسيفســاء اليونـانية ولا سيما كنيسـة بيت لحم[٣] ، واشتهـر البيزنطيون بصناعة الفسيفساء وبالفنون الصغرى والحفـر البارز الذى برعوا فيه وخاصة الذهب والميناء ، وحاول المسلمون تقليدهـم وإن كانت الأمثلة الإسلامية فى هذا المجال نادرة ، وأورد المقريـزى فى قائمته عن الكنوز الفاطميـة ، لوحات ذهبية مزخرفـة بالميناء متعددة الألـوان وعثر فى أطـلال الفسطاط على قـرص من المعـدن عليه زخـرفة نبـاتية وكتابـة بالميناء المحـوطة بحواجـز دقيقة Cloisinc يـرجع إلى العصر الفـاطمى[٤]وأهم النماذج البيزنطية المعروفـة فى صناعة المعادن المزخرفة بـالميناء طاس من النحاس الأحمر محفوظ بمتحف فيرديناند بمديـنـة Innsbruckوفى هذا الطاس زخرفة محفورة ، فى وسطها جامة مرسوم فيها صورة ، تمثل صعود الإسكنـدر ، وحولها جامات أخرى فيها حيوانات خرافيـة ، على أرضية من أشجـار النخيل ، وأشكال قائمـة بذاتها ومع أن هـذا الطاس بيزنطى الطـراز فإن عليه كتـابة تثبت أنـه صنع لأمير من أمراء الـدولة الأرتقيـة فى بلاد

---

(١) Lane - Poole : A Hist. of Egypt . p. 247 .

(٢) سعداوى : الحرب والسلم زمن العدوان الصليبى ص ٢٠٨

(٣) Brooks : the relation between the Empire and Egypt p.285 (Byzantinische zeitschrift XXII .

هناك الصـور الجصية – الجداريـة الموجودة فى أبو غـوش بلـــد العنب ، وهى أعمال يونـانية من القرن الثانى عشر .

(٤) زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية ص ١١٣ .

الجزيـرة حكم حـوالى النصف الثانى من القـرن الثـانى عشر [1]، وقد كـانت بيـزنطة تستورد بعض النبـاتات الحيوية لديها مـن الدولة الأيوبية كـالبلسان المستعمل فى المواد الطبية والشب الذى يستعمل فى الصباغة، والبهار [2].

وأثـر سقوط القسطنطينيـة على النهضة الحضـاريـة إذ تشتت السكان، وتـوقفت أعمال المدارس وتقاليدها، ولم تكن الظروف مـواتية لنهضة الآداب والفنون وازدهارها. واستعـادة مجدها القـديم، وأصبحت القسطنطينية فى حـالة من الفقـر والضعف حتى اختفى كل ما كان من اتصالها وسيطرتها على الكنائس الأرثـوذكسية ومنذ سقوط بيزنطة عام ١٢٠٤م صار نفوذ بيزنطة وتأثيرها على الدول الإسلامية بالغ الندرة[3].

أثر الحروب الصليبية على الأيوبيين والبيزنطيين :

وللحروب الصليبية باعتبارها ظاهرة تاريخية تأثير كبير على كلا الجانبين الإسلامى والبيزنطى سـواء من الناحيـة السياسيـة أو الحضاريـة فحين بدأت هـذه الحروب كان المركزان الاساسيـان للحضارة هما القاهرة والقسطنطينيـة، ولما انتهت انتقلت الحضارة إلى إيطاليـا وإلى مدن الغـرب الغنيـة، تأثـر الأوربيون بكل مـن العـرب واليـونانيين، فأبدوا اهتمامـا عظيما بمعلومـاتهم فى الأدب والصناعـة والفن، وكان الغـرب فى المرتبة الثالثة كما يشير جيبون، ولكن الأحـداث التى دارت حول الغربيين فتحت أعينهم على العالم[4].

وعلى الرغم من أن الشعوب الغـربية تفتقر إلى الخيال، حتى تتصـور ما يفيض به الشرق الإسـلامى من ثـروة وخيرات، فإن الأسرى والحجـاج الـذين رأوا القسطنطينيـة والقـاهرة وتحدثـوا عن جمالها وعظمتها وتراثهما الـذى كان لـه أكبر الأثر فيما عـاد من فائدة على الغرب بينما عانى البيزنطيون والمسلمون من تلك الحرب، ففى البداية تعرض العالم الغـربى لهجوم الأعداء من جميع الجهـات من النورمان والعرب والمجـريين الذين جعلوا أقطـار أوربا الغربيـة فى حالـة من الفوضى، ثم كانـت المرحلة الثانيـة فى القرن الحادى عشر حين خـرج المسيحيون الغـربيـون فى أعداد ضخمـة إلى الشرق فى الحروب

(١) زكى محمد حسن : تراث الإسلام ص ٣٥.
(٢) ابن الأثير : تحفة العجائب ص ١٥٧، ١٥٨، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافيا.
(٣) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٥٩.
(٤) Cibbon : of cit. vol .IV. P. 484.

الصليبية[١] ، وبدأت العلاقات بينهم وبين الشرق فى مد وجزر ، وازدادت معلومات الغرب ونقدم خلال المائة عام التالية من الحروب ، ومدح كثير من الفلاسفة هذه الحروب ، ولكن تأثيرها صدم التقدم الحضارى فى الشرق البيزنطى والعربى وإذا كان الغرب قد استفاد من الناحية الحضارية فإن حياة وأعمال مليون من الناس ضاعت هباء فى الشرق ، كان من الأفضل أن تستخدم فى النهوض بأحوال العالم الغربى[٢] ، وإذا نظرنا لتأثير الحرب بالنسبة للجانب الإسلامى فإن الضرر كان أخف وطأة من التدمير الذى أصاب بيزنطه[٣] ، فليست الحروب هى السبب الأساسى فى انهيار العالم الإسلامى كما حدث لبيزنطة ، وإثر التوسع التركى فى الخلافة العباسية ، وكانت عوامل الضعف تنخر فيها ، أما الخلافة الفاطمية فإن ما تعرضت له من الفوضى والاضطراب، وما توالى على البلاد من الأزمات الاقتصادية ، فضلا عن المصادمات بين الوزراء وقادة العناصر العسكرية المختلفة ، كل ذلك أسهم فيما بلغته الدولة الفاطمية من الانهيار ، ولم يكن للصليبيين دخل فى ازدياد قوة الترك ، إذ أمد الترك الإسلام بقوة جديدة، على أن تأثير الفتح المغولى كان أكثر ضررا بالنسبة للعالم الإسلامى والحضارة الإسلامية من تأثير الحروب الصليبية[٤] ولا يمكن إلقاء تبعة استدعاء المغول على الصليبيين فرغم أن الصليبيين سعوا إلى التحالف مع المغول ، فإن من أهداف المغول الأساسية مهاجمة العالم الإسلامى والخلافة العباسية والأيوبيين[٥] ، ولكن الصليبيين كانوا ، سببا فى ضعف موقف المسلمين تجاه المغول وتشتت قواهم ، وكان قيام الولايات الصليبية داخل فلسطين وبلاد الشام له تأثيره السىء على تلك الأقطار ، ولم يمح من ذاكرة المسلمين على مَرِّ العصور ولم يحاول أهل البلاد تعلم عادات وتقاليد الغزاة . فلم يسمح لهم دينهم بذلك ، وحالت أخلاقهم البسيطة دون محاكاة عاداتهم فى السلم والحرب[٦] أما البزنطيون فإنهم شعروا نحو غزاتهم اللاتين بنوع من الترفع إذ أحسوا

(١) Gibbon : of . cit . vol IV . p. 486.
Miller : of . cit . p. 572.
(٢) Gibbon : of cit . vol VI p. 486 .
(٣) Runciman: of . cit pol . III . p . 474.
(٤) Runsiman : of . cit . pol . III . p . 473
(٥) Pirenne : the Tides of the History . pol . II p. 185 .
(٦) Gibbom : of . cit . vol . VI. p. 483 .

بتفوقهم فى الحضارة والفكر على شعب يقل عنهم فى المستوى الفكرى والحضارى .

وأعلن البيزنطيون أثناء خضوعهم للاتين كراهيتهم الواضحة لسادتهم الجدد ، ولم تجد نفعا محاولة كل امبراطور لاتينى فى التقرب من أهل القسطنطينية ، على أن قدوم الصليبيين أساء إلى الخلافة العباسية ، فالنظرية الإسلامية فى الحكم تعتمد على أن الخلفاء يستمدون سلطانهم من انحدارهم من نسل النبى(١) ، وكانت الخلافة فى تلك الفترة عاجزة عن قيادة العالم الإسلامى من الناحية السياسية والجغرافية إذ خضعت للبويهيين ثم السلاجقة ثم الخوارزميين وأصبح الخلفاء ألعوبة فى يد وزرائهم وقادتهم ، أما القادة الذين تولوا القتال ضد الصليبيين أمثال نور الدين وصلاح الدين الأيوبى فلقوا كل تقدير فى سبيل توحيد العالم الإسلامى .

اعترفوا بالسيادة الاسمية للخلافة العباسية فهم لا ينتمون للنبى بل إن كيانهم قائم على انتصاراتهم وفتوحاتهم ، فالحروب الصليبية وأخطارها هى التى هيأت لبنى أيوب الظهور وكمدافعين عن العالم الإسلامى ، فهم يمثلون القوة الحقيقية ، ولقد ظل وجودهم مرتبطا بقيامهم بالدفاع عن المملكة الإسلامية ضد الصليبيين ، وإذ تهاونوا كان ذلك إيذانا بأفول نجمهم ، وقام الأيوبيون بذلك الدور خير قيام .

وامتد اضطهاد الصليبيين إلى إخوانهم فى الدين الأرثوذكس الذين ينتمون إلى الكنيسة الإغريقية البيزنطية(٢) على حين أن صلاح الدين طالما حمى المسيحيين الأرثوذكس من اللاتين ، وأعاد إليهم كنائسهم ، فالإسلام لم يعرف التعصب ، ومع أن كل عقيدة جديدة تسعى لاضطهاد أتباع العقائد الأخرى ، فإن العقيدة الإسلامية اعتبرت المسيحيين واليهود أهل ذمة ولم تسىء إليهم(٣) ، والمعروف إن المسيحيين قاموا بنشاط مجيد فى المجتمع ، بل إن عددا من المفكرين والكتاب العرب كانوا مسيحيين ، وكان الأطباء عادة من المسيحيين(٤) ، وكانت حرية العقيدة مكفولة بنصوص القرآن وحدث أثناء نشوب الصراع بين بيزنطة والمسلمين أن قامت علاقات ودية وسفارات(٥) جرت مراعاة للناحية الدينية ، رغم أن الصليبيين أثناء الحرب قاموا

(١) Runciman : of . cit . vol . III . p .473 .

(٢) Runciman : of . cit . vol . III . p .473 .

(٣) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٤٣ .

(٤) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢٣٩ .

(٥) Runciman : of . cit . vol . III . p. 473.

بالاعتداء على الأراضى والمقدسات الإسلامية وأساءوا إلى المسلمين فإن التسامح الذى نعم به المسيحيون الشرقيون استمر .

ولقد اتبع صلاح الدين وأسرته تجاه المسيحيين ولا سيما أتباع كنيسة بيزنطة سياسة قائمة على التسامح والشجاعة والفروسية حتى أشار مؤرخ غربى أنه لايمكن إطلاقا أن نقارن بين صلاح الدين ومعاملته المرنة تجاه الصليبيين بالخوارزمية أو المغول وأحسن صلاح الدين إلى المسيحيين فى شطرى دولته مصر والشام ، لم يفرق بينهم فى المذهب ، فإن الشعب الإسلامى كان يكن الكراهية العميقة لغزاته ، ولم يترددوا فى بعض الأحيان من مواجهتهم بالمثل .

ومن ناحية بيزنطة ، لم يدر بخلد البابا إيريان الثانى حين طلب إلى الصليبيين القيام بحملة لمساعدة المسيحية الشرقية وإنقاذها ، أن الحملات الصليبية ستوجه إلى الحضارة البيزنطية ، وستكون معول هدم للمسيحية الشرقية ، وللامبراطورية التى طالما كانت مركزا من مراكز القوى المسيحية[١] . فالمعروف أن الشعوب إذا اتصلت وتبادلت الزيارات تيسر الوصول للتفاهم ؛ كانت علاقة بيزنطة والغرب أول الأمر محدودة ، اقتصرت على موقف بيزنطة من الحجاج الغربيين والجنود الذين اجتازوا بلادها وزاروا القسطنطينية فاستقبلهم الملك ، ثم عادوا ليتحدثوا عن بيزنطة وثرائها الذى بهر كل من زارها حتى فى فترات ضعفها كما تحدث عنها الرحالة العرب والحجاج الفرنجة[٢] ، وقال عنها روبرت كلارى إن بها ثلاثة أرباع ثروات العالم[٣] على أن المشكلة الأساسية التى أثارت النزاع ، فتتمثل فى محاولات البابوية فرض سيطرتها على الكنيسة اليونانية ، فلما قرر النورمان مد سلطانهم فى البحر المتوسط ، تصادمت مصالح بيزنطة والعالم الغربى[٤] ، وحين بدأت الحروب الصليبية كان لبيزنطة دور فى الدعوة إليها ، غير أنه لم يلبث أن ظهر الاختلاف بين هدف الامبراطور من الحملات الصليبية وهدف اللاتين[٥] إذ كان الامبراطور يرى أن تقوم الحملات الصليبية باستعادة حدوده التى

---

(١) Runciman : of . cit . vol . III . p. 476.

(٢) Baynes : of . cit . p. 322.

(٣) كلارى : فتح القسطنطينية ص ٢٢ ، ١٣٦ .

(٤) Runciman : of . cit. vol . III. p.476.

(٥) Miller : of . cit . p. 534.

استولى عليها الأتراك السلاجقة بينما كان هـدف الصليبيين استعادة الأراضى المقـدسة من أجل العقيدة لا لمصلحـة بيزنطـة ، ونزع الصليبيون إلى إقـامة إمـارات مستقلة ، ولم يـرض قـادتهم عما طلبه منهـم الامبراطور من تقـديم الـولاء والتبعيـة ،أضحى الجنـود والحجاج أنفسهم يعيشون فى بلاد يختلف سكـانها عنهم فى العادات والتقاليد واللغات والعقيـدة التى يعتبرونها مخالفـة لعقيدتهم ، واشتبك أفـراد تلك الحمـلات مع الأهلين وخربـوا أراضى كثيرة من الولايـات البيزنطيـة مما دعا بيـزنطة إلى اتخاذ مـوقف مُعَادٍ فى بعض الأحيان وقيام جنـودها بكبح جماحهـم ، ففكر الصليبيون فى غـزو بيزنطة ، فنصح قادة لويس السابع وأساقفته بمهاجمة القسطنطينية ، ولكنه رفض ، وكذلك راودت تلك الفكرة فـردريك بربروسه ، ولكنهـا لم تتحقق حتى جاءت الحملة الرابعـة التى استولت على القسطنطينية وأقامـت مملكة لا تينية بها[2] ، وكان هـذا تشتيتا للحركـة الصليبية ، فبدلا من تكتل القـوى الصليبية لاستعادة الأرض المقـدسة ، فإنها توجهت لقتـال بلاد مسيحية بـالغة الأهميـة ، وغلب على البابـوية نفسها المصـالح الدنيـوية بأن أقـرت ما حدث من الاستيـلاء على القسطنطينية ، ولم تجعل الصليبيين فى الشرق الأدنى ، وحينما استعادت بيزنطـة عاصمتها كان قـد انتاب الكيان البيزنطى كثير مـن التدمير ، وحاول اللاتين استعـادة نفوذهم دون جـدوى ، ولم يكن سعى الغربيين لإلحاق الأذى ببيـزنطة وأراضيها إلا تدميرا لا لبيـزنطة فحسب ، بل تدميرا للحضارة الأوربيـة ، فالقسطنطينية كانت مركز الحضارة المسيحية العالمية ، وتعرضت الحضارة البيزنطية للتدمير على أيدى اللاتين وانتقل مـركز الإشعـاع الحضارى إلى إيطـاليا فى القرنين الـرابع عشر والخامس عشر ، أما من النـاحية السياسية فلم تستطع بيـزنطة استعادة مجد الامبراطوريـة القديم فبعد عـام ١٢٠٤م لم تعد هناك امبراطـورية واحدة بـالمعنى القديم إنما قـامت إمارات عديدة متنازعـة متنافسة ، تواجه عداء الغرب والولايـات البلقانية المجاورة ولا تستطيع حماية البلاد طـويلا ضد الترك ، فالصليبيـون هـم فعلا الذين حطمـوا الجبهة المسيحية الأولى ، وتسببوا فى السماح للترك بـالعبور إلى جـوف أوربا ولم تكن ضحـايا المسيحيين الحقيقيين هـم الفـرسان الـذين سقطـوا فى قـرون حطين ولا على أسوار عكـا، بل أولئك المسيحيون فى البلقان والأناضول[3] كما أن الحروب لم تسىء إلى يـونانيين بيزنطـة بل إلى

---

(١) Runciman : of . cit . col . III. p. 476.

(٢) Runciman : of . cit . vol . III. p.476.

(٣) Gibbon : of . cit. vol . VI. p. 466,468.

اليونانيين فى الممالك اللاتينية ، إذ تدخلوا فى شعائر الكنائس وتخلوا عن حمايتها من المسلمين، بل تعرض أولئك للسخط من قِبَلِ المسلمين فيما بعد لمحاولتهم التقرب من المغول لاعتقادهم أن المغول سوف يبذلون لهم الحرية ، غير أنه لم يؤد ذلك إلا لضياع أراضيهم وتخريب الساحل الشامى[١] و برغم خضوع اللاتين للتأثيرات البيزنطية وارتباطهم بروابط المصاهرة مع بيزنطة لم تحاول أى أميرة بيزنطية تزوجت فى ألمانيا أن تمارس الدعوة لبلادها[٢] .

أفاد الصليبيون من صلاتهم بالعرب وبيزنطة ، إذ كان الغرب بالغ التخلف ، فلما انتهت الحروب الصليبية بدأت نهضة جديدة فى الغرب[٣] أفادت من حضارة الشعبين العريقين فالمسلمون والبيزنطيون ، اللذين استمدا حضارتها وتراثها من الشعوب القديمة مما حظى به الغرب من مظاهر الترف وما وصل إليه الحرير والسكر والسمسم والأرز والليمون والبطيخ والثوم كل ذلك عن كل من الإغريق ومصر[٤] .

أيقظت الحروب الصليبية ألفكر الغربى ودفعت رجال الغرب لدراسة الآداب المختلفة لليونانيين والعرب وعلومهم ، وتسربت بعض الآثار البيزنطية إلى الغرب فى الفترة السابقة على الحروب الصليبية ، ثم عن طريق المصاهرات التى قامت بينهم ، ثم الاتصال مع الغرب عن طريق التجار الإيطاليين وسردينيا ، ومع ذلك فإن الغرب كان ينظر إلى البيزنطى وقتذاك نظرة الكراهية المقترنة بالاحتقار بوصفة منشقا[٥] ، ولكن ثراء القسطنطينية وما بها من وسائل الترف جعلها مدينة الأحلام ، فإلى جانب اهتمام الغرب فى تلك الفترة بالآداب والفلسفة ، اهتموا بالرياضة والطب ، واقتضت الحاجة القيام ببعض الترجمات لتلك الأعمال الشاملة ونشر أفلاطون وروائع هوميروس[٦] ، وإن وصلت تلك المؤلفات الكلاسيكية اليونانية مثل مؤلفات أرسطو وجالينوس على يد العرب وليس بطريق مباشر من بيزنطة العصور الوسطى ، فما زال أرسطو مجهولا بالنسبة لجامعات الغرب ، ولقد سعى الغربيون إلى الحصول على ترجمات لتلك الأعمال

(١) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ١٩١ .

(٢) Runciman : of cit . vol . III. p. 472, 478.

(٣) Gibbon : of . cit . vol . VI . p. 483.

(٤) Gibbon : of . cit . vol . VI. p. 485.

(٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦٥ .

(٦) Gibbon: of . cit . vol . VI. p . 485.

عن طـريق اليهود ، وعن طـريق عرب أسبـانيا على الأرجح لا عـرب الشرق إذ نقلوا إلى الغرب الفكر اليونانى وإن كانت بعض الترجمات مشوهة(١) ، وفى بعض حالات تأثروا بـالشرقيين ونقلوا عن الغـرب الفلك والهنـدسة ، كما أن ليـونارد فبرانشى طـاف بمصر وسورية(٢) ، وهـو أول عالم غـربى اشتغل بالجبر ، وفى الفترة الستين عـاما التى قضتهـا القسطنطينية خاضعة للاتين ، توقع الـلاتين عن ثقافة تابعيهم وحضاراتهم التى كانت أكثـر تقدمـا إنما جـاءوا للنهب والسلب والتـدمير دون أن يتعرض للتحطيم والتـدمير وكـانت الوثـائق والكتب هى الشىء الـوحيد الـذى تمتع بـه أهل القسطنطينية وكـان التجار الإيطاليين وحدهم هم الذين قدروا هذه الينابيع الحضارية .

وتأثر الغربيون لا سيما حكام الممالك الـلاتينية بالشرق بالمسلمين فدخلت بعض المصطلحات العـربية فإذا الغـرب يستعمل مصطلحـات عربية فى التجـارة مثل Tarfi, Diner , Bazar وفى الشئون البحرية . Admiral ولكن ليس من المحقق أنها جـاءت نتيجة للحـروب الصليبيـة ، فـربما انتقلت إلى البيـزنطيين من قبل ثم انتقلت إلى الغـرب عن طريق بيزنطة(٣) .

ومن الناحية التجارية ازداد النشاط التجارى بين الشرق والغرب سواء مع العرب أو بيزنطة ، وسيطرت المدن الإيطـالية التجارية عليه مما أدى إلى تـدفق البضائع الشرقية على الغـرب الأوروبى(٤) وقامت أسـواق تجارية هـامة فى جميع انحـــاء الغرب مثـــل فلانـدر والراين لمبارديا وأدى هـذا إلى تدفق الثروات وازدياد قـوة القومونات الإيطـالية والاهتمام بالنـاحية البحريـة والطرق التجاريـة ، ولكن برغم أهميـة تجارة الشرق العربى بالنسبة للعـالم الغربى فإنه لم تنتشر دراسة لغاتهم ومعلومـاتهم فى مدارس أوربا(٥) ،فما حرصت عليه البابوية عدم انتشار مصطلحات القرآن(٦) ، ومع ذلك فإن بعض الفرنج

(١) Gibbon : of . cit . vol VI. p. 485.
فى معظم الحالات كانت الترجمة عن العربية تسبق زمنيًّا الترجمة عن اليونانية ، وعاشور : الحضارة الأوروبية ص ١٨٤ .

(٢) زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية ص ١٢٣ .

(٣) زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية ص ١١٢ .

(٤) Miller : of . cit. p. 526 .

(٥) Camb - Med . Hist . Vol . IV. P.324.

(٦) Gibbon : of . cit . vol VI. p. 485.

كان يتكلم العربيـة ، وهناك نقود تحمل الطابع العربى والفرنجى بـرغم قرارات الحرمان التى أصدرهـا البابا ، وربما كان علم الحسـاب والأرقام العربية راجعـة إلى التجارة التى راجت بين إيطاليا والشرق[١] .

أخذ الـلاتين بعض فنون بناء القـلاع وبعض التقاليـد الحربية البيزنطيـة فجهزوا جيوشهم على النظـام البيزنطى ، وأخـذوا عن العرب حمام الـزاجل واستعمال الشارات (الـرنوك) وألعـاب التطاحن واستعمال الـدروع واستخـدام المنجنيق وأكياس البـارود وأنـواع الوقـود وذلك رغم أصلها البيـزنطى[٢] ، وكـان لكـونت طـرابلس حـرس من المسلمين[٣] ، جماعات جـديدة فى الغرب نتيجة لاتصـالهم بالعرب وبيزنطـة فالموسلين من الموصل والأقمشـة القطنيـة من مصر والـدمشقية مـن دمشق والأقمشة الحريـريـة الثقيلة التى تعـرف باسم Samiter الأقمشة القطـنـية المتينـة البيـــضاء التى تسمى الأقمشة Dametics وأقمشة الكتان التى تجلب من بيزنطة[٤] ، أما بالنسبة لبيزنطة فإن كل ما حرص عليه الحجاج الحصول على المخلفات المقدسة فى القسطنطينية أو القدس وأساء هذا إلى العقيدة الكاثوليكية فهذا التخـريب للحصول على المقدسات أساء إلى السكان ، ودل على مدى التأخر الذى عانوه .

وإن كان الامبراطور فردريك الثانى هو الوحيد الذى كان ذا فكر ثورى فأخذ عن بيزنطة الفكر والطرائق التى تستخدمها حكـومة الامبراطوررية وهيئتها القديم[٥] وذلك بسبب تحالفه مع أباطـرة نيقية ومصاهرته لهم ، وخلافـه مع البابا ثم علاقاتـه الودية مع العرب و إجادته العربية وعلومها وآدابها وصداقته للعادل والأيوبيين عامة[٦] .

لقد أغلق اللاتين فى القسطنطينية والمغول فى فارس وبلاد الجزيرة السبيل أمام أى انتعاش سـ اء كان للمسلمين العرب أم للتقاليـد الإغريقية المسيحية ، فبـذلك نرى أن الحضارتين لإيطالية والغربية عامة هم المستفيدون الوحيدون من انهيار بيزنطة[٧] .

---

(١) Runaiman L of . cit . vol . III. p.471.

(٢) زكى محمد حسن : تراث الإسلام ص ١١٥ .

(٣) Miller : of . cit . p. 520 .

(٤) زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية ص ١١٢ .

(٥) Gibbon : of . cit . vol . VI. p. 485.

(٦) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦٥ .

(٧) Baynes : of . cit . p. 325.
Gibbon : of . cit . vol . VI. M. 485.

أثر العرب وبيزنطة فى الحضارة الإيطالية :

كان للاتصال الحضارى بالمسلمين والبيزنطيين ومستوياتها العالية تأثير حاسم فى غرب أوربا ، بل كان ذلك الاتصال من أهم عناصر تطور الحضارة الأوربية كلها فى العصور الوسطى ، وظهر ذلك من ناحية فى نشأة التقاليد البلاطية الأرستقراطية الجديدة فى غرب أوربا وفى نهضة الأدب الأوربى القومى الجديد ، كما ظهر من ناحية أخرى فى دخول التقاليد العلمية العربية اليونانية ، وقيام الحركةالفكرية الجديدة فى الغرب الأوربى ، وظلت تلك المؤثرات واضحة فى سماء المعرفة حتى سطعت إلى جانبها مؤثرات حركة النهضة الأوربية الكبرى وهى مؤثرات نابعة من إحياء التقاليد الكلاسيكية ورافق ذلك فتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية وانعزال غرب أوربا عن العالم الإسلامى حتى إذا انتهت العصور الوسطى أدارت أوربا ظهرها للشرق وأخذت تنظر غربا شطر المحيط الأطلنطى[1] .

كان للإسلام والحضارة البيزنطية أثر كبير فى تقدم الحضارة الإيطالية ترجع صلة إيطاليا ببيزنطة والعرب إلى الفترة السابقة على الحروب الصليبية إذ صانت بيزنطة للنهضة الإيطالية كنوز الأدب والفكر الكلاسيكى ، وفى البداية كانت رافنا من ممتلكات إيطاليا[2] ، ويبدو أثر الصراع الدينى فى الناحيةالمعمارية ، وتجلى هذا فى الفسيفساء والصور ، ثم ظهرت البندقية على مسرح الأحداث كوسيط تجارى بين الشرق البيزنطى والعربى ، وبرغم أن لغتها لاتينية فقد كان فنها بيزنطيًا وكنيسة القديس مرقس صورة من كنيسة الرسل القدامى ، وكانوا يرسلون أبناءهم فى نهاية القرن الحادى عشر إلى القسطنطينية .

تأثرت فرنسا أيضا بالحضارة البيزنطية ، وظل أثر الإسلام باقيا فى صقلية التى حكمها العرب لعدة قرون ، وانتشرت فيها الحضارة والثقافة العربية حتى بعد سقوطها فى أيدى النورمان ، إذ اهتم ملوكها بالثقافة العربية والحضارة وأجاد بعضهم العربية .

وعندما سقطت بيزنطة فى يد اللاتين ، لم يتأثر حكامها الجدد بحضارتها ، ودفعهم جشعهم لتدمير المدينة ، أما البنادقة فاهتموا بتلك

---

(١) داوسن (كريستوفر) : تكوين أوربا (ترجمة زيادة وعاشور) ص ٣٧٠

(٢) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٣٦١ .

الحضارة[١] ، وقد رأوا أن سقوط بيزنطة يعني انهيارا لحضارتها التى وجدت صدرا رحبا فى إيطاليا[٢] ، وازداد الاهتمام بالدراسات الإنسانية نتيجة للحملة الرابعة والحضارة البيزنطية ولكنها لم تصل إلى ما وصلت إليه[٣] لولا فضل بيزنطة والإسلام ، فإن لهما تأثيرًا على أصول النهضة الإيطالية ، فإن تلك المعلومات الكلاسيكية التى حفظها ورعاها البيزنطيون والعرب ، كانت أساسا للنهضة الأوربية فى إيطاليا ، ويكفى هذا دليلا على أثربيزنطة والإسلام فى النهضة الإيطالية[٤] .

التجـــارة :

كانت حياة بيزنطة قائمة على تجارتها ، فهى التى أمدت أجهزتها السياسية بنفقاتها الضخمة ، ولما انهارت تجارة بيزنطة اقترن هذا بانهيارها السياسى[٥] ، ولم تكن الفتوح العربية مسئولة عن انهيار تجارة بيزنطة بل كانت بيزنطة والإسلام قطبى التجارة كما كانا قطبى الحضارة فاقتسما مناطق النقوذ، ولما فتح العرب الشام ومصر ، سيطروا على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندى وكان إيذانا بسقوط مملكة أثيوبيا التى كانت سفنها تمخر البحار بين الإسكندرية والخليج الفارسى ، وكان البيزنطيون يسعون إلى استيراد المتاجر الشرقية التى تعتبر ركنا أساسيا فى تجارتهم ، أصبحت الطمأنينة التى تمتعوا بها عن هذا الطريق عاملا قرب هذه المتاجر للدولة البيزنطية وأزال العقبات التى أقامها الفرس ، وكانت تجارةالشرق تجتاز طرقا عديدة ولكن معظمها كان يمر بأراضى بيزنطة أو موانىء بيزنطية[٦] .

وكان للعملة البيزنطية احترام كبير وكان لها قيمتها فى السوق الدولية فرغم أن للأيوبيين عملتهم الخاصة فلم يمنع ذلك من التعامل بالدينار البيزنطى الذى استخدمه اللاتين أيضا فيما بعد[٧] وكذلك اهتموا بالموازين البيزنطية ، ولقد كان للمسلمين جالية كبيرة فى طرابيزون ، والغريب فى الأمر أنه رغم الأحداث التى مر بها

(١) Gibbon : op . cit . vol . VI . p. 485.

(٢) Baynes : op . cit. p. 323.

(٣) Runciman : op . cit . vol . III. p. 477.

(٤) Baynes : op . cit . p. 325 .

(٥) Pirenne : op . cit . vol . II. p. 125 .

(٦) Heyd : op . cit . Tome . I. p. 21.

(٧) Baynes : op . cit . p. 68.

التاريخ البيزنطى والتى أصبحت فيها العلاقات البيزنطية الإسلامية تكاد تصبح سرابا،كثرت أعداد المسلمين فى طرابيزون بعد سقوط القسطنطينية(١) .

ومما جعل لبيزنطة أهمية تجارية ، موقعها عند التقاء آسيا وأوربا وأفريقيا ، وكل الطرق البرية والبحرية التى تصل بين أوربا الشرقية والبحر المتوسط ، وهذا الموقع الجغرافى كان له أهمية من وجهة النظر السياسية ،لأن الولايات الإيطالية والدانوب أو آسيا الصغرى لن تستطيع التوسع دون محاولة الاعتداء على الأراضى الإغريقية ، كما منحت الطبيعة لبيزنطة موانىء ومنافذ طبيعية مثل سالونيكا(٢) .

استمرت تجارة بيزنطة مزدهرة من القرن الخامس إلى الحادى عشر الميلادى(٣) . وشهدت الفترة من القرن السادس إلى العاشر الميلادى ازدهار التجارة بين العالمين الإسلامى والبيزنطى وبلغ من اهتمام بيزنطة بتجارة الشرق أن أوربا احتكرت الصناعات التى تقوم على الواردات الشرقية مثل صناعة الحرير والمجوهرات والنقش على العاج والأحجار وازداد دخل الدولتين من المكوس التى كانت تجبى على التجارة سواء فى القسطنطينية أو القاهرة(٤) ، وأقيمت الفنادق والأسواق ، وتحدث عنها الرحالة الفارسى - ناصر وخسرو واتبعت نظاما يتعلق بإقامة التجار فى المدن ، وكانت المكوس فى الجانب الإسلامى تبلغ العشر ، وكذلك بيزنطة كانت تحصل على حوالى ١٠٪(٥) .

ومع بداية القرن الحادى عشر بدأ ضعف الامبراطورية وبداية انهيار تلك التجارة العالمية ، مقترنا بضعف الأسطول ، إذ ظلت التجارة البيزنطية تمخر المحيطات فى حماية أسطولها من القراصنة ، بل إن التجارة البيزنطية إلى إيطاليا فى البداية حملها تجار من اليونان ، ويرجع المؤرخون أسباب عدة لذلك الانهيار ، منها ما هو داخلى مثل تدخل الحكومة المستمر فى شئون الصناعة والتجارة وفساد الإدارة الحكومية(٦) ، ولكن للأسباب السياسية أهمية بالغة ، إذ أن باسيل الثانى أهمل السياسة البحرية ، يضاف

---

(١) ابن سعيد : الأخبار الطوال ص ١١٨ .

(٢) Baynes : op . cit . p. 68.70.

(٣) Baynes : op . cit . p.68.70 .

(٤) Pirenne : op. cit . vol . II. p. 186.

(٥) Heyd : op. cit . vol . I. p. 58.

(٦) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٢٠١ .

إلى ذلك السلاجقة وانتزاعهم ولايات آسيا الصغرى الغنية[١] ، وفى خلال القرن الحادى عشر كان التوسع النورمانى المصحوب بنقل صناعة الحرير إلى صقلية ، وفى نفس الوقت نتج عن الحروب الصليبية الثلاثة الأولى نقل مركز التجارة من القسطنطينية إلى إيطاليا ، وهذا يرجع لسياسة بيزنطة التجارية التى كانت تهدف إلى فتح أسواقها لجميع الأمم ومنحهم الامتيازات الواسعة فكسدت أسواقها[٢].

وكان من أسباب انهيار بيزنطة الاقتصادى أنها لم تكن دائما البادية بالهجوم ، بل استكانت فهيأت الفرصة للترك للهجوم ومكنت للمدن الإيطالية من نشر نفوذها ، إذ قضى الغزو السلجوقى بدايته على تنظيم الجيش والأسطول الامبراطورى ، وأضاع مصدر تموين هام ، فركن البيزنطيون إلى مساعدة المدن الإيطالية ، وأدت هذه المساعدة رويدا رويدا إلى السيطرة الكاملة على تجارة بيزنطة[٣] ، وكانت الحروب الصليبية تدعيما لهم فلم تعد البضائع تنقل إلى طرابيزون وعبر آسيا الصغرى ، نظرا ؛ لأن السلاجقة أغلقوا هذه الطرق ، بل فكانت تنقل إلى السفن الراسية فى موانىء سورية اللاتينية ، حيث تحملها السفن الإيطالية إلى الغرب رأسا ، لذلك تتجنب الرسوم الجمركية التى تفرضها بيزنطة ، مما أدى إلى سيطرة التجار الإيطاليين على تجارة بيزنطة ، ويقول شارل ديل : إن القسطنطينية ظلت أهم مركز تجارى فى العالم حتى سقوطها »[٤]ولكن الامبراطوررية لم تستفد من موقعها ، بل استفاد منه البنادقة الذين أصبحوا السادة الحقيقيين للعاصمة ، وفى البداية حرص الأباطرة على تضييق نطاق هذه السياسة وحرصوا على منع تجار البندقية من الاتجار فى الأخشاب والمواد الحربية مع حكام المسلمين ، ثم أخذ الأباطرة من آل كومنين وأنجيلوس يمنحون البندقية عدة مميزات خاصة بتخفيض الرسوم الجمركية ، ثم منحوها لبيزا وجنوه[٥] ، فأصبحت الرسوم لاتتجاوز ٤٪ ، أما الكسيوس فقد فتح الباب على مصراعيه لتصبح تجارة البندقية من سنة ١٠٨٢م تجارة عالمية فأعفوا من الضرائب والتفتيش الجمركى وعدم دفع

---

(١) Gibbon : of. cit . vol . VI. p.1486.

(٢) Baynes : ol . cit. p. 64,65.

(٣) Miller : of . cit . p. 56 .

(٤) ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية ص ٣٠ .

(٥) Heyd : of . cit . Tome . I . 109. 110.

الرسوم عند الاستيراد والتصدير وأكد هذا خليفتاه يوحنا[١] سنة ١١٢٦م وما نويل سنة ١١٤٧م اللذان وسعا الحى البندقى فى القسطنطينية وجعلا لهم فى كريت وقبرص مالهم من الامتيازات ومن بعدهما أكد هذه الامتيازات إسحاق أنجليوس ١١٨٧ والكسيوس الثالث ١١٩٨م.

وإذا نظرنا للعلاقات التجارية بين بيزنطة والجانب الإسلامى فى تلك الفترة يتضح لنا أن الإيطاليين لم يسعوا فقط إلى السيطرة على تجارة بيزنطة ، بل سعوا إلى السيطرة أيضا على التجارة بين بيزنطة والشرق العربى ثم السيطرة على التجارة العالمية[٢] واتخذت العلاقات التجارية مع بيزنطة زمن الأيوبيين مراحل عديدة ، ففى المرحلة الأولى التى تمتد من أواخر الدولة الفاطمية حتى نهاية حكم العادل الأيوبى وهى الفترة التى تشغل الفترة السابقة على سقوط القسطنطينية كثر تسلل البنادقة إلى أراضى كل من بيزنطة والأيوبيين غير أن ذلك لم يمنع من قيام علاقات مباشرة بين الأيوبيين والبيزنطيين ومن الدليل على ذلك تواجد طوائف التجار فى أراضى الجانبين وهذه الفترة انتهت سنة ١٢٠٤م بسقوط القسطنطينية ، وبدأت فترة جديدة تم فيها إخضاع بيزنطة ، وسعى البنادقة إلى السيطرة على مصر نفسها .

ففى الفترة الأولى نرى ازدهار الحياة التجارية فى كل من الإسكندرية والقسطنطينية فكانت المتاجر تأتى إلى الإسكندرية بالبضائع من بيزنطة وجميع أنحاء العالم ، واشتهرت بأسواقها وفنادقها وصناعتها وخاصة صناعة الأقمشة[٣] ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لبيزنطة فقد جنى أباطرتها دخلا من التجارة الخارجية والضرائب الجمركية والخانات تجاوز عشرين ألف فلورنس ، ونرى انعكاسا لهذا الوضع فى جميع كتابات الرحالة الذين زاروا كلاً من القسطنطينية والشرق الإسلامى خلال الحكم الأيوبى ، تحدث بنيامين التديلى عن ثراء كل من بيزنطة والإسكندرية ونهضتها التجارية وذكر العلاقات الوطيدة بين الجانبين ، وشاهد السفن البيزنطية فى موانىء الإسكندرية [٤]، وذكر أن

---

(١) Camb . Med . Hist . vol . IV. p. 762 .

(٢) Camb .of. cit . vol . IV. p. 413 .

(٣) وهى فرصة بلاد المغرب والأندلس ، وجزائر الترك ، وبلاد الروم والشام: ابن الأثير تحفة العجائب ص ١٥٧ .

(٤) (بنيامين) رحلة بنيامين التطليلى ص ٧٩ .

بيزنطة لا تقارن إلا ببغداد فى نشاطها التجارى وثرائها وقارن بين منارة الإسكندرية وبين منارة بيزنطة[1] ، كما فعل الهروى الذى زار بيزنطة فى فترة متقاربة وتحدث عن الفنادق والتجار العرب الذين رآهم .

ولقد لقى البيزنطيون وتجارهم الرعاية والاهتمام فى مصر وحظوا برعاية السلطات المصرية ، وكذلك نعم التجار المسلمون فى بيزنطة بكل وسائل الراحة والمعاملة الطيبة وأُتيح لهم تأدية شعائرهم الإسلامية فى جامع القسطنطينية الذى اهتم كل من صلاح الدين وابنه العزيز بعمارته ، وكانت لهم فنادقهم وأسواقهم الخاصة[2] ، ولكن عند سقوط القسطنطينية لقى التجار المسلمون الاضطهاد على يد اللاتين كما لقيه الإغريق ، وقد قامت علاقات تجارية بين بيزنطة وقونية ، وخاصة حين حرم فاناتزيس إستيراد مواد الترف الشرقية وحرم التجارة مع البندقية[3] .

استوردت بيزنطة من الشرق الإسلامى التوابل والعطور التى كان يأتى بها التجار من الهند فيشتريها تجار بيزنطة وغيرهم من التجار ، فضلا عن سلع أخرى درج البيزنطيون وملوكهم على طلبها وهو دهان البلسان ، وكان سلاطين الأيوبيين يحرصون على تلك المادة لأهميتها فى صناعة الأدوية ، فيشتريه ملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج فيستهدونه . وظلت الإسكندرية إلى عهد طويل مركزا من مراكز التجارة العالمية وحين يذكر بنيامين التجار الذين ترددوا على الإسكندرية يطلق على البيزنطيين لفظ رومان تمييزا لهم عن التجار الفرنجة من البندقية وغيرها[4] .

وقد قامت علاقات تجارية بين بيزنطة وقونية قائمة على التبادل فقدم أهل قونيه الفضة والذهب وأدوات الترف فى مقابل المواد الغذائية ، وكان أهم ما سعى السلاجقة لاستيراده مصنوعات طيبة من المنسوجات الحريرية ، ونتيجة للغزو المغولى وتخريبه للإمارات المجاورة ازدهرت حركة التجارة بين الطرفين وزادت أهمية طرابيزون بعد سقوط الخلافة ١٢٢٨ على يد هولاكو فقد جعل المغول التجارة تمر عبر الشرق إلى

---

(١) المدينة حركة المدائن من التجار القادمين إليها من بال وشنسار (اسم وادى الرافدين فى التوراة) بنيامين التطليلى ص ٧٩ .

(٢) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ورقة .

(٣) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ١٠٩ .

(٤) بنيامين : رحلة بنيامين ص ٧٩ .

طرابيزون والبحر الأسود بدلا من البحر المتوسط فانتعشت الحركة التجارية[1] .

فى الفترة التاليـة سيطر البنـادقة على التجـارة بين الأيوبيين والقسطنطينيـة نتيجة للمعاهدات العديدة التى عقدوها مع الأيوبيين ومكنتهم من احتكار التجارة فى الدولة الأيوبية بشطريها مصر والشام وأجاد كثير من التجـار اللاتين اللغتين العربية واليونانية واستمر احتكار البنادقـة للتجارة الشرقية إلى سقوط الدولة الـلاتينية فى القسطنطينية فى أيدى آل باليولوجس .

الإجراءات الجمركية :

اتبع البيزنطيـون والمسلمون نظـاما جمركيـا خاصـا وأورد كثير من المؤرخين العرب ذكـر تفـاصيـل ذلك النظـام فكـان يأخـذ العشر حـوالى ١٠٪ من دخل الصـادرات والواردات سواء من بيزنطة أو المسلمين .

واتخذت الجمارك الإسلاميـة خطة دقيقة ، وخير مثال يعطيـه ابن مماتى وابن جبير فقد كان أكثـر ما ضايقه فى رحلتـه فى مصر هو الإجراءات الجمركيـة ، فكان يصعد إلى المركب مندوب من قِبَلِ السلطان يقيد جميع مـا جلب فيه ويحصى جميع مـا فى السفينة ويكتب أسماءهم وصنائعهم ويسأل كل واحـد عما لديه من سلع ، وما لـديه من مال ، بل أحيـانا يصل الأمـر إلى التفتيش الشخصى ، والضرائب على الصادرات والـواردات تصل إلى الخمس بالنسبة للتجار الروم كما يذكر ابن مماتى[2] .

والمعروف أنه جرى تشييد الفنادق ليقيم بها التجـار ، وكانت إقامة التجار تخضع لرقـابة وإشراف الحكـومة فلابـد للتاجـر أن يحصل على تصريح خاص من الحكـومة ، وكان فى بيزنطـة كثير من التجار وخاصة من سوريا ، وجميع المواد الخام احتكـارا للدولة ولم تسمح بيزنطة للتجار الأجانب المسلمين بالإقـامة أكثر من ثلاثة أشهر[3]ولم يختلف الوضع فى هذه الناحية عند المسلمين إذ كان للتجار فنادقهم ، وكان الفندق يتألف من طـابقين : الأعلى لـلإقـامـة ، والأدنى لحفظ البضـائع ، ونعم التجـار بحمايـة الـدولـة لبضائعهم ولأشخاصهم[4] ، وأقام التجار اللاتين فى فنـادق طرابلس وحلب واللاذقية

---

(١) Ostrogorsky : op . cit. p. 345 .

(٢) ابن جبير : رحلة ابن جبير ص ٧ ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٢ و ٢٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٣ ، رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٢٠٦.

(٤) Heyd : op . cit . Tome . I. p. 332.

ودمشق وفى القاهرة حى عرف بحى الروم ، وفى بغداد دار الروم [1] ترتب على الانهيار التجارى انهيار للعملة البيزنطية التى كانت لها قيمتها من قبل العهد الإسلامى، وقد اتخذ الدينار البيزنطى أساسا للعملة الذهبية فى القرن التاسع والعاشر الميلادى ، وظلت الموازين البيزينطية مستعملة فى البلاد الإسلامية ولا سيما فى سوريا ومصر لمدة طويلة فى القرن الحادى عشر أصبحت Nomisima . Besant عملة عالمية تمد الامبراطورية بأداة فعالة وأصبح Besant له أهمية بالنسبة للعالم الخارجى ، ولكن بعد سنة ١٢٠٤ انهارت قيمتها ، ومع ذلك فإن البنادقة استعملوا فى تجارتهم العالمية فى الشرق وفى ممتلكات الدولة الأيوبية فى الشام عملة كانت تعرف باسم Byzantium Saracennii العملة البيزنطية الإسلامية ، وهى عملة ذهبية ضربها اللاتين للتعامل مع البلاد الإسلامية البعيدة عن الشاطىء[2] ، وكان على هذه القطع نقوش عربية وبعض آيات من القرآن إشارة إلى النبى وتاريخ هجرى وظلت مستعملة حتى عام ١٢٤٩م .

ودفع لويس التاسع فديته بالدينار البيزنطى فالدينار البيزنطى ظل إلى مدى طويل له قيمته ، ولقد أصدر البابا قرارا بحرمان كل من يتعامل بالعملة السابقة فظهرت عملة جديدة ، فصنعوا عملة مشابهة بنقوش مسيحية وتاريخ ميلاد المسيح بالعربية وصليب فى منتصفها ، وبدأ التعامل بها سنة ١٢٥١ ، — وظهر نظام جديد خاص بتقييد ما للعميل من حساب فى المصارف وتأسست البيوت المالية فى جنوه وبيزا والبندقية[3] .

---

(١) العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ١٢٨ .
(٢) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٢١٠-٢١١.
(٣) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص ٢١٢ .

الملاحق

١- جدول بأسماء حكام الشرق الإسلامي ، والدولة البيزنطية (١٠٨١ - ١٢٦٠م) .

٢- رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسي يعدد ماله من فضائل في قتال الفرنج وبيزنطة .

٣- وصف القاضي الفاضل لبعض رسائل الامبراطور البيزنطي إلى صلاح الدين.

٤- رسالة الكايغكوس إلى صلاح الدين .

٥- مدينة القسطنطينية في رحلة الفاضل الهروي .

٦- وصف مدينة القسطنطينية لابن الأثير .



الملحق الأول

جدول بأسماء حكام الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية

١٠٨١ - ١٢٦٠م

أولا - الخلفاء العباسيون :[١]

المقتـــــدى	١٠٧٥-١٠٩٤
المستظهـــــر	١٠٩٤-١١١٨
المسترشـــــد	١١١٨-١١٣٥
الــــراشـــــد	١١٣٥-١١٣٦
المكتفـــــى	١١٣٦-١١٦٠
المستنجـــــد	١١٦٠-١١٧٠
المستضـــــىء	١١٧٠-١١٨٠
النـــــاصر	١١٨٠-١٢٢٥
الظـــاهـــر	١٢٢٥-١٢٢٦
المستنـــــصر	١٢٢٦-١٢٤٢

ثانيا- الفاطميون :[٢]

المستنـــــصر	١٠٣٥-١٠٩٤
المستـــــعلى	١٠٩٤-١١٠١
الآمـــــر	١١٠١-١١٣٠
الحافـــــظ	١١٣٠-١١٤٩
الظـــافـــر	١١٤٩-١١٥٤
الفـــــائز	١١٥٤-١١٦٠

(١) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٤ .
(٢) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٥ .

ثالثا - الأيوبيون :[1]

١ - القاهرة :

صلاح الدين *	١١٩٣-١١٧٤
العزيز *	١١٩٨-١١٩٣
المنصور	١١٩٩-١١٩٨
العادل الأول *	١٢١٨-١١٩٩
الكامل *	١٢٣٨-١٢١٨
العادل الثانى*	١٢٤٠-١٢٣٨
الصالح أيوب *	١٢٤٩-١٢٤٠
المعظم تورانشاه*	١٢٥٠-١٢٤٩
الأشرف موسى	١٢٥٢-١٢٥٠
المستنصر	١٠٩٤-١٠٣٥
المستعلى	١١٠١-١٠٩٤
الآمر	١١٣٠-١١٠١
الحافظ	١١٤٩-١١٣٠
الظافر	١١٥٤-١١٤٩
الفائز	١١٦٠-١١٥٤
العاضد	١١٧١-١١٦٠

٢ -دمشق :

الأفضل	١١٩٦-١١٩٣
العادل الأول *	١٢١٨-١١٩٦
المعظم عيسى	١٢٢٧-١٢١٨
الناصر داود	١٢٢٨-١٢٢٧
الأشرف موسى	١٢٣٧-١٢٢٨
الصالح إسماعيل	-١٢٣٧

(١) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٥ .

* هذه العلامة تدل على الجمع بين القاهرة ودمشق .

الصالح إسماعيل	١٢٣٨-١٢٣٧
الكامل *	١٢٣٩-١٢٣٨
العادل الثانى *	-١٢٣٩
الصالح أيوب *	١٢٤٥-١٢٣٩
الصالح أيوب *	١٢٤٩-١٢٤٥
المعظم تورانشاه *	١٢٥٠-١٢٤٩
الناصر يوسف	١٢٦٠-١٢٥٠

رابعًا - سلاجقة الشام :(١)

سليمان بن ألب أرسلان	١٠٩٥-١٠٩٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١١٠٣-١٠٩٥
دقائق بن تتش (بدمشق)	١١١٣-١١٠٣
ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٤-١١١٣
سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٧-١١١٤

خامسا - سلاجقة الروم بآسيا الصغرى:

سليمان بن قتلمش	١٠٨٦-١٠٨١
قلج أرسلان الأول	١١٠٧-١٠٩٢
ملكشاه الأول بن قلج أرسلان	١١١٦-١١٠٧
مسعود الأول بن قلج أرسلان	١١٥٦-١١١٦
قلج أرسلان الثانى	١١٨٨-١١٥٦
ملكشاه الثانى	١١٩٢-١١٨٨
كيخسرو الأول	١٢٠٠-١١٩٢
سليمان شاه الثانى بن قلج أرسلان	١٢٠٣-١٢٠٠
قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٤-١٢٠٣
كيخسرو الأول (مرة ثانية)	١٢١٠-١٢٠٤
كيكاوس الأول بن كيخسرو الأول	١٢١٩-١٢١٠

---

* هذه العلامة تدل على الجمع بين القاهرة ودمشق .

أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣١٥ .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٩٧-١٢٩٨.

كيقباذ الأول بن كيخسرو الأول	١٢٣٦-١٢١٩
كيخسرو الثانى	١٢٤٥-١٢٣٦
كيكاوس الثانى	١٢٥٧-١٢٤٥
قلج أرسلان الرابع	١٢٦٧-١٢٥٧
كيخسرو الثالث	١٢٨٣-١٢٦٧
مسعود الثانى	١٢٩٦-١٢٨٣
كيقباذ الثالث	١٣٠٠-١٢٩٦

سادسا - أباطرة بيزنطة :(١)

أسرة كومنين :

الكسيوس الأول ، كومنينوس	١١١٨-١٠٨١
يوحنا الثانى	١١٤٣-١١١٨
مانويل الأول	١١٨٠-١١٤٣
الكسيوس الثانى بوصاية مارية الأنطاكية	١١٨٣-١١٨٠
أندرونيكس الأول	١١٨٥-١١٨٣

أسرة أنجيلوس :

إسحاق الثانى ، أنجيلوس	١١٩٥-١١٨٥
الكسيوس الثالث	١٢٠٣-١١٩٥
الكسيوس الرابع	١٢٠٤-١٢٠٣
إسحاق الثانى	١٢٠٤-١٢٠٣
الكسيوس الخامس ، مورتزوفلوس	-١٢٠٤

سابعا - أباطرة نيقية :(٢)

١٢٠٤ ١٢٦١م :

أسرة الأشاكرة :

تيودور الأول الأشكرى	١٢٢٢-١٢٠٤
يوحنا الثالث ، دوكاس	١٢٥٤-١٢٢٢
تيودور الثانى ، الأشكرى	١٢٥٨-١٢٥٤
يوحنا الرابع ، الأشكرى	١٢٦١-١٢٥٨

(١) Ostrogorsky : of . cit . p. 516 .

(٢) Ostrogorsky : of . cit . p. 516.

ثامنا - أباطرة القسطنطينية اللاتين :[١]

١٢٥٤-١٢٦١م

بلدوين الأول ، فلاندرز	١٢٠٤-١٢٠٥
هنرى فلادز	١٢٠٦-١٢١٦
بيتر كورتناى	١٢١٧-
يولاند	١٢١٧-١٢١٩
روبرت كورتناى	١٢٢١-١٢٢٨
بلدوين الثانى	١٢٢٨-١٢٣١
حنا بريين	١٢٣١-١٢٣٧[٢]

تاسعا - أباطرة طرابيزون :[٣]

الكسيوس الأول	١٢٠٤
أندرونيكس الأول	١٢٢٢
حنا الأول	١٢٣٥
مانويل الأول	١٢٣٨
أندرونيكس الثانى	١٢٦٣
جورج	١٢٦٦

عاشرا - حكام أبيروس :[٤]

١٢٠٤-١٢٤٦م

ميخائيل الأول	١٢٠٤-١٢١٥
	١٢١٥-١٢٢٤
تيـودور	١٢٢٤-١٢٣٠[٥]
مانويل	١٢٣٠-١٢٤٠
حنا	١٢٤٠-١٢٤٤
ديمترويس	١٢٤٤-١٢٤٦

(١) Ostrogorsky : of . cit . p. 516.

(٢) حكم حنا بريين فترة بالاشتراك مع بلدوين الثانى .

(٣) Miller : Trebizond p. 125.

(٤) Ostrogorsky : of . cit . p. 517.

(٥) توج تيودور فى أوائل هذه الفترة امبراطورا ، وحمل منذئذ حكام أبيروس لقب امبراطور .

الملحق الثانى

رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسى
يعدد ماله من فضائل فى قتال الفرنج وبيزنطة(١)

لم يكن سبب خروج المملوك من بيته إلا وعدا كان انعقد بينه وبين نور الدين - رحمه الله - فى أن يتجاذبا طرفى الغزاة من مصر والشام المملوك بعسكره بره وبحره ونور الدين من جانب سهل الشام ووعره فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما وحدثت بعد الأمور أمور اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور وتحكمت الآراء الفاسدة وفورقت المحاج القاصدة وصارت الباطنية بطانة من دون المؤمنين والكفار محمولة إليها جزى المسلمين والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد وكانت سيوفهم للنصر موارد يشكون ضيق خلقات الأسار وتطرق الكفار بالبناء فى الحدود الإسلامية ولا خفاء أن الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقصدوا واستنجدوا علينا أنصار النصرانية فى الأقطار وسيروا الصليب من كسى مذابحهم وهدد طاغية كفرهم باشتراط القيامه وأنفذوا البطارقة والقسيسين برسائل صور من يصورنه ممن يسمونهم القديسين وقالوا: إن الفعلة وقعت أوقعت فيما لا يستدرك فارطه وإن كلا من صاحب قسطنطينية وصاحب صقلية وملك الألمان وملوك ما وراء البحر وأصحاب الجزائر كالبندقية والبيشانية والجنوية وغيرهم قد تأهبوا بالعمائر البحرية والأساطيل القوية وللإسلام بأمير المؤمنين ناصر، لاسيما وهم ينصرون باطلا وهو ينصر حقا وهو يعبد خالقا وهم يعبدون خلقا.

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ١ ص ٢٤٤.

الملحق الثالث

وصف القاضى الفاضل لبعض رسائل الامبراطور البيزنطى إلى صلاح الدين(١)

«ينهى المملوك وصول رسول ملك الروم بما فى صحبتـه من هدية ، وبما على لسانه من رسـالـة ، وبما على يـده من كتـاب » وحضر بين يـدى الملك العـادل ، وجـرى من المفـاوضة مـا أبدتـه امتنان الملك بكـونه لم يجب رسـول ملك الألمان وصاحب صقليـة وغيرهـم من جيوش الفـرنج إلى الموافقة على حرب السلطان وإطـلاق طريقهم ، وامتنع وسد الـدربندات وحفظ عليهم الطرق وأوصى أرباب الحصـون بالتيقظ والمنع دونهم ، وجعل عذره ليلتمس موافقته أن البلاد فى هـذه السنة غاليـة السعر والمصلحة تقتضى أن لا تكون الحركـة إلا بقوة وعلى تمكن من الميرة ، وتـأخير الحركة إلى السنة الأخـرى ثم قال: « هذا ملك الروم خائف من الفرنج على بلـده مدافع عن نفسه ، وإن تم له الدفع أدعى أنه بسببنا ، وإن لم يتم أدعى أنه غـائب عن مقصده ومقصدنا » وجعل ما أورده من أن يقـال إن البطاركـة فى قـامته من قبلـه وأن ينقل من ولايـة الفـرنج إلى أن يوليهـا الطاغية من أهـل عمله سببا يبسط به غدره بـزعمه عند أهل جنسه ويـدفع عن نفسه ، لاسيما مع إقامتـه الخطبة الإسـلامية ، ونقله المنبر ، وفسحتـه فى الصلاه وإعـزاز الكلمة الإسلامية ، أرغـم الله بها أنفه ، وعجل بسيفها حتفه . ومولانا أبقاه الله يتثبت فى الأجوبة ولا يجيب إلى ما على الإسلام فيه غضاضة ولا إلى ما للكفر فيه قوة ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ .

ومن كتاب آخر (وصـل إلى المملوك كتاب يذكر وصـول رسول الملك العتيق من

---

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

قبرص إليه ، يخبره بعصيانه على ملك اتكلتيره، ومكاشفته بالعداوة والحرب ، وأنه قد كاتب السلطان – أعز الله نصره – يبذل له من نفسه العبودية والطاعة والمظاهرة على ملك اتكلتيره والأنباء متواترة ، بأن الملك أحرق موانىء قبرص ووعدها وقطع الميرة عن الساحل ، ولا شبهة أن مولانا يتقبل من المذكور ، ويقوى نفسه على هذه المباينة ، فإن فى تخاذلهم نصرة الإسلام وشغل بعضهم ببعض ، وافتراق كلمتهم المجتمعة وقطعا للميرة عن الشام وأمنا لجانب كثير من جوانب البحر ، وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقا ، وما سمى العتيق إلا لأنه صار لمولانا عتيقا ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القسطنطينية فى أنا ننجده على قبرص ، فإنا إنما وعدناه بالنجدة عليها ، لما كانت بيد عدونا ، والله ما أفلح ملك الروم قط ولا نفع أن يكون صديقا ، ولا حتى أن يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب »[1] .

(١) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ١٧٨ .

الملحق الرابع

رسالة الكايغكوس إلى صلاح الدين[1]

ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكايغكوس ، وهو مقدم الأرمن - وهو صاحب « قلعة الروم »[2] التى على طرف « الفرات » .

« كتاب الداعى المخلص « الكايغكوس » ما أطالع به علم مولانا ومالكنا السلطان الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف جلاله ، وصان مهجته وكمل نهاية آماله ، بعظمته وجلاله .

من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك أنه أول ما خرج من دياره ، ودخل بلاد الهنكر[3] غصبا ، وغصب ملك الهنكر بالإذعان والدخول تحت طاعته وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ونهبها وأقام بها ، وأخرج ملك الروم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه ، ولده وأخاه وأربعين نفرًا من خلصائه وأخذ منه خمسين قنطارا ذهبا ، وخمسين قنطارا فضة ، وثيابا أطلس بمبلغ عظيم .

واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك « قلج أرسلان » ورد الرهائن ، وبقى سائرا ثلاثة أيام وتركمان

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٠٧ .

(٢) قلعة الروم : هى قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل ألبيرة بينهما وبين سميساط (معجم البلدان ج ١٣ : ٣٩٠-٣٩١) .

(٣) بلاد الهنكر : المقصود بها بلاد هنغاريا أو المجر (الآن)

ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٢٠ .

« الأوج »[١] يلقونـه بالأغنام « وبـالبقر » والخيل والبضائع ، فـداخلهم الطمع ، وجمعوا جموعا من جميع البلاد ، ووقع القتل بين التركمان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر .

ولما قـرب من « قونيـة »[٢] ، جمع « قطب الـدين ولـد قلج أرسـلان « العسـاكـر » وقصده وضرب معـه مصافا عظيما ، فظفـر به ملك الألمان ، كسره كسرة عظيمـة ، وسار حتى أشرف على قونية فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين ، فردهم مكسورين وهجم على « قونيـة » بالسيف ، وقتل منهم عالما عظيما من المسلمين والفرس ، وأقـام بها خمسة أيام ، فطلب « قلج أرسلان » منـه الأمان فأمنه الملك ، واستقرت بينهم قـاعدة أكيدة ، وأخذ الملك منـه رهائن ، عشرين من أكـابر دولتـه ، وأشار على الملك أن يجعل طـريقه على « طرسوس »[٣] و « المصيصة »[٤] ففعل وقبِل منه .

وقبل وصوله إلى هذه الديار اختيارا أو كرها ، اقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم ، وصحبتـه ما سأل ، ومعـه من الخواص جماعـة للقاء الملك ، وجـواب كتـابه ، وكـانت الوصية (معهـم) أن يمـروا به على بلاد « قلج أرسلان » إن أمكن ، فلما اجتمعـوا بالملك الكبير أعادوا عليـه الجواب ، وعرفـوه الأحوال بـالانحراف ، ثم كثـرت عليه العـاسكر والجمـوع ، ونـزل على شط بعض الأنهار ، وأكل خبـزا ونـام ، وانتبـه فتـاقت نفسـه إلى الاستحمام فى الماء البـارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكـان من أمـر الله أن تحرك عليه مـرض عظيم من الماء البارد ، فمكث أياما قلائل ومات .

وأما « ابن لاون » فإنه كان سائرا يلقى الملك ، فلما جرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكـر ، وتقدمـوا إليـه وأخبروه (بـالحال) ، فدخل فى بعض حصـونـه واحتمى هناك.

---

(١) صنف من الأتراك فيما وراء سيحون (معجم البلدان ج ٣ : ٧٦).
(٢) قونية : مدينة كانت من أعظم مدن الإسلام بالروم (آسيا الصغرى)
(معجم البلدان ج ٣ : ٤٢٥) .
(٣) طرسوس : إحدى مدن (آسيا الصغرى) وكانت ثغرا من ناحية بلاد الروم (آسيا الصغرى) على ساحل البحر الشامى (الأبيض المتوسط) .
(ياقوت ج ٣ : ٢٨-٢٩) .
(٤) المصيصـة : من ثغور الشـام بين أنطاكيـة وآسيا الصغـرى ، وكـانت من الأماكن التى يـرابط بها المسلمون .

وأما ابن الملك ، فكـان أبوه منذ توجهـه إلى قصد هذه الديار ، نصـب ولده الذى معه عـوضه ، واستقـرت القاعـدة ، وبلغه (هرب) رسل ابن لاون فـأنفذ واستعطفهـم وأحضرهـم وقال : « إن أبى كـان شيخا كبيرا ، وما قصد هذه الـديار إلا لأجل حج بيت المقدس ، وأنا الذى دبرت الملك ، وعاينت المشاق فى هذه الطريق ، فمن أطاعنى وإلا قصدت دياره ، واستعطف ابن لاون ، واقتضى الحال الاجتماع (به) ضرورة .

وبالجملة فهـو فى عدد كثير ، ولقد عرض عسكـره فكان اثنين وأربعين مجفجفا[1] وأما الرجالة فما يحصى عددهـم ، وهـم أناس متفاوتة على قصد عظيم ، وجد فى أمرهـم ، سياسة هائلة ، حتى إن من جنى منهـم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة.

ولقـد بلغهـم عن بعض أكابـرهـم أنـه جنى على غلام لـه وجاوز الحد فى ضربـه ، فـاجتمعت القسوس للحكـم ، فاقتضى الحال والحكم العـام ذبحـه ، وشفع إلى الملك منهـم خلق عظيم فلم يلتفت إلى ذلك وذبحـه ، وقد حرمـوا الملاذ على أنفسهـم حتى إن من بلغهـم عنه بلـوغ لذة هجروه وعزروه ، كـل ذلك كان حزنا على بيت المقـدس ، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلـة (وحرموها على أنفسهم) ، وحرموا ما حلَّ ولم يلبسـوا إلا الحديد ، وحتى أنكـر عليهـم الأكابـر ذلك ، وهـم من الصبر على الشقاء والذل والتعب فى حال عظيم .

طالع المملوك بالحال ، وما يتحدد بعد ذلك يطالع به إن شاء الله تعالى .

---

(١) مجفجفـا : أى يلبسون التجفـاف وهى آلـة يلبسها الإنسـان أو الفـرس تصنع من حديـد أو غيره للوقاية أثناء الحرب ، وهى كلمة ليست من أصل عربى . (القاموس المحيط ، والمنجد) .

الملحق الخامس

مدينة القسطنطينية فى رحلة الفاضل الهروى [1]

مدينة القسطنطينية فى جانب صورها قبر أبى أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله وسلم واسمه خالد بن زيد، ولما قتل دفنه المسلمون وقالوا للروم: هذا من كبار أصحاب نبينا فوالله إن نبش لأ دق بناقوس فى أرض العرب أبدا، وبها الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك والتابعون، وبه قبر جل من، ولد الحسين رضى الله عنه وبها الأصنام النحاس والرخام والعمد والطلسمات العجيبة والمنابر الذى تقدم ذكرها والآثار التى ليس فى الربع المسكون مثلها، وبها أيا صوفيا،وهى الكنيسة العظمى عندهم ويقولون بها ملك من الملائكه مقيم بها وقد عملوا داير مكانه درابزاين من الذهب ولها حكاية عجيبة نذكرها فى موضعها وسأذكر ترتيب هذه الكنيسة وهيكلها وارتفاعها وأبوابها وعلوها وطولها وعرضها، والعمد التى بها وعجائب هذه المدينة وأوضاعها وصفة السمك الذى بها وباب الذهب والأبرجه والأفيلة النحاس، وجميع ما بها من الآثار والعجائب ومما فعل الملك مانويل معى من الخير والإحسان فى كتاب العجائب كما تقدم إن شاء الله تعالى وهذه المدينة أكبر من اسمها نسأل الله تعالى أن يجعلها دار إسلام بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى مدينة سالونيك[2] يقصدها الروم والفرنج والله أعلم.

أما مدينة نيقية من أعمال أسطنبول على البر الشرقى، وهى المدينة التى اجتمع بها أبناء الملة المسيحية، وكانوا ثلاثة وثلاثين وثمانية عشر أبا ويزعمون أن المسيح عليه السلام كان معهم فى هذا المجمع وهو أول المجامع لهذه الملة وبه أظهروا الأمانة التى هى أصل دينهم وصورهم وصورة المسيح على كراستهم بهذه المدينة فى وطاق ولهم فيها الاعتقاد العظيم الطريق من هذه المدينة إلى بلاد الروم الشمالية قبر أبى محمد البطال على تل فى حد تخوم البلاد عمرويه بها قبور جماعة استشهدوا مع المعتصم رحمهم الله

---

(١) الهروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات ورقه ١٩٧ (مخطوط بدار الكتب ٧٤٧ جغرافيا)

(٢) يقصد مدينة سالونيك .

تعالى - وآثار عجيبة ذكرها فى موضعها سلطان وكى وهو موضع عجيب ويقال له أيضا الثيرما بالرومى ويقال له أوكوم وهو على تخوم البلاد وحد الكافر وبهذا الموضع آثار ازاج معقـودة وتحتها الماء الـذى ليس مثله فى البـلاد فى صفائه وحـرارته وحـلاوته ومنفعتـه تقصده أصحاب الأمراض من البلاد وسنذكر صفته والحياة التى به فى كتاب العجائب إن شاء الله تعالى مـدينة قونية بها قبر أفلاطون الحكيم بـالكنيسة التى إلى جانب الجامع ورأيته فى بستـان فخر الدين سريـرا من الرخـام عليه صورة رجل وامـرأة نيام تحت إزار والجميع مستخـرج من جسم الرخـام وذرعتـه طولا وعـرضـا ، وسيأتى ذكره فى كتـاب العجائب إن شـاء الله ، وبالله التـوفيق ونعم الرفيق مدينـة قيصاريـة بها جسر محمد بن الحنفية بن على بن أبى طـالـب رضى الله تعالى عنه ، وبها جامع البطـال ، وبها البضرم به آثار قـديمة وبها قبة الخيالـة ، وبها الحمام الذى ذكروا أن بلنـاس الحكيم عملها للملك قيصر تحمى بابراج الله أعلم ، وعنـدها جبل عسيب به قبر امرىء القيس شـاعر العرب الذى قال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب * وإنى مقيم ما أقـــام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ها هنـــا * وكل غريب للغريب نسـيب

ذكر الإبـروق وهو مـوضع ببلاد الـروم يزار فى الأفـاق وبلغنى أن به شهـداء عهد عمربن الخطاب وأنهم لا يبلـون ، ويحلقون رءوسهم ويقلمون أظافـرهم فقصدته لالقى نظرة حقيقيـةعلى ذلك وهو فى لجف جبل إليـه يدخل مـن باب برج ويمشى الـداخل تحت الأرض إلى أن ينتهى إلى موضع واسع ، وهـو جبل مكشوف تبين السماء من قـوته وفى وسطـه بحيرة ودايرهـا بيوت الفـلاحين وهـم قوم من الـروم ، زرعهـم ظاهـر الموضع وبيوتهم داله وهناك كنيسة لطيفة ومسجد فإن كان الذاكر مسلما أتوا به إلى المسجد وإن كان نصرانيـا أتوا بـه إلى الكنيسة ثـم يدخل إلى بهو فيـه جماعة قـد قتلوا وآثـار طعنات الأسنـة وضربات السيـوف فيهم ومنهم من قـد راح بعض أعصـابه وعليهم ثيـاب من القطن لم تتغير وهناك فى مـوضع أخر أربعـة قيام قد سنـدوا ظهورهم إلى حـائط المغارة ومعهم صبى قد وضع رأسـه على يد واحد منهم طـوال من الرجال أسمر اللـون وعليه قباء من القطن مفتوح كأنه يصافح ورأس الصبى على زنده وإلى جانبه رجل على وجهه ضربة قد قطعـت شفته العليا وظهرت أسنانـه وهم بعمايم وهناك مغارة كـالفصنة فيها امرأة وعلى صـدرها صغير ماسك بثديها ، وحلمتهـا فى فيه وهناك أيضا فى مـوضع عال

سرير عليه اثنا عشر رجلا فيهم صبى مخضوب بالحناء يداه ورجلاه والروم يزعمون أنهم منهم والمسلمون يقولون هم من أصحاب عمر بن الخطاب ورضى الله تعالى عنه ماتوا هناك صبرا وما حلق رءوسهم وتقليم أظافرهم فليس لذلك صحة إلا أنهم قوم قد يبست جلودهم على العصام ولم يتغيروا ، والله تعالى أعلم، مدينة ابلستين قرب منها بلد خراب يقال له أبسيس[1] يقال : إنه بلد دقيانوس وبه آثار عجيبة وعمارة قديمة وغربى هذه البلد الكهف وهو كما قال الله عز وجل فى كتابه العزيز ووصفه بقوله ﴿**وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال** وهم فى فجوةٍ منه ﴾ « الآية ١٧ سورة الكهف » وقد تقدم ذكر أهل الكهف والرقيم وهذا أصح ما رُوِىَ والله أعلم - مدينة ملطية قيل بناها الإسكندر ويقال إن جامعها بنته الصحابة والتابعون رضى الله عنهم أجمعين مدينة ازرن الروم بها قبر الحجاج بن علاظ ، والله أعلم .

(١) أبسيس هى أفسوس .

الملحق السادس

وصف مدينة القسطنطينية(١)

أرض الروم إقليم عظيم وبه مدن وضياع وقرى وبساتين وفواكه مختلفة الثمار وهى على جانبى البحر القسطنطينى من الجهتين إلى المحيط المظلم ، وهى حى من أحياء الروم وبين بحر القرم ودونه من جهة بلاد الأرض أحد عشر عملاً وعمل حربية فيه خمس حصون وعمل الأرسق من عشرة حصون وعمل ألافشين وبه أربعة حصون وعمل خيرسون وبه أربعون حصنا وعمل النقلان وفيه ستة عشر حصنا وعمل الأرسان وفيه خمسة عشر حصنًا وأرزن الروم وهى بلاد اليونان غلبت الروم عليها ويقال إنه ببلاد الروم ما به جزيرة فى البحر كلها مدن عامرة وقرى متصلة ورساتيق وحصون منيعة ، ومدنهم المشهورة القسطنطينية هى جدية مثله الشكل منها جانبان في البحر وجانب فى البر وفيه باب الذهب وطولها تسعة أميال وعليها سور حصين ارتفاعه أحد وعشرون ذراعًا يحيط بها فصل داير ارتفاع سمكه عشرة أذرع وبها من الأبواب مائة باب وأكثرها الباب المصمت وهو الباب الكبير ، وهو مموه بالذهب وبها القصر المشهور وبه اليديدرك ، وهو الدرب الذى يتوصل منه إلى القصر وهو من عجائب الدنيا وهو ملعب وزقاق يمشي فيه من شطرين من صور متفرعة من نحاس بديع الصنعة على شكل الآدميين والخيل والفيلة والسباع ، وغير ذاك ، وهى أكبر من الأشكال الموضوعة على مثالها وبالقصر ، وبها دار صفوف من العجائب وفى المدينة منارة موثوقة بالرصاص والحديد إذا هبت الريح مالت معها يمينا وشمالا وخلفا وأماما ويدخل الناس تحتها

(١) ابن الأثير : تحفة العجائب وطرفة الغرائب ورقه ١٥٧-١٥٨ .
نقل بن الأثير معلوماته من كتب الرحالة المناهج والمناهج للرواقى العجائب للقزوينى المسالك والممالك الشرقية للجيهانى والإشارات للهروى.

الخزف فتطحنه وبها أيضا منارة قريبة من مرساها قد قلب قطعة واحدة وليس لها باب ، وفيها أيضا منارة قريبة من مرساهـا قد ألبست جميعها نحاسا وعليها قبر قسطنطين وهو راكب وقوائم الفرس محكوم بالرصاص حـاملا يده اليمنى بأنها مطلوقة سلبية فى الهوى كأنه ســائر وفى يده اليسرى كرة ويده اليمنى مفتـوحة كأنه يشير نحو بـلاد الشام وهذه المنارة تبين على مسيرة نصف يـوم فى البحر يقولون: إن فى يـده طلسمًا يمنع العدو وقيل إن على الكرة مكتوبًا « ملكت الدنيا حتى بقيت فى يدى كالكرة وخرجت منها هكذا لا أملك شيئا» وبها أيضا قنطـرة يعجز الواصف عن ذكرهـا ويخرج إلى حد التكذيب وبها من النقوش مالا يحصره الواصف .

* * *

المراجـــع

أولا : المصادر العربية المخطوطة والمصورة .

ثانيا : المصادر العربيــة المطبوعــة .

ثالثا : المراجع العربيــة الحديثــة .

رابعا : المراجع الأوربيــة .



أولا : المصادر المخطوطة والمصورة

ابـــــن الأثير : (عز الدين أبو الحسن على الجزرى) :
تحفة العجائب وطرفة الغرائب .
مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٩٩ جغرافيا

ابـــن أيبـــك : (أبو بكر عبد الله) :
كنز الدرر وجامع الغرر
الجزء السابع وعنوانه « الدار المطلوب فى أخبار بنى أيوب »
مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ

ابـــن واصـــل : (جمال الدين محمد بن سالم)
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .
صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٥٣١٩ مأخوذة من نسخة خطية با لمكتبة الأهلية بباريس .

العينـــــى : (بدر الدين محمود الحنفى)
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .
الجزء ١٨ مخطوطة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ .

النـــويـــرى : (شهاب الدين أحمد) :
نهاية الأرب فى فنون الأدب .
الجزء ٢٧ مخطوطة بالتصوير الشمسى بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارض عامة .

الهـــــروى : الإشارات إلى معرفة الزيارات .
رحلة الفاضل الهروى
مخطوطة بدار الكتب رقم ٧٤٧٤ (جغرافيا) .



ثانيا : المصادر المطبوعة

ابن الأثير : (عز الدين أبو الحسن على الجزرى) :

* التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية (القاهرة ١٩٦٣)

* الكامل فى التاريخ (١٢ جزءا)

ابن تغرى بردى : (جمال الدين يوسف أبو المحاسن) :

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٣٦)

ابن جبير : (أبو الحسن محمد بن أحمد)

الاستبصار فى عجائب الأمصار

رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٠٨)

ابن الجوزى : (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى) .

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان .

جـ ٨ (حيدر آباد ١٩٥٢)

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد)

العبر وديوان المبتدأ والخبر (القاهرة ١٣٢٢)

ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .

٣ أجزاء (القاهرة – ١٩٤٨)

ابن رستة : الأعلاق النفيسة (ليدن – ١٨٩١)

ابن سعيد المغربى : كتاب بسط الأرض فى الطول والعرض .

تحقيق خوان قرنيطنيسى (تطوان – ١٩٥٨)

ابن شـاكــر الكتبى : (صلاح الدين محمد)

الوافى بالوفيات (جزءان فى مجلدين- مطبعةبولاق)

ابـن شـــــــداد : (القاضى بهاء الدين)

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ١٣١٧هـ)

ابـن العبـــــــرى : (غريغورس الملطى)

تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨)

ابـن العـــــديم : (كمال الدين عمر بن أحمد)

زبدةالحلب فى تاريخ حلب

جزءان نشرهما سامى الدهشان (دمشق ١٩٤٥-١٩٥١)

بقية الكتاب مخطوطة بدار الكتب

ابـن شـــــــداد : (القاضى بهاء الدين)

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ١٣١٧هـ)

ابـــــــن العبرى : (غريغورس الملطى)

تاريخ مختصر الدول (بيروت ١٩٥٨)

ابـن العـــــديم : كمال الدين عمر بن أحمد)

زبدة الحلب فى تاريخ الحلب

جزءان نشرهما سامى الدهشان (دمشق ١٩٤٥ - ١٩٥١)

ابـــــــن العماد : بقية الكتاب مخطوطة بدار الكتب

(عبد الحى بن أحمد الحنبلى .

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب

طبعة مكتبة القدس (١٣٥)

ابن القـــــلانسى : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)

ابن مسكويه : أبو حيان التوحيدى

تجارب الأمم (مصر ١٣٢٢)

ابن مماتى : (الوزير الأسعد الخضير شرف الدين أبى المكارم)

قوانين الدواوين . (القاهرة ١٩٠٧)

ابن النديم : (محمد بن إسحاق بن أبى يعقوب)

الفهرست (القاهرة ١٢٩٩)

ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم)

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب

نشره وحققه جمال الدين الشيال حتى نهاية سنة ٦١٥هـ

فى ثلاثة أجزاء .

بقية الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب (القاهرة ١٩٦٠)

ابن الوردى : (أبو جعفر زين الدين عمر) :

تنمية المختصر فى اخبار البشر

المعروف بتاريخ ابن الوردى

(القاهرة ١٢٨٥هـ)

أبو شامة : (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن المقدسى)

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (القاهرة ١٢٨٧)

ذيل الروضتين (القاهرة ١٩٤٧)

أبو الفدا : (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)

المختصر فى أخبار البشر المعروف بتاريخ أبى الفدا

(القاهرة ١٢٣٥هـ)

أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٢٩م)

الإدريسى : محمد بن محمد عبد الله بن إدريس

نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق فى ذكر الأمصار والأقطار

والبلدان والجر والمدن والآفاق (روما ١٨٧٨م)

الأصفهـــــانى : (عماد الدين محمد)

* تاريخ دولة آل سلجوق (القاهرة ١٣١٨)

* الفتح القسى فى الفتح القدسى (القاهرة ١٢٢٥)

الفتح بن على بن محمد

البنـــــــدارى : زبدة النصرة ونخبة العصرة وهو مختصر نصرة الفترة وعصرة القطرة لعماد الدين الكاتب الأصفهانى (القاهرة - ١٣١٨)

التطيـــــــلى : (بنيامين بن يوته)

الرحلة (بغداد - ١٩٤٥)

الطبـــــــرى : محمد بن جرير

تاريخ الأمم والملوك (القاهرة - ١٣٢٦هـ)

القـــــزوينى : زكريا بن محمد بن محمود

عجائب المخلوقات (مطبعة التقدم: القاهرة)

القلقشنـــــدى : (أبو العباس أحمد)

صبح الاعشى فى صناعة الإنشا

١٤ جزء (القاهرة - ١٩١٣)

المسعـــــودى : على بن الحسين بن على المسعودى

مروج الذهب ومعادن الجوهر

(أربعة أجزاء) (القاهرة ١٣٨٢هـ)

المقـــــدسى : أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن ١٨٧٧م)

المقـــــريــــزى : (تقى الدين أحمد بن على)

* السلوك لمعرفة دول الملوك

تحقيق محمد مصطفى زيادة (القاهرة - ١٩٣٦)

* المواعظ والاعتبار (مصر ١٣٢٥)

* اتعاظ الحنفا (ليبزج ١٩٠٩م)

النـــويـــرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)

نهاية الأرب فى فنون الأدب (القاهرة - ١٣٢٤هـ)

يـــاقـــوت : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى)

معجم البلدان - ٥ مجلدات (القاهرة - ١٣٥٩هـ)

الأنطاكـى يحيـى بن سعيد: (بيروت - ١٩٠٩)

التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق

* * *



ثالثا : المراجع العربية الحديثة

أرشيبالد (لويس) : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط
ترجمة أحمد محمد عيسى

بينز (نورمان) : الامبراطورية البيزنطية
ترجمة حسين مؤنس (القاهرة ١٩٥٠)

حبشى (حسن) : الحروب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٤٧)
نور الدين والصليبيون (القاهرة ١٩٤٨)

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى (القاهرة ١٩٤٨)

حسن (زكى محمد) : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى (مصر ١٩٤٥)
تراث الإسلام (القاهرة ١٩٣٦)

حسنين (عبد النعيم): سلاجقة إيران والعراق (القاهرة ١٩٥٩)

داوسون ، كروستوفر : تكوين أوربا
ترجمة سعيد عبد الفتاح عاشور ، محمد مصطفى زيادة
(القاهرة ١٩٤٧)

ديل (شارل) : البندقية جمهورية أرستقراطية
ترجمة أحمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق إسكندر (القاهرة١٩٤٧)

رنسمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية
ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد (القاهرة ١٩٦١)

زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى
ترجمة زكى محمد حسن وحسن أحمد محمود

(القاهرة ١٩٥١ ، ١٩٥٢)

زيدان (محمد مصطفى): حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة (القاهرة ١٩٦١)

زيادة (نقولا) : الرحالة العرب (القاهرة ١٩٥٦)

زيدان (جورجى) : تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة ١٩١٣)

سعداوى (نظير حسان) : الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى (القاهرة ١٩٦١)

خمسة من مؤرخوى الحروب الصليبية (القاهرة ١٩)

الصياد (فؤاد عبد المعطى: المغول فى التاريخ (القاهرة ١٩٦٠)

عاشور (سعيد عبد الفتاح): الحركة الصليبية (جزءان) (القاهرة ١٩٦٣)

العدوى (إبراهيم احمد) : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية (القاهرة ١٩٥١)

العرينى (السيد الباز): الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦١)

الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٣)

مؤرخو الحروب الصليبية (القاهرة ١٩٦٠)

مصر فى عصر الأيوبيين (القاهرة ١٩٦٠)

تاريخ أوربا العصور الوسطى

فشر (هـ . أ . ل) : ترجمة محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العرينى (القاهرة ١٩٥٤)

موسى (عمر) : أدب الدولة المتابعة عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك (دار الفكر الحديث - لبنان)

كلارى : (روبرت) : فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ترجمة حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٤)

* * *

رابعا : المراجع الأوربية

Bayns (N), Moss : Byzantium an introduction to East Roman Civilization. (Oxford . 1948)

Burry : The Second Crusade , in setton : History of the crusades I ch. XV.

Branrd : (Charles) : Saladin and Byzantium . (specium 1945 Vol xx) .

Brooks, E. W., : The Arab in Asia minor. Arapic lists of the Byzantine themes. (Journal of Hellenic Studies Vol xxI) .

Brooks : E : W . The relation Between the Empire and Egypt (Byzantimsch Zeitschrift 1939 XX II.)

Cahen (C.) : La Syrie du Nord á lepoaue des croisades. (Paris 1940)

Cambridge Med. Hist. (Camb . 1957)

Chalandon (F.) : Essai Sur la Regne d'Alexis comnene. (Paris 1900)

Chalandon (F.) : Histoire de la Premiere Croisade. (Paris 1925).

Les Comnenes . 2 vols. Paris 1900-1912.

Davis (Rev. E. J.) The Invacion of Egypt by Louis IX of France . London-1897

Diehl. Charles (H.) : History of the Byzantine Empire (N.Y. 1945).

London 1913

Encyclopedia of Islam

Gibb (H. A. R.) : The Claphite and the Arab State . in Setton : History of the crusades vol . I.

Gibbon (E.) : Decline and Fall of the Roman Empire . vol . VI . London 1957

Grousset : Histoire des Croisades 3 vols. Paris 1936.

Heyd : Hist . de commerce de Levant au Moyen Age. 2 vols. (Leipzig 1923).

Howorth , Henry (H.) : History of the Mongols . London 1880.

Joinville : Histoire de Saint Lovis I.ed . N. de Waily . Paris 1874 .

Joinville : History of Saint Louis (by Joon Evans)

La monte : Byzantine Empire and crusading States (Bysantion 1932 Tom Vii) (Bruxelles 1932)

Lane - Poole (S.) : Saladin and the fall of the Kingdom of Jerusalem . (London 1926) .

A History of Egypt in the middle ages (London 1901)

Miller, William : Trebizond , The last Greek Empire (London - 1920)

Essays of the latin Orient . (Camb . 1921-1925)

Ostrogorsky (G.) : Hist. of the Byzantine State (Tran . by Joan Hussey). (Oxford 1956)

Runciman (S.) : A Hist. of the Crusades . 3 vols (Camb . 1954)

Setton : A Hist . of the Crusades 2 vols (Philadelphia)

Pirenne Jacques : The Tides of History . 2 vols .

Wiet (G.) : L'Egypte Arabe (Hist . de la Nation Egyptienne) IV.

William of Tyre : A Hist . of Deeds Done Beyond the sea. (Trans Babcock. Krey) 2 vols . (Columbia 1943)

Vasiliev (A. A.) : The Foundation of Empire of Trebizond (speclum journal of Medival studies vol XI .
(Camb . 1945)

Hist . of the Byzantine Empire . 2 vols
(Madison 1952)

* * *

الفهـــــرس

الموضـــــوع الصفحة

الفصـــــل الثالث

صلاح الدين والبيزنطيون

١١٧٤-١١٨٠م

الفصـــــل الرابـــع

التحالف الأيوبى البيزنطى فى عهد صلاح الدين

١١٨١-١١٩٣م

المـراجـــع

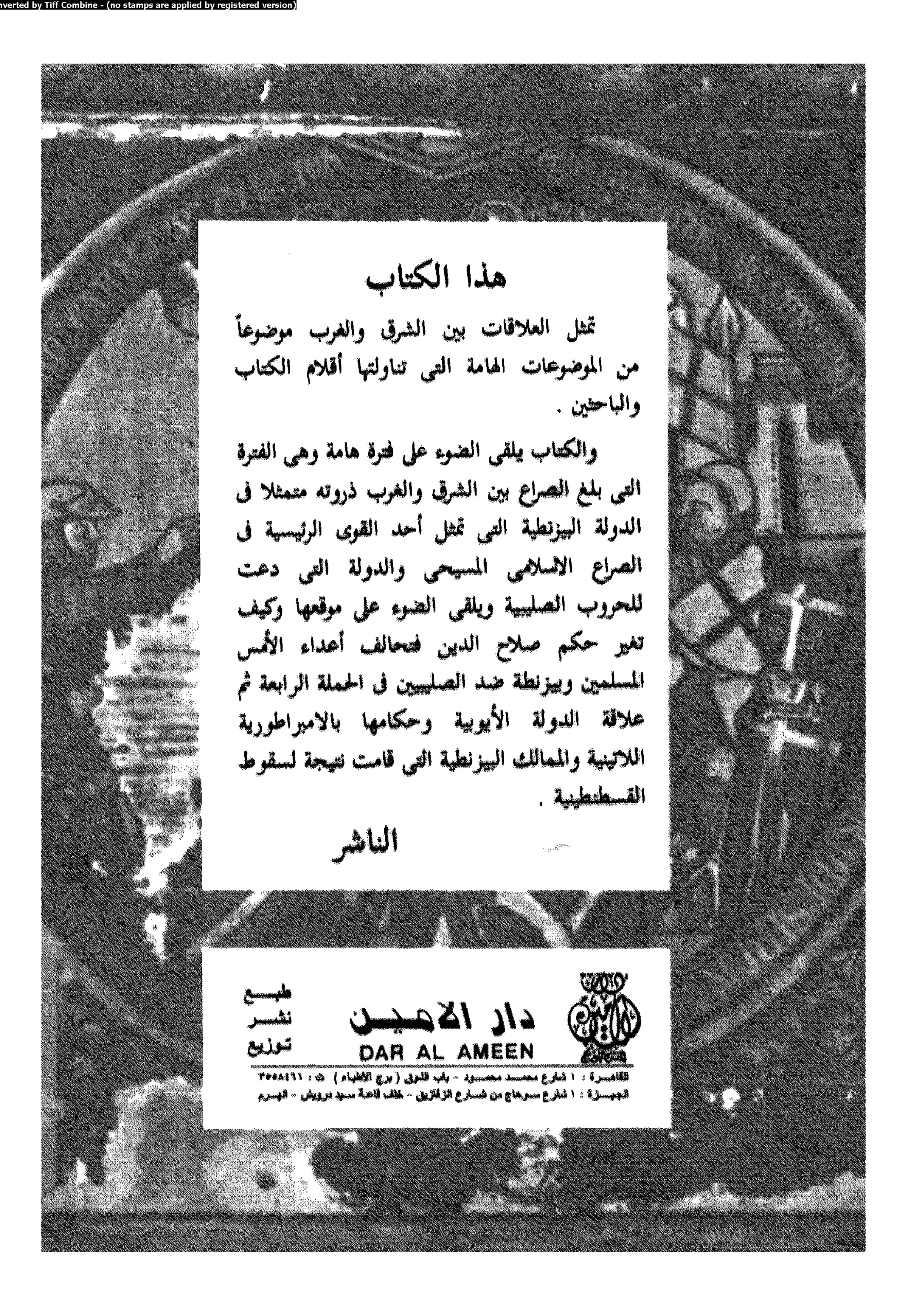
فهـرســت الصـــور

❑ ❑ ❑









هذا الكتاب

تمثل العلاقات بين الشرق والغرب موضوعاً من الموضوعات الهامة التي تناولتها أقلام الكتاب والباحثين .

والكتاب يلقى الضوء على فترة هامة وهي الفترة التي بلغ الصراع بين الشرق والغرب ذروته متمثلا في الدولة البيزنطية التي تمثل أحد القوى الرئيسية في الصراع الاسلامي المسيحي والدولة التي دعت للحروب الصليبية ويلقى الضوء على موقعها وكيف تغير حكم صلاح الدين فتحالف أعداء الأمس المسلمين وبيزنطة ضد الصليبيين في الحملة الرابعة ثم علاقة الدولة الأيوبية وحكامها بالامبراطورية اللاتينية والممالك البيزنطية التي قامت نتيجة لسقوط القسطنطينية .

الناشر

دار الامين
DAR AL AMEEN

طبع
نشر
توزيع

القاهرة : ١ شارع محمد محمود - باب اللوق (برج الاطباء) ت : ٣٥٥٨٤٦١
الجيزة : ١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق - خلف قاعة سيد درويش - الهرم